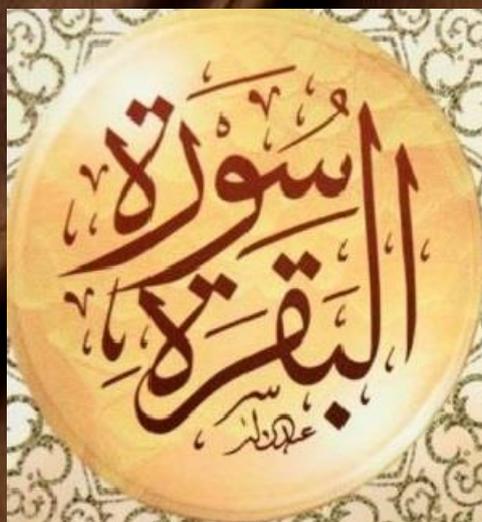


# إتحاف البررة

بتفسير



الجزء الأول

٦-١

تأليف

د. محمد بن مرزوق بن طرهوني

١٤٢٦هـ

هذا الكتاب عبارة عن المحاضرات التي سجلها  
الدكتور محمد طرهوني  
لطلاب جامعة المدينة العالمية بكلية القرآن الكريم  
والتي كانت بمعدل ستين محاضرة لكل فصل وأتم في ذلك  
فصلين كاملين وذلك عام ١٤٢٦ هـ

## المحاضرة الأولى

عنوان المحاضرة : كلمة توجيهية للطلاب حول أهمية طلب العلم واستغلال الوقت بما  
ينفع ثم التعريف بالمؤلف وطريقته في كتابه

\*\*\*

مدخل :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فأرحب بأبنائي طلبة العلم في هذه الكلية المباركة وأود أن نبدأ محاضراتنا في تفسير كتاب الله عز وجل بكلمة أذكر فيها نفسي وإياكم بأهمية طلب العلم وضرورة استغلال الوقت بما ينفع لأن السعيد من وعظ بغيره وكم من الناس حولنا لم يتيسر لهم هذا الخير العظيم الذي تيسر لنا بمنة الله علينا أن جعلنا ممن سلك سبيل العلم وأهله وأنتم تعلمون أن الله يعطي هذه الدنيا لمن أحب ومن لا يحب ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن أحب فنسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا ممن أحب وأن يحشرنا في زمرة أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته .

أولا : أهمية طلب العلم واستغلال الوقت بما ينفع :

إن لطلب العلم منزلة عظيمة في الإسلام وقد تكاثرت النصوص من الكتاب والسنة في مدح العلم وأهله .

قال تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ المجادلة ، وقال : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فاطر ، وقال ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ الزمر ٩

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله ، تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال : فيسألهم ربهم \_ عز وجل وهو أعلم منهم \_ : ما يقول عبادي ؟ قال تقول : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك . قال فيقول : هل رأوني ؟ قال فيقولون : لا والله ما رأوك . قال : فيقول :

كيف لو رأوني ؟ قال يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيذا وأكثر لك تسبيحا . قال يقول : فما يسألوني ؟ قال: يسألونك الجنة . قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها وطلبا وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعودون ؟ قال يقولون : من النار . قال يقول : وهل رأوها ؟ قال فيقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة . قال فيقول : فأشهدكم أنني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم " .

وكذا روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه " .

قال الماوردي رحمه الله : اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب ، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب ، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب ، لأن شرفه يثمر على صاحبه ، وفضله ينمي عند طالبه ؛ قال الله تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ الزمر ٩

فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل ، لما قد خص به العالم من فضيلة العلم . وقال تعالى : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ العنكبوت ٤٣ فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا ، أو يفهم منه زجرا . وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل ؛ لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم ، وهذا أبلغ في فضله ، لأن فضله لا يعلم إلا به ، فلما عدم الجهلة العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم ، جهلوا فضله ، واستزدلوا أهله ، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة، والطرف المشتهاة أولى أن يكون إقبالهم عليها ، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن معتر في منشور الحكم : العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان جاهلا ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالما .

وهذا صحيح ، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله ، انصرف الزاهدين ، وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين ، لأن من جهل شيئاً عاداه . وقيل لأحد الحكماء : العلم أفضل أم المال ؟ فقال : بل العلم . قيل : فما بالناس نرى العلماء على أبواب الأغنياء ، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء ؟ فقال : ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال ، وجهل الأغنياء بفضل العلم . ١.هـ

وعلى طالب العلم أن يتخلق بآداب طلبه وإلا ذهب وقته سدى وضاع عمره هباءً ومن أجمع ما كتب في ذلك ما كتبه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع وما كتبه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ومن هذه الآداب :  
أولاً : أن يخلص لله في طلبه للعلم فإنه عبادة وقد قال تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال : قل الله أعبد مخلصاً له ديني .

ثانياً : أن يتواضع في طلبه للعلم :

قال الماوردي رحمه الله : اعلم أن للمتعلم في زمان تعلمه تملقا وتذللاً ، إن استعملهما غنم وإن تركهما حرم ، لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه ، والتذلل له سبب لإدامة صبره ، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة ، وباستدامة صبره يكون الإكثار ...  
وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ذلت طالبا فعززت مطلوباً .

وقال بعض الحكماء : من لم يتحمل ذل التعلم ساعة ، بقي في ذل الجهل أبداً .

وقال بعض حكماء الفرس : إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب ، قعدت وأنت كبير حيث لا تحب .

ثالثاً : أن يتدرج في طلب العلم قال الزهري رحمه الله : ((من رام العلم جملة ذهب عنه جملة وإتما العلم يطلب على مرّ الأيام والليالي)) وقد قال جلّ وعلا: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ آل عمران ، قال البخاري : الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره .

رابعاً : أن يحرص على وقته فإن الوقت هو رأس مال طالب العلم وكما في الحديث الصحيح : لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ومنها : وعن عمره فيما أفناه .

ولذا فإنه لزاما على طالب العلم أن يستغل وقته كله في طلبه للعلم ، وأن يجعل للعلم أعزّ أوقاته وأحلاها، لا الأوقات التي كلّ فيها ذهنه وضعف فيها فهمه . وأن يكون شغفا بالعلم ليلا ونهارا ولهذا يقول بعضهم إذا رأيت كتب طالب العلم مرتبة فأعلم أنه هاجر لها إذن هو منشغل دائما، أينما كان، منشغل بطلب العلم لا يسليه عن طلب العلم نزهة ولا صحبة ولهذا نرى أنه من أكبر ما يعاب على بعض من يظنّ أنّه طالب علم أنّه يمضي الساعات الطوال في مجالس في قيل وقال وأحاديث لا تمت إلى العلم بصلة . ولهذا يقول بعض من تقدم: ((أعط العلم كلّك يعطيك بعضه)) ولا ينقطع طالب العلم عن طلبه حتى يموت وقد حدث بعض الأئمة بحديث وهو على فراش الموت فقال لكاتبه أكتبه . والإمام أحمد لما كان في مرضه الأخير كان ربما أنّ أصابه بعض الوجع فأن أنينا فأتى بعض تلامذته فروى له بالإسناد أنّ محمد بن سيرين روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان يكره الأئنين فما سمع لأحمد أنينا حتى مات .

خامسا : عليه بالصبر وعدم الملل فقد روى الخطيب البغدادي أنّ أحد طلبه الحديث رام طلبه ورغب فيه وحضر عند الأشياخ وجلس مجالسهم ثم لما مرّ عليه الزمن رأى أنّه لم يستفد شيئا ولم يحصل كبير علم فقال: إنني لا يناسبني هذا العلم وترك العلم لظنّه أنّ عنده في فهمه ركودا أو أنّه لا يصلح لطلب العلم؛ قال : فلما كان ذات يوم مرّ على صخرة يقطر عليها ماءً قطرة تلو قطرة وقد أثر ذلك الماء في تلك الصخرة فحفر فيها حفرة فتوقف متأملا ومعتبرا ومتدبرا فقال: هذا الماء على لطافته أثر في هذه الصخرة على قساوتها فليس عقلي وقلبي بأقسى من الصخر وليس العلم بألطف من الماء، فعزم على الرجوع إلى طلب العلم فرجع ونبغ وصار ممن يشار إليهم فيه .

سادسا : أن يسلك منهجا صحيحا في طلب العلم ونحن والحمد لله في دراستنا المنهجية نسير وفق خطط مدروسة تعنى بذلك وأما من يدرس العلم خارج الجامعة فعليه بما كتبه أهل العلم حول منهجية طلب العلم ومن ذلك محاضرة الشيخ صالح آل الشيخ في منهجية طلب العلم وقد ذكرت طرفا منها اليوم وكذا ما نشر عني من مقال حول ذلك ولكني أحب أن أنبه هنا على بعض مما ذكرته عن نقطة هامة وهي الاختلاف بين المرید لطلب العلم في زماننا

وبين شبيهه في زمن السلف الصالح أعني قضية التربية والنشأة ومؤثرات المجتمع بالإضافة لضعف اللغة لذا فإنني أرى أنه لا بد من منهج مختلف نوعا ما عن منهج طلب العلم في العصور المتقدمة الفاضلة وما تبعها لهذه الحثيثة فأرى أن يبدأ طالب العلم بتزكية نفسه أولا وتعريفها على منزلة العلم وأهله وكيف يجعل عمله خالصا لله وكيف يتخلص من الإغراق في متاع الدنيا والانشغال بفتنها ثم بعد ذلك يبدأ في المنهج المتبع المعروف ، وعليه فيكون الطلب كالتالي :

أولا : دراسة كتاب في آداب طالب العلم مثل الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ومن الكتب الحديثة كتاب حلية طالب العلم للشيخ بكر أبو زيد وقراءة كتاب في فضل العلم ككتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر .

ثانيا : دراسة كتاب في الأخلاق والتربية مثل كتاب السير والأخلاق ومداواة النفوس لابن حزم وقراءة كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي وتلبس إبليس له وكتاب محاسبة النفس والإزراء عليها لابن أبي الدنيا أو ما يقوم مقامها .

ثالثا : قراءة كتاب في الزهد مثل كتاب الزهد والرفائق لابن المبارك أو الزهد للإمام أحمد رابعا : قراءة كتاب في تراجم السلف الصالح وعلماء الأمة مثل المجلدات الخمس الأولى من سير أعلام النبلاء وتقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم وحلية الأولياء لأبي نعيم أو الاطلاع على تراجم مشاهير الأمة في أي كتاب معتمد .

وأخيرا عليه بالاهتمام بدراسته للغة والنحو والصرف خلال دراسته المنهجية ولو استزاد من ذلك خارج تلك الدراسة فهو زيادة خير من غير إفراط في ذلك .

(المراجع : صحيح البخاري ١٠٨/٨ ، صحيح مسلم ٢٠٧٤/٤ ، أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٧٥) ، محاضرة "منهجية طلب العلم" لصالح آل الشيخ )

هذه مقدمة موجزة في أهمية طلب العلم واستغلال الوقت ونشرع الآن في كلامنا عن الكتاب المقرر دراسته في تفسير كتاب الله عز وجل ونستهل حديثنا بترجمة موجزة لمؤلفه رحمه الله تعالى وأجزل له المثوبة فنقول :

## ترجمة المؤلف :

هو الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي ، القيسي العبسي ، البصري \_ نسبة إلى بصري الشام \_ الدمشقي .  
ولد سنة ٧٠١هـ في مجدل القرية من أعمال بصرى .

نشأ في أسرة علم وفضل فقد كان أبوه الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير من العلماء الفقهاء الخطباء . توفي عنه وهو ابن ثلاث أو نحوها فاتجه إلى الطلب في وقت مبكر من حياته ، على يدي أخيه عبد الوهاب . وأكمل حفظ القرآن الكريم ، ولم يتجاوز العاشرة من عمره على شيخه شمس الدين البعلبكي وقرأ بالقراءات ، حتى عدة الداوودي من القراء ، وترجم له في طبقاتهم التي ألفها .

وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره . وعني بالسمع والإكثار منه .  
وقرأ على صهره الحافظ المزي مؤلفه العظيم في الرجال " تهذيب الكمال " وغيره  
كما حفظ المتون المتنوعة في العلوم الشرعية

وكان صحيح الذهن ، كثير الاستحضار ، قليل النسيان .

وهكذا لزم ابن كثير - رحمه الله - الاشتغال بطلب العلم ، ودأب وحصل وكتب ، حتى برع في علوم كثيرة ، وصار يشار إليه بالبنان ولما يزل شابا وهذا من فضل الله عليه ، إذ هيا له أسباب تحصيل العلم ، ويسر له سبله .

## رحلته :

والرحلة في طلب العلم من سمات العلماء وهي هم لبعضهم طلبا للعلو في الإسناد وعلى الرغم من كون الحافظ ابن كثير لم يشغل نفسه بهذا المطلب لقلّة أهميته في العصور المتأخرة فقد سافر إلى عدة بلاد التقى فيها بأهل العلم فاستفاد وأفاد ومن البلاد التي وطئتها قدمه بعد دمشق التي استوطنها :

القدس ، ونابلس ، وبعلبك ، والقاهرة وقد سافر إلى الحجاز سنة حيث أدى فريضة الحج في جمع من علماء دمشق .

## زواجه وذريته :

صحب ابن كثير محدث الديار الشامية في عصره أبا الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزري إمام الحفاظ ولازمه وصاهره فتزوج ابنته زينب وكانت هي وأمها قد حفظتا القرآن على الشيخة الصالحة أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية. ورزقه الله منها عددا من الأولاد أكبرهم الشيخ عز الدين عمر بن إسماعيل بن عمر بن كثير عني بالفقه وكتب تصانيف أبيه وهو الذي نسخ لأبيه نسخة المسند التي جعلها أصلا في تأليف جامع المسانيد .

## شيوخه :

وقد بدأ الاشتغال على يدي أخيه عبد الوهاب كما قدمنا فهو أول شيوخه ، وصحب جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزري ولازمه وصاهره كما سبق أيضا وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني. ولازمه وتخرج على يديه . وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه . وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتنحن بسبب ذلك وأوذى . ولما مات شيخ الإسلام بسجن القلعة رحمه الله لم يسمح لأحد بالدخول أول الأمر إلا لخواص أصحابه فكان ابن كثير منهم قال : وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزري رحمه الله وكشفت عن وجه الشيخ وقبلته وعلى رأسه عمامة بعذب مغرورة وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه .

وتفقه على الشيخين : برهان الدين الفزاري ابن الفركاح وكمال الدين ابن قاضي شعبة

وغير هؤلاء كثير تقدم بعضهم .

كما أجاز له جماعة من أهل العلم من مصر وبغداد وغيرها .

## تلاميذه :

أما تلاميذه فقد قال ابن العماد : وتلامذته كثيرة . ومن أراد الاستقصاء فيمكنه أن يجمع عددا كبيرا منهم عن طريق الإجازات والمشيوخات وتتبع مصنفات أهل العلم في عصره وقد استطاع الدكتور مسعود الندوي أن يحصي منهم أربعة عشر تلميذا وقال : في حين لم تأت الإشارة إلا إلى واحد منهم عند من ترجموا لابن كثير قبلنا .

وسوف أذكر هنا منهم خمسة من الأئمة الأعلام تتلمذوا على هذا العلم ومن أراد الاستزادة فعليه بكتاب الندوي وهم :

الإمام سعد الدين ابن يوسف بن إسماعيل بن يونس النواوي قدم دمشق صغيرا وقرأ على ابن كثير كتابه في علوم الحديث وأذن له بالفتوى .

الإمام ابن حجي

الإمام الزركشي

الإمام الحسيني صاحب ذيل تذكرة الحفاظ

الإمام ابن الجزري وهو ممن أذن له ابن كثير في الفتوى .  
أعماله ونشاطه العلمي :

تنوعت أعمال الحفاظ ابن كثير نظرا لموسوعيته وعلو منزلته العلمية ومما قام به من جهود علمية اشتهر بها :

الإقراء :

برز الحفاظ ابن كثير في هذا الجانب العلمي وولي مشيخة الإقراء بمدرسة أم الصالح كما ذكر النعيمي ، وترجم له الداوودي في طبقات القراء ، وقد ظهر أثر علم ابن كثير بالقراءات في غضون تفسيره وهو غالبا ما يعتمد قراءة نافع ومن وافقه وبينه على وجوه القراءات الأخرى كما هو مثبت في موضعه ويأتي الحديث عنه في دراستنا للتفسير .

التحديث والإجازة :

وهذا الجانب أملاه المنزلة السامقة لابن كثير في الحديث وعلومه فقد كان حافظا من حفاظ هذه الأمة لحديث رسول الله ﷺ أخذ الحديث عن جماعة من أهل العلم كما تقدم سمعا وإجازة وحدث وأفاد وأسمع الحديث وأجاز حتى إنه أجاز كل من أدرك حياته كما ذكر الحفاظ ابن حجر .

ومن أخبار إجازاته أن شابا أعجميا حضر من بلاد تبريز وخراسان وزعم أنه يحفظ البخاري ومسلما وجامع المسانيد والكشاف وغير ذلك فامتحنه ابن كثير بحضرة جماعة في مجالس من البخاري وغيره ثم كتب له بالسماع على الإجازة ففرح بذلك وقال : أنا ما خرجت من بلادني إلا للقصدي إليك وأن تجيزني وذكرك في بلادنا مشهور .

## التدريس :

قعد الحافظ ابن كثير للتدريس إلى آخر عمره وانتفع به خلق كثيرون ودرس علوما عدة منها التفسير والفقه وقد بدأ التدريس في المدرسة النجيبية .

كما كان يدرس التفسير في الجامع الأموي ومن ذلك ما حدث في يوم ٢٨ شوال سنة ٧٦٧ هـ حيث قعد لدرس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء نائب السلطنة الأمير سيف الدين واجتمع فيه القضاة والأعيان وأخذ في تفسير الفاتحة وكان يوما مشهودا وخصص الأمير منحة للطلاب الذين يحضرون الدرس .

وقد تولى الحافظ ابن كثير مشيخة عدة مدارس ومن ذلك :

مشيخة مدرسة أم الصالح ، مشيخة دار الحديث وهي دار الحديث الأشرفية بدمشق

، مشيخة التنكزية واسمها دار القرآن والحديث

كما كان رحمه الله يقوم بامتحان الطلبة ومن ذلك امتحانه صبيا عمره ست سنوات كان يحفظ القرآن ويصلي بالناس في رمضان فوجده مجيدا للحفظ والأداء على الرغم من صغر سنه .

## الإفتاء :

برز الحافظ ابن كثير في هذا الجانب ولا غرو فهو إمام من أئمة الشافعية غير أنه لم يكن متقيدا بالمذهب وإنما كان يدور مع الدليل حيث دار وقد طارت أوراق فتاواه إلى البلاد كما قال ابن حبيب . ووصفه شيخه الذهبي بالفقيه المفتي وكان يأذن لغيره بالإفتاء كما تقدم ذكره من إذنه للنووي والجزري .

## مؤلفاته :

لقد تفرغ الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في حياته للتأليف والتصنيف إلى جانب ما كان يقوم به من الأعمال الكثيرة في خدمة الدين والأمة الإسلامية .

ولذلك خلف كتباً كثيرة في شتى مجالات العلم والمعرفة ، ووصف الحافظ الحسيني مصنفاته فقال : (وله تصانيف مفيدة) وسبق قول الحافظ ابن حجر العسقلاني : (سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته) .

وكان من أوائل ما صنف في شبابه \_ ولعله أول كتاب ألفه \_ أحكام التنبيه ، ولما اطلع عليه شيخه البرهان الفزاري أعجبه وأثنى عليه . وقد ذكر له بعض من ترجم له حوالي أربعين مؤلفا أكثرها مفقود ومن أهم مؤلفاته : تفسير القرآن العظيم الذي نحن بصدد الدراسة منه وكتابه البداية والنهاية في التاريخ وكتاب جامع المسانيد والسنن ، شمائل الرسول ودلائل نبوته وفوائده وخصائصه ، فضائل القرآن وتاريخ جمعه وكتابه ولغاته وهي مطبوعة .  
مميزاته :

(١) القدرة على الحفظ ، فقد وهبه الله عز وجل حافظة متميزة وموهبة متفوقة  
(٢) كثرة الاستحضار : اقترنت صفة الحفظ عند ابن كثير رحمه الله بميزة أخرى وهي كثرة الاستحضار وقلة النسيان .  
(٣) جودة الفهم حيث كان رحمه الله صحيح الذهن ، قادرا على الاجتهاد والدقة العلمية ، ومن هنا كانت له آراء واجتهادات وترجيحات .  
خفة الروح وقد جاءت هذه الصفات على لسان المترجمين له إذ قالوا : (كان رحمه الله كثير الاستحضار ، قليل النسيان ، جيد الفهم ، صحيح الذهن حسن المفاكهة) .  
القوة في الحق والمناضلة عنه ، فقد كان رحمه الله قويا في الحق ، مناضلا عنه ، متحملا الأذى في سبيله لا تأخذه في الله لومة لائم وقد جاء في ترجمته : (أنه كانت له خصوصية بابتهايمية ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتنح بسبب ذلك وأوذى .

#### إنصافه للخصوم وعدله معهم :

ففي حوادث سنة ٧٢٧ هـ يترجم لوفاة الشيخ كمال الدين ابن الزملاكي ترجمة وافية ومنصفه ، مع أنه كان خصما لابن تيمية ومن يناصره ومنهم ابن كثير نفسه .  
وكان بين ابن كثير رحمه الله تعالى وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي خصومة فكرية ، وتشاء الظروف أن توجه اتهامات عليه في التفريط في أموال الأيتام ، وطلب من المفتين أن يضعوا خطوطهم بتثبيت الدعوى ضده ، لترغيمه ومحاكمته ، ويصل الأمر إلى صاحبنا العلامة ابن كثير ذي الخلق الكريم ، والموقف العادل ، فيأبى الكتابة ، وينصف قاضي القضاة ، ويوقف الافتراء والاتهام إلى أن يتبين الحق .

## مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

تبوأ الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في حياته مكانة علمية مرموقة ، وحاز من ثناء العلماء من معاصريه فمن بعدهم ما يدل على فضله ، وتقدمه في العلم والأدب والعبادة . وتتجلى مكانة ابن كثير ومنزلته العلمية من ناحيتين :

الأولى : من خلال ما تركه من ثروة علمية ، وتأليف نافعة .

الثانية : شهادة العلماء له ، وخاصة الذين عاصروه ، سواء أكانوا شيوخا له أم تلاميذ قال الإمام الذهبي وهو في طبقة شيوخه : وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث ذي الفضائل ، عماد الدين بن إسماعيل بن عمر البصري الشافعي ... ، وله عناية بالرجال والمتون والتفقه ، خرج وألف ، وناظر وصنف ، وفسر وتقدم .

وقال أيضا في المعجم المختص : فقيه متفنن ومحدث متقن ومفسر نقاد .

وقال الحافظ أبو المحاسن الحسيني : (الشيخ الإمام الحافظ المفيد البار ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ... ، صاهر شيخنا الحافظ المزي فأكثر عنه ، وأفتى ودرس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل ... ) .

وقال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي : (الإمام العلامة الحافظ عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين ، أبو الفداء ... ) .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني : (واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله ، فجمع التفسير ... وكان كثير الاستحضر ، حسن المفاكحة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ... ) .

## عقيدته :

كان الحافظ ابن كثير - رحمه الله - سلفي العقيدة ، سائرا على منهج أهل السنة والجماعة في تقرير مسائل العقيدة ، والاستدلال عليها .

هذا هو المعروف عن الحافظ ابن كثير - ، ويؤيد ذلك ما يلي :

أولا : أن له رسالة في العقائد قرر فيها عقيدة السلف ومما جاء فيها قوله : (فإذا نطق الكتاب العزيز ، وردت الأخبار الصحيحة ، بإثبات السمع والبصر والوجه والعلم والقوة والقدرة والعظمة والمشية والإرادة والقول والكلام والرضا والسخط والحب والبغض والفرح

والضحك ، وجب اعتقاد حقيقته من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين ، والانتهاى إلى ما قاله الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من غير إضافة ولا زيادة عليه ولا تكيف له ، ولا تشبيه ، ولا تحريف ، ولا تبديل ، ولا تغيير ، ولا إزالة لفظ عما تعرفه العرب وتصرفه إليه ، والإمساك عما سوى ذلك ) .  
ثانيا : أنه في تفسيره المشهور ، جرى على منهج السلف في تفسير آيات الصفات . ومن الأمثلة على ذلك :

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - (وأما قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث ابن سعد والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثل شيء وهو السميع البصير﴾  
فهذا الكلام كاف في بيان عقيدة الحافظ ابن كثير - رحمه الله - وترجيحه مذهب السلف على مذهب الخلف في العقيدة .

وكان رحمه الله يثق به أنصاره وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل كان موضع الثقة والاستشارة عند الذميين ، حتى ليستشيره بعض رؤسائهم ، في أخص شؤونهم الكنسية ، فإنه يذكر قصة طريفة ، في استشارة أحد البطاركة إياه قال في آخرها : وأحضر لي الكتب إليه وإلى ملك اسطنبول ، وقرأها على من لفظه - لعنه الله - ولعن المكتوب إليهم أيضا !! وقد تكلمت معه في دينهم ، ونصوص ما يعتقدونه كل من الطوائف الثلاثة وهم : الملكية ، واليعقوبية ، - ومنهم الإفرنج والقبط - والنسبورية فإذا هو يفهم بعض الشيء . ولكن حاصله أنه حمار ، من أكفر الكفار! لعنه الله .

### مذهبه الفقهي :

ذكرت بعض المصادر في ترجمة الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أنه حفظ في صغره كتاب التنبية وهو أهم مختصر في الفقه الشافعي في ذلك العصر . كما أثبت كثير من المترجمين له نسبته إلى المذهب الشافعي ، بل أثبت ابن كثير نفسه هذه النسبة ( الشافعي ) في اسمه ولا

يعني هذا أن الحافظ ابن كثير - رحمه الله - كان شافعيًا على غرار متفقيه المذاهب . كلا ! فقد علم من سيرة ابن كثير العلمية أنه كان فقيهاً محدثاً ، وأنه أحد رواد المدرسة السلفية في عصره ، وسمة أصحاب هذه المدرسة نبذ التقليد والتعصب المذهبي ، والأخذ في الأحكام الفقيهية بما يؤيد الدليل حتى وإن خالف المذاهب الأربعة ، ولذا نجد أنه كان يفتي برأي شيخه ابن تيمية في مسألة الطلاق الثلاث ، لصحة الحديث عندهما مع أن ذلك على خلاف المذاهب الأربعة .

### ابن كثير والجهاد في سبيل الله :

ألف رسالة الجهاد وعرض ابن كثير في رسالة (الاجتهاد في طلب الجهاد) لأهمية الجهاد ، وأورد الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية في فضل الجهاد ووجوبه وذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين واستعرض جهود المسلمين الأوائل للجهاد في سبيل الله ثم تعرض لاستيلاء الفرنج على بيت المقدس وقيام صلاح الدين الأيوبي بالجهاد ضدهم ، حتى انتزعه من أيديهم وأخيراً بين ابن كثير عزة المسلمين بدينها ، وتأيد الله لها ، والبشري ببقاء بيت المقدس في يدها ما دامت تطبق الإسلام ، وتعلي شأن الجهاد ويسرد الأدلة على ذلك ، ويختتم كتابه بقوله : "وكذلك فيما ذكرنا دليل على أن مدينة دمشق لا تزال دار إيمان وأمان وقرار حتى ينزل عيسى صلوات الله وسلامه عليه " .

موقفه من الشعر :

يبدو أنه رحمه الله لم يكن من الولعين بالأشعار حتى إنه قال معقبا على قصيدة لوالده في الغزل : وعدتها ثلاثة وعشرون بيتا والله يغفر له ما صنع من الشعر .

ومن شعره :

تمر بنا الأيام تترى وإنما      نساق إلى الآجال والعين تنظر  
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى      ولا زائل هذا المشيب المكر  
ومن بعد ذا فالعبد إما منعم      كريم ، وإما بالجحيم يسعر

### الكتب المؤلفة في ابن كثير خاصة :

ابن كثير حياته ومؤلفاته للدكتور مسعود الرحمن خان الندوي نشر مركز الدراسات الآسيوية الغربية \_ عليكره \_ الهند .

ابن كثير كمؤرخ \_ نفس المؤلف والدار .

والكتابان عبارة عن رسالة دكتوراه للمؤلف بعنوان : دراسة لابن كثير كمؤرخ في ضوء كتابه البداية والنهاية في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكرة الإسلامية بالهند وقد فصل بينهما عند الطباعة .

الإمام ابن كثير المفسر . د. مطر أحمد مسفر الزهراني رسالة ماجستير بجامعة أم القرى بمكة المكرمة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية سنة ١٤٠٢ هـ ولم تطبع بعد .

ابن كثير الدمشقي : الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه . للدكتور محمد الزحيلي \_ دار القلم بدمشق .

كما تعرضت الكتب التي صنف في دراسة منهجه في التفسير أو بعض ما تميز به للترجمة له وكذلك مؤلفاته التي حققت عرج محققوها على حياته وإلقاء الضوء على جوانب منها وسوف يأتي ذكر بعض هذه الدراسات عند حديثنا عن منهج الحافظ في تفسيره ودراسة النسخ المطبوعة .

#### وفاته :

وكان - رحمه الله - قد أضر في آخر عمره ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤ هـ عن ٧٤ عاماً .

وقال ابن ناصر : وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية في مقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق .

انتقل الإمام ابن كثير رحمه الله إلى جوار ربه يوم الخميس السادس والعشرون من شعبان سنة (٧٧٤هـ) ، بدمشق ، وقد قيل في تحديد تاريخ اليوم غير ذلك .

كانت جنازته حافلة مشهودة ، ودفن بوصية منه إلى جوار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد رثاه بعض تلاميذه بقوله :

لقدفدك طلاب العلوم تأسفوا      وجادوا بدمع لا يبید غزیر  
ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء      لكان قليلا فيك يا ابن كثير

وهكذا فارق الإمام الحافظ ابن كثير الحياة بعد أن قدم أعمالا جليلة وعلوما كثيرة ينتفع بها من بعده ، ألا رحم الله ابن كثير رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته ، وجمعنا وإياه في دار كرامته يوم لقاءه ، - آمين - .

منهجه في كتابه :

يعتبر تفسير ابن كثير من خير كتب التفسير ، واحتل مكانة مرموقة في الكتب الإسلامية ، وشهد له العلماء بذلك ، وذاع صيت هذا الكتاب ، وتداولته الأيدي قديما وحديثا ، على مختلف المستويات .

يقول السيوطي : " له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله " .

ويقول الشوكاني : " وله تصانيف مفيدة ، منها : التفسير المشهور وهو في مجلدات ، وقد جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير " ،

ويقول الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر : " فإن تفسير ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا ، وأجودها وأدقها ، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري " .

لقد عني الباحثون بتسليط شيء من الضوء حول منهج ابن كثير في تفسيره ومن تلك الدراسات ما تقدم ذكره في ترجمة الحافظ عن كتاب الإمام ابن كثير المفسر للدكتور مطر الزهراني ومن ذلك أيضا :

ابن كثير ومنهجه في التفسير للدكتور إسماعيل عبد العال بمصر ولم أقف عليه ويبدو أنه رسالة جامعية .

وموقف الإمام ابن كثير من الإسرائيليات في ضوء تفسيره للباحث محمد إبراهيم تراوري وهو رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية سنة ١٤٠٥ هـ

واستدراكات ابن كثير على ابن جرير للدكتور أحمد عمر عبد الله وهو رسالة دكتوراه بالجامعة الإسلامية ، وغيرها .

وقد رسم ابن كثير منهجه وحدد أصوله في مقدمة التفسير وتبنى كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير حيث نقله بنصه وحاول التزامه في كتابه فمما قاله في تفسير القرآن بالقرآن :

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر .

ثم في تفسير القرآن بالسنة يقول :

وقد صور ابن كثير هذا الأصل بقوله "فإن أعيك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له

ثم في تفسير القرآن بأقوال الصحابة يقول : (إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ؛ فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح والعمل الصالح ، لا سيما علماءهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم .....

ومن هؤلاء البحر الحبر عبد الله بن عباس ترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)

ثم في تفسير القرآن بأقوال التابعين يقول ابن كثير :

(إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى قول التابعين كمجاهد ابن جبر ، فإنه كان آية في التفسير . ونقل عن محمد بن إسحاق عن مجاهد قول : عرضت على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه غنجد كل آية منها وأسأله عنها وقال سفيان الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به) .

ومن التابعين سعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك ابن مزاحم ، وغيرهم ، وهؤلاء تذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في ألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا ، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن ، فليتفطن لذلك والله الهادي .

وأما موقفه من تفسير القرآن بالرأي فقال : فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام ، وذكر حديث ابن عباس عن النبي ﷺ : " من قال في القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار " وذكر تحسين الترمذي له ثم ساق آثارا عن السلف الصالح تفيد ترجيحهم عن التفسير .

ويعلق ابن كثير على هذه الآثار فيقول : فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على ترجيحهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه ، فأما من تكلم بما يسلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه .

أما موقفه من الإسرائيليات فقد قسمها أقساما ثلاثة فقال :

أحدها : ما علمنا صحته بما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ويجوز حكايته .

ويتحدث عن القسم الثالث في موضع آخر فيقول : ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون عنه في روايته بقوله عليه السلام : (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله (فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) .

ويستطرد في هذا الشرح فيقول : وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني .

ومن أمثلة نقده لبعض الإسرائيليات ما أورده ابن كثير عن سعيد بن المسيب وعكرمة القرظي : قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿إِرم ذات العماد﴾ وعقب عليه قائلا : فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

أما الفقه فلم يكن يفرع المسائل الفقهية ، ويستطرد فيها كما يفعل القرظي مثلا في تفسيره ، بل كان يعرضها بإيجاز شديد ويحيل أحيانا كثيرة إلى كتابه (الأحكام الكبرى) وغيره ، لكنه مع هذا كله استطرد في بعض المسائل التي يأتي ذكر بعضها أثناء الدراسة إن شاء الله .

ومن الملاحظ أيضا أن معظم مصادره الفقهية شافعية المذهب كالأمم للشافعي وشرح المهذب للنووي ، وغيرها . وقد أفاد ابن كثير من آراء المذاهب الأخرى وكتبها ، ورجح بعض هذه الآراء على مذهب لأن الدليل الصحيح كان معه .

مصادر ابن كثير في التفسير

أكثر الحفاظ ابن كثير من نقله عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين كما سيأتي معنا كثيرا .

وأما مصادر من الكتب : فقد رجع إلى التوراة والإنجيل في مواضع من تفسيره وأما في التفسير وعلوم القرآن فلو ألقينا نظرة فاحصة على المصادر التفسيرية التي استقى ابن كثير منها " تفسيره " لوجدنا أن الطابع العام التي تتميز به المصادر التفسيرية في تفسير ابن كثير هو التفسير بالمأثور . مع وجود غيرها أيضا لكن ليس بنفس القدر .

وأما أكثر التفاسير دوراناً في تفسير ابن كثير فأربعة : تفسير ابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم ، وعبد الرزاق الصنعاني ، وأبي بكر بن مردويه ، وأخص هذه الأربعة تفسير ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ، فقد كاد يذكرهما في كل صفحة من صفحات التفسير . ولعل السبب في هذا ما سبق أن قررناه من أن هذه الكتب تحوي بين دفتيها عددا هائلا من الأحاديث والروايات والأخبار الواردة عن السلف الصالح ، وهذا يلائم منهج التفسير بالمأثور الذي آثره ابن كثير لنفسه .

وهناك من المصادر التفسيرية ما لم يذكر مرة أو مرتين ، كتفسير الثعلبي صاحب (العرائس) والمعروف بسرد الأخبار والروايات الإسرائيلية والقصص الخرافية والحقيقة أن ابن كثير عالم حافظ ناقد مدقق وليس مجرد نقال فإنه إذا لم يتفق مع غيره من المفسرين في بعض الآراء وجدناه يحشد عددا هائلا من الأدلة لدحض هذا الرأي وإثبات ما يراه حقا .

وأما كتب السنة وعلوم الحديث وشروحه :

فيبدو لأول وهلة أن مصادر ابن كثير في الحديث كثيرة جدا وهي على وجه التحديد واحد سبعون مصدرا هذا خلا التفاسير المسندة .

كما أن له مصادر متنوعة في الفقه وأصوله وفي التاريخ والسير والتراجم وفي علوم اللغة وغير ذلك من فنون العلم كما أنه نقل من مصادر هامة لم يصرح بأسمائها بالإضافة إلى نقوله عن شيوخه ومن أجمعهم من أهل العلم مما جعل كتابه مصدرا حافلا بعلوم غزيرة شتى جعل الله ذلك في ميزان حسناته .

## انتقادات وجهت له :

جاء تفسير ابن كثير ذخيرة علمية كما قدمنا ، ولكنه لم يخل من بعض المآخذ التي لاحظها العلماء ، ومن ذلك :

١- الإطالة : فقد حرص ابن كثير رحمه الله تعالى على ذكر الأسانيد كاملة ، كما حرص على إيراد الروايات المتكررة في الموضوع الواحد ، والاستعانة بالشواهد اللغوية ، مما يؤدي إلى الملل ، والتعب والسآمة من الإطالة في عرض تفصيلات وجوانب متفرعة ودقيقة ، لا يستفيد منها إلا فئة مخصوصة من العلماء والباحثين ، وهذا ما دعا العلماء في هذا العصر لاختصار هذا التفسير .

٢- الإسرائيلية : كان ابن كثير رحمه الله تعالى متنبها لأمر الإسرائيليات وخطرها ، وتعرض لها في مقدمة كتابه ، كما سبق ، وهو المحدث الحافظ ، ومع ذلك فقد أوردها في كتابه للاستئناس بها ، بحجة "الاستشهاد لا الاعتضاد " ، ونبه في معظم الأحيان عليها ، ويذكر الراوية ، ثم يصرح بأنها إسرائيلية ، وقد يبين بطلانها ، وفسادها ، ولكن القارئ العادي سيقروها ، وقد لا يتنبه إلى معنى كونها إسرائيلية، أو ينسى ذلك ، وقد تعلق بذهنه ، ولو صرح المصنف لبطلانها ، فكان ذكرها بالتفسير مأخذا ، وإن الخطر والضرر في إثباتها أكثر بكثير من حذفها وإغفالها ، ولذلك يتردد على ألسنة العوام ، وأنصاف المتعلمين أن هذه القصة (الإسرائيلية) أو تلك وردت في تفسير ابن كثير .

هكذا انتقده بعض المتأخرين ولكن هذا لا يسلم له وقد دأب السلف الصالح الذين هم أعلم الناس بكتاب الله على ذكر الإسرائيليات في تفسيرهم وهم أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم بما يجوز على الله ورسله وهم أحرص الناس على صفاء العقيدة فليس من الصواب الإضراب عن الإسرائيليات جملة وتفصيلا بل منهج ابن كثير هو الصواب والله أعلم .

٣- أوهام الحافظ ابن كثير في تفسيره :

وقد وقع الحافظ ابن كثير رحمه الله كعادة البشر مهما قاربوا الكمال في بعض الأوهام التي هي قطرة في بحر صوابه وهي على سبيل الإجمال تنحصر في نقاط أربعة :

أولا : الخطأ في العزو كالألا يكون الحديث في الصحيحين أو في أحدهما ، ومع هذا تراه يعزوه إليهما أو إلى واحد منهما

ثانيا: الخطأ الواقع في الأسانيد كالوهم في أسماء بعض الرواة .

ثالثا : التقصير في العزو كأن يكون الحديث في المسند مثلا ويعزوه لابن جرير .

رابعا : السهو في بعض كلام الأئمة كنقل بعض ألفاظ الترمذي والحاكم بخلاف الواقع .

وسوف تأتي أمثلة لذلك أثناء دراستنا فلا نطيل بذكرها .

كما يوجد بعض ملاحظات في منهجه رحمه الله فالذي يظهر أنه كتب الكتاب أولا ثم نظر فيه ثانية فأضاف فيه نقولا كثيرة استقاها من تفسير الرازي والزحشري ثم نظر فيه أخرى فحذف بعضها مما أضافه وسوف أذكر ما يدل على ذلك في مقدمة تحقيقي لهذا الكتاب الجليل يسر الله أمره .

كما أن بعض الآيات لم يفسرها إطلاقا إما سهوا وإما عمدا هروبا من إشكالاتها وإما خوفا من عدم وضعها مواضعها الصحيحة فمما يدخل تحت السهو متكرر وسوف نعرض له في محاله إن شاء الله تعالى . وأما من الثاني فمثاله عند قوله تعالى : ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك . ومن الثالث : عند قوله تعالى : أفرايتم اللات والعزى .

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية ما أردنا عرضه في هذه المحاضرة على أن تكون المحاضرة القادمة في مقدمة موجزة عن أنواع التفسير . وسوف نتكلم قبل البدء في التفسير إن شاء الله تعالى عن طبعات الكتاب ومختصراته . وفق الله الجميع لما يحب ويرضى وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المراجع : البداية والنهاية ، ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر للزحيلي ، ابن كثير حياته ومؤلفاته للمسعودي ، مقدمات طبعات التفسير لأحمد شاکر ولأولاد الشيخ وللسلامة وغيرهم .

## الأسئلة :

### المجموعة الأولى :

- ١- العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان جاهلا ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالما .  
( صح )
- ٢- من أجمع ما كتب في آداب طالب العلم ما كتبه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ( صح )
- ٣- تفسير الرباني بأنه الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره غير صحيح . ( خطأ )
- ٤- إذا رأيت كتب طالب العلم مرتبة فاعلم أنه مجتهد في طلب العلم ( خطأ )
- ٥- يفضل أن يبدأ طالب العلم بدراسة كتاب في آداب طالب العلم ثم دراسة كتاب في الأخلاق والتربية ثم قراءة كتاب في الزهد ثم قراءة كتاب في تراجم السلف الصالح وعلماء الأمة وأخيرا عليه بالاهتمام بدراسته اللغة والنحو والصرف ( صح )
- ٦- اسم الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر البُصروي \_ نسبة إلى البصرة بالعراق . ( خطأ )
- ٧- الحافظ ابن كثير من علماء القرن التاسع الهجري . ( خطأ )
- ٨- من أشهر شيوخ ابن كثير محدث الديار الشامية في عصره أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزني ( صح )
- ٩- كان ابن كثير مقرئا ولكنه لم يل مشيخة إلقاء في وقته . ( خطأ )
- ١٠- كان ابن كثير يعتمد قراءة نافع ومن وافقه في تفسيره وبينه على وجوه القراءات الأخرى  
( صح )

### المجموعة الثانية :

- ١١- كانت لابن كثير خصوصية بآبن تيمية ومناضلة عنه وامتنح بسبب ذلك وأوذى  
( صح )
- ١٢- ترجم الحافظ ابن كثير للشيخ ابن الزملكاني ترجمة مقتضبة لأنه كان خصما لابن تيمية  
ومن يناصره . ( خطأ )
- ١٣- جرى ابن كثير في تفسيره على منهج السلف في تفسير آيات الصفات . ( صح )

- ١٤- لعن ابن كثير أحد بطارقة النصارى بعينه وقال عنه إنه حمار ( صح )
- ١٥- كان ابن كثير شافعيًا على غرار متفقيه المذاهب ولذا أثبت في اسمه ( الشافعي ) ( خطأ )
- ١٦ \_ رسالة (الاجتهاد في طلب الجهاد) بين فيها ابن كثير بقاء عزة المسلمين بإعلاء شأن الجهاد وسرد الأدلة على ذلك ( صح )
- ١٧- عني الباحثون بمنهج ابن كثير في تفسيره ومنهم الدكتور مطر الزهراني ( صح )
- ١٨- تبنى ابن كثير كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير حيث نقله بنصه ( صح )
- ١٩- رأي ابن كثير في تفسير القرآن بمجرد الرأي أنه جائز . ( خطأ )
- ٢٠- موقف ابن كثير من الإسرائيليات أنه قسمها أقسامًا ثلاثة وانتقد بعضها انتقادًا شديدًا ( صح )

#### المجموعة الثالثة :

- ٢١- لم يكن ابن كثير يفرع المسائل الفقهية ، ويستطرد فيها لكنه خالف ذلك في بعض المسائل ( صح )
- ٢٢- رجح ابن كثير بعض الآراء على مذهبه لأن الدليل الصحيح كان معه . ( صح )
- ٢٣- أكثر التفاسير دورانًا في تفسير ابن كثير أربعة : تفسير ابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم ، والثعالبي ، والبقاعي ( خطأ )
- ٢٤- ابن كثير عالم حافظ ناقد مدقق وليس مجرد نقال عن غيره من المفسرين ( صح )
- ٢٦- من المآخذ على تفسير ابن كثير : الإطالة في ذكر الأسانيد كاملة و إيراد الروايات المتكررة في الموضوع الواحد ( صح )
- ٢٧ \_ دأب السلف الصالح على ذكر الإسرائيليات في تفسيرهم وهم أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم بما يجوز على الله ورسله وهم أحرص الناس على صفاء العقيدة ( صح )
- ٢٨- الصواب الإضراب عن الإسرائيليات جملة وتفصيلاً وليس كما فعل ابن كثير ( خطأ )

٢٩- وقع الحافظ ابن كثير في بعض الأوهام ومنها نقل بعض ألفاظ الترمذي والحاكم  
بخلاف الواقع ( صح )

٣٠ \_ استوعب ابن كثير تفسير جميع آيات القرآن فلم يترك منها شيئاً ( خطأ )

## المحاضرة الثانية

عنوان المحاضرة : مقدمة موجزة عن أنواع التفسير الثلاثة + طبقات ابن كثير ومختصراته

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فحديثنا اليوم عن التفسير معناه وأهميته ونشأته وأنواعه

التفسير لغة : الإيضاح والتبيين من الفسر وهو الإبانة وكشف المغطى .

وقيل : هو مقلوب السفر يقال : أسفر الصبح إذا أضاء إضاءة لا شبهة فيه ، وسفرت المرأة

عن وجهها إذا كشفت نقابها ولهذا سمي : السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال

وقيل : مأخوذ من التفسرة وهو اسم لما يعرف به الطبيب المرض وبني على التفعيل للمبالغة

ذكرهما الكافيجي .

وقال أبو حيان : يطلق التفسير أيضا على التعرية للانطلاق قال ثعلب : تقول فسرت الفرس

: عربته لينطلق في حصره وهو راجع لمعنى الكشف فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه

من الجري .

والتفسير اصطلاحا : علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج

أحكامه وحكمه ، وهو تعريف الزركشي له .

وقال الكافيجي : هو كشف معاني القرآن وبيان المراد .

وقيل : هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيتها

ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها

ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وزاد بعضهم : حلالها وحرامها ، ووعدا وووعيدها ، وأمرها

ونهيها ، وعبرها وأمثالها .

وعرفه بعض المتأخرين بأنه علم يبحث عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالاته ،

على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

والتعريف الأول شامل لما بعده ، وسوق أنواع علوم القرآن في تعريف التفسير إطالة في محل الإيجاز ، والتعريف يشمل في مضمونه علم القراءات والرسم لارتباط بيان المعنى بهما وقد نص على ذلك أبو حيان حيث عرف التفسير بقوله : علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمتات لذلك.

هذا ؛ ويكثر في كلام المفسرين التعبير بلفظ التأويل قاصدين به التفسير أو ما يقاربه. والتأويل في اللغة مأخوذ من الأول وهو : الرجوع ، يقال : أول الكلام وتأوله : دبره وقدره ، وأوله وتأوله : فسره .

وقيل : مأخوذ من الإيالة وهي السياسة ، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه . والتأويل اصطلاحاً عند السلف مرادف للتفسير في الأغلب وبه قال أبو عبيدة وغيره وقد فرق بينهما جماعة ، وعرفه المتأخرون بتعريفات عديدة منها :

قول الكافيجي : صرف اللفظ إلى بعض الوجوه ليكون ذلك موافقاً للأصول. والفروق التي فرق بينهما بها كثيرة وأقرب الفروق هو ما قيل : إن التفسير إنما هو كشف المعنى بحسب الطاقة البشرية .

وأما التأويل فهو : معرفة ما يؤول إليه المعنى على وجه الحقيقة ومراد الله وهذا الفرق يدل عليه الأدلة من الكتاب والسنة ، التي استخدمت فيها مادة التأويل . والله أعلم.

### أهمية علم التفسير :

إن علم التفسير من الأهمية بمكان ، ولذا قال إياس بن معاوية رحمه الله : مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم ؛ مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً ، وليس عندهم مصباح فتدخلهم لمجيء الكتاب روعة لا يدرون ما فيه ، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه . وقد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات وأنه أجل العلوم الشرعية .

وقال الكافيجي : إن علم التفسير محتاج إليه ، لأن الناس يحتاجون في الاطلاع على الشرائع والأحكام إلى معرفة معاني القرآن ، التي لا يطلع عليها \_ على ما ينبغي \_ إلا بهذا العلم الشريف .

وقال : إن علم التفسير أشرف العلوم ، لأن موضوعه أساس علوم الإسلام ، ومدار الأحكام ، وحبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، ولأن غايته هي الاعتصام بالعرفة الوثقى ، التي لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية ، التي لا تفنى ، وهما أشرف الغايات وأجداها نفعا .

### نشأة التفسير ومدارسه :

انطلاقا من قول الله جل في علاه :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾

كانت نشأة التفسير على يد معلم البشرية محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد انقسم التفسير المروي عنه ﷺ إلى قسمين :

الأول : عبارة عن تفسير لبعض المفردات ، أو الألفاظ المجملة وهذا قليل لكون القرآن نزل بلسان عربي مبين في قوم سليقتهم العربية فلم يكن ثم حاجة ماسة للإغراق في مثل هذا النوع من التفسير عن رسول الله ﷺ

الثاني : التفسير الإجمالي والموضوعي لجميع مقاصد القرآن ، وهذا في الحقيقة قد بينه النبي ﷺ أيما بيان فالتأمل لكتاب الله يجد أنه تكلم عن العقيدة في الله والملائكة والأنبياء والكتب المنزلة واليوم الآخر والقدر ، وهذه المباحث قد أخذت جانبا عظيما من أحاديث النبي ﷺ القولية والفعلية مفسرة لمضمونها وشارحة لمقصودها ، كما تحدثت آيات أخرى عن العبادات : من صلاة وزكاة وصوم وحج ونذر وغير ذلك ، وهذه جل الأحاديث النبوية تفسرها وتوضح مجملها ، وتحدثت آيات القرآن عن أحكام شرعية في المعاملات وغيرها : من نكاح وطلاق وبيع وشراء وطعام وشراب وقصاص وحدود وميراث ونحو ذلك ، وهذه أيضا أخذت جانبا كبيرا من السنة النبوية التي لم تدعها إلا واضحة جلية ، ولم يبق إلا آيات تتعلق بسيرة النبي ﷺ ومغازيه وعلاقاته بالمشركين والكتابين ، وهذه لا مفسر لها إلا ما أثر عنه ﷺ من تلك الأحوال ، وآيات تتعلق بقصص الأنبياء السابقين ، وهذه تلاوتها تغني عن تفسيرها ، وبعض ما احتيج فيه إلى تفسير بينه النبي ﷺ ، وما كان فضلا تركه ﷺ ورخص في الحديث عن بني إسرائيل .

وبناء على ما تقدم ، فجل القرآن الكريم قد فسره النبي ﷺ ، ومن خالف ذلك فقد أتى من قبل نظرته للنوع الأول من التفسير المروري عنه ﷺ فقط ، ولم يتنبه للنوع الثاني ، والله أعلم .  
وقد قال ابن تيمية رحمه الله : يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه .

وعن رسول الله ﷺ أخذ التفسير أصحابه الكرام .

قال أبو عبد الله الحاكم : إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل حديث مسند ، يعني به ما كان من سبب نزول ونحوه .

وقد اعتمد الصحابة في تفاسيرهم على أربعة مصادر : القرآن الكريم ، النبي ﷺ ، الاجتهاد بما لديهم من لغة عربية وفهم ثاقب ، أهل الكتاب ، ولكل مجاله .

وعن طريق الصحابة رضي الله عنهم : انتشر التفسير وظهرت مدرسة التفسير بالمأثور متمثلة أظهر ما تكون في حبر الأمة ، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، ثم غيره من مفسري الصحابة ، مثل : عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وعلي بن أبي طالب ، وبقية الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم .

وتطورت مدرسة التفسير في عصر التابعين ، فتولد منها مدارس حسب انتشار الصحابة في البلدان ، فأشهر مدارس التفسير بالمأثور مدرسة التفسير بمكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة ، وطاووس ، وسعيد بن جبير ، ثم مدرسة التفسير بالمدينة ، وقد أخذ أصحابها عن أبي بن كعب ، واشتهر منهم أبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي ، وقد أخذ الأول عن أبي مباشرة ، والثاني بواسطة ، واشتهر من مفسري المدينة أيضا : زيد بن أسلم العدوي مولى عمر بن الخطاب ، ومدرسة التفسير بالعراق ، وقد أخذ أصحابها عن ابن مسعود ، واشتهر منهم : علقمة بن قيس ، ومسروق ، ومرة الهمداني ، والشعبي ، وقد أخذ الأخير عنه بواسطة ، واشتهر منهم أيضا : الحسن البصري ، وقتادة .

ثم ظهرت بعد ذلك مدرسة التفسير بالرأي والمراد به تفسير القرآن بالاجتهاد ، بعد اكتمال المفسر للأدوات التي يحتاج إليها في ذلك ، واختلف في جوازه فطائفة تحرمه وطائفة تجيزه ولكل أدلته وإن كانت أدلة المانعين أكثر وأوضح ، وقد جزم الحافظ ابن كثير تبعا لشيخ

الإسلام ابن تيمية بتحريم تفسير القرآن بمجرد الرأي كما ذكرنا في المحاضرة الفائتة ولاشك في جوازه عند الحاجة إليه .

وبين ابن عطية الأندلسي الرأي الممنوع الذي جاء الوعيد لصاحبه في الحديث ، بأن يتبوأ مقعده من النار بقوله : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل ، فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قاله العلماء ، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته ، والنحويون نحوه ، والفقهاء معانيه ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه.

وقد انقسمت مدرسة التفسير بالرأي إلى مدرستين ، تمثلان وجهتي النظر في التحليل والتحريم:

الأولى : مدرسة التفسير بالرأي المحمود ، والمراد به التفسير الموافق لكلام العرب مع موافقة الكتاب والسنة ، ومراعاة الشروط التي يجب توافرها للمفسر ومن ذلك :؟؟؟  
علوم اللغة والنحو ، والصرف والاشتقاق ، والبلاغة وعلم القراءات ، وعلم التوحيد والعقيدة ويسميه البعض علم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه وعلم أسباب النزول ، وعلم القصص ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم الأحاديث الميينة للمجمل والمبهم . الموهبة .  
ولابد أيضا أن يكون ملما بعلوم أخرى بالإضافة إلى شيء أساسي وهو إحاطته بالمأثور في التفسير ومن هذه العلوم الأخرى :  
علم الحديث ، ومصطلحه لئلا يختلط عليه الصحيح بالسقيم من الأدلة التي سبني عليها كلامه في تفسير كتاب الله تعالى .

علم المغازي والسير لارتباطها الوثيق بالتفسير .

علم التاريخ وأخبار الأمم السالفة لتضمن القرآن الحديث عن كثير من ذلك .

علم الديانات لا سيما اليهودية والنصرانية لإسهاب القرآن في ذكرهم والرد عليهم .

علم التقوى ، والخشية ، والورع وهي والله أعلم أصل الموهبة .

علم الآداب والأخلاق ، وتهذيب النفوس للاهتمام البالغ في كتاب الله سبحانه بهذا الجانب .

وقد ذكر طرفا من هذه العلوم الكافيي جي والزرکشي والسيوطي وغيرهم .  
وفيها تفصيل أكثر من ذلك .

وفي الحقيقة من أصعب ما يكون اجتماع هذه الأمور في شخص واحد بل تكاد تكون  
منعدمة . وهو السبب الذي أدى إلى وقوع أغلب المفسرين بالرأي في مزالق إن لم يكن كلهم  
وسوف يأتي الحديث عليها بعد قليل إن شاء الله تعالى .

وقد انتشرت مدرسة الرأي المحمود وكثرت التفاسير المبنية عليها ، من تفاسير لغوية وتفسير  
فقهية ونحوها .

الثانية : مدرسة التفسير بالرأي المذموم ، وقد تولى كبرها طوائف متعددة من المبتدعة  
والمتزندق ، مثل : الحلولية والشيعة ، والخوارج والمعتزلة ونحوهم ، من الفرق الضالة ، التي  
حرفت كتاب الله وخرجت به عن مقاييس اللغة ، فضلا عن تفسير السلف الصالح ، بل عن  
العقل جملة في كثير من الأحيان ، ويتضح هذا بالنظر في تفاسير الشيعة والخوارج ، وغيرهم .  
إذن مما تقدم يمكننا تقسيم التفسير إلى ثلاثة أنواع :

تفسير بالمأثور

وتفسير بالرأي المحمود

وتفسير بالرأي المذموم

وقد اشتهر تقسيمه إلى نوعين :

وهما الأول والثاني

وزاد بعض أهل العلم بدلا من الثالث التفسير الإشاري وهو في الحقيقة يندرج تحت التفسير  
بالرأي المذموم ، وهو توجه من توجهات التفسير عند الصوفية .

وبعضهم أفرد الحديث عن التفسير الفقهي والصواب أنه مما يندرج تحت التفسير بالرأي  
المحمود كما سبق الإشارة إليه .

نتكلم نبذة عن أهم كتب التفسير :

وتنقسم كتب التفسير إلى ثلاثة أقسام :

- قسم اقتصر على التفسير بالمأثور فقط .

- قسم جمع بين التفسير بالمأثور وبين التفسير بالمعقول .
- قسم اقتصر على التفسير بالرأي إلا أن بعضا منه يتعرض للمأثور تعرضا غير أساسي وهو ناقل في الحقيقة عن غيره .

والذي يعنينا في كتب التفسير بالمأثور القسمان الأول والثاني :  
فأهم كتب القسم الأول : تفسير نافع بن أبي نعيم القاري ، وتفسير مسلم بن خالد الزنجي ،  
وتفسير يحيى بن يمان ، والتفسير المنسوب لمجاهد بن جبر ، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني ،  
وتفسير ابن أبي حاتم الرازي ، وتفسير النسائي ، وغير ذلك .  
وهذه الكتب المذكورة طبعت ماعدا تفسير ابن أبي حاتم فالذي طبع منه جزء فقط من قريب  
نصف الكتاب لأنه موجود ومحقق والباقي مفقود .

ومما يدخل في هذا القسم الكتاب الجامع الشامل للإمام السيوطي المسمى الدر المنثور في  
التفسير بالمأثور وهو وإن لم يسند الروايات إلا أنه خرجها من كتب التفسير المسندة وغيرها  
ولم يخلط مع الروايات غيرها وبين في مقدمة كتابه أنه اختصره من كتاب آخر ذكر فيه من  
أسانيد الروايات .  
ومن الطريف أنه روى في كتابه هذا بعض الروايات بإسناده هو وقد وقفت على روايتين من  
ذلك .

وأهم القسم الثاني :

تفسير ابن جرير الطبري المسمى جامع البيان وهو إمامها ورأسها ، وتفسير الجصاص المسمى  
جامع البيان وهو إمامها ورأسها ، وتفسير الجصاص المسمى أحكام القرآن ، وتفسير البغوي  
المسمى معالم التنزيل وهذه الكتب تسند رواياتها إلى أصحابها وعلى الأخص ابن جرير  
الطبري وإمام الجصاص والبغوي فعلا كثيرا من الروايات بدون إسناد بجانب ما أسنده .  
وكلها مطبوعة .

ويلحق بهذا القسم الكتب التي لم تسند رواياتها ، وتكثر النقل من المأثور ويتربع قمتها تفسير  
القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الذي نحن بصدد دراسته ، وهو في الحقيقة يكاد يكون  
أنظف كتب التفسير على الإطلاق ، وأعد لها منهجا مع اختصار غير محل وبغير تطويل ممل .

## هناك أمراض تتعلق بالتفسير بالمأثور:

أولا : الوضع : من أهم أمراض التفسير بالمأثور مما وضعه الوضاعون ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم وعلى وجه الخصوص علي بن أبي طالب وابن عباس . والمتأمل لكتب أهل السنة يجد أن ذلك فيها قليل بل نادر جدا اللهم إلا في باب فضائل السور والآيات وفضائل علي .

والحقيقة أن الوضع على النبي ﷺ شمل التفسير وغيره وقد انبر له جهابذة الحفاظ فأظهروا عوار تلك الروايات الموضوعة بحيث أصبح التحقق منها سهل المنال فلا يصعب تجنبها وتطهير التفسير منها .

وأما الوضع على الصحابة فيظهر بكثرة في كتب الرافضة لأغراضهم العقائدية المنحرفة وينسبون ذلك لعلي بن أبي طالب وآل البيت .

وأما الوضع على ابن عباس فعمدته الكلبي ، وقد تجنب كثير من المفسرين ما روي عن ابن عباس بهذا الإسناد . والتفسير المنسوب إليه من هذه الطريق ذو قيمة علمية في حد ذاته ولكن لا تصح نسبته له ، وإنما نسب إليه ليلقى رواجاً أكثر بسبب ما هو معلوم من دعوته ﷺ لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل ، وما حبي الله به صاحبه من شرف التربية في بيت النبوة ، وكونه أحد أفراداه فهو ابن عم النبي ﷺ ، وخالته إحدى أمهات المؤمنين .

وقد سئل الإمام أحمد عن تفسير الكلبي فقال : من أوله إلى آخره كذب .

ويلحق به ما وضع عنه من مسائل نافع بن الأزرق التي رواها الطستي والطبراني وغيرهما وإسنادها واه .

وأما بعد طبقة الصحابة فالأمر سهل ، ولم يشتهر بالوضع في التفسير ممن يروي عنه تفسير كتاب الله غير مقاتل بن سليمان البلخي .

وقد أعرض عن الرواية عنه ، وذكر تفسيره جل المفسرين . وعليه فاجتناب هذا المرض سهل يسير إن شاء الله تعالى .

ثانيا : الإسرائيليات : وقد تكلمنا عنها ، وهي باختصار شديد ما تأثر به التفسير بالثقافتين اليهودية والنصرانية هكذا عرفه بعضهم .

ويمكن تعريفه : بأنه الروايات التفسيرية المستقاة من أهل الكتاب .

وقد رخص رسول الله ﷺ في الرواية عن أهل الكتاب بقوله : "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج .

وفي هذه المسألة تفصيل ومختصره : إذا كان ما يروى عن أهل الكتاب موافقا لما جاء في ديننا فلا بأس بروايته وهو مصدق ومصدق وقد قال تعالى : " مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه " وقال : " إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى " وغير ذلك من الآيات .

وإذا كان ما يروى عنهم مخالفا لما جاء في ديننا فلا يجوز روايته إلا على سبيل الإنكار والتكذيب وهو من تحريفهم قال تعالى : " يحرفون الكلم من بعد مواضعه " .

أما إذا كان مسكوتا عنه ك بعض التفاصيل لقصص القرآن أو أخبارهم ونحو ذلك فلا حرج في روايته ، ولا يصدقون في ذلك ولا يكذبون وهذا القسم هو المراد بقوله ﷺ المشار إليه وقوله : ( لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا : " آما بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم .....") وقد تكلم كلام ابن كثير في ذلك المحاضرة الفاتنة .

أما المرض الثالث : الروايات الضعيفة : هذا هو الداء العضال الذي عانى ويعانى منه التفسير بالمأثور ، وذلك لدقته وخفائه إلا على من رزقه الله البصيرة في علم الحديث وهو السبب الرئيس في حصول اختلاف التضاد في روايات التفسير بالمأثور وربما عن شخص واحد .

وليس هذا الداء خاصا بالتفسير فقط ، وإنما هو داء شمل جميع جوانب الدين ، ويحتاج إلى تكثيف للجهود لتنقية الأدلة الشرعية المأثورة من أحاديث وآثار مما رواه الضعفاء والمتروكون وأدى إلى حصول الالتباس والتناقض في بعض الجوانب ، كما أن هذا الداء هو عمدة ضعف التفسير بالرأي المحمود أيضا .

وبالنسبة للتفسير بالمأثور فيمكن علاجه من هذا المرض بتجنب النسخ التفسيرية الضعيفة وبيان حكم أهل العلم عليها ، والاقتصار على النسخ الصحيحة والحسنة الواردة عن أئمة التفسير من السلف الصالح مع الحذر الشديد في الروايات الواردة عن النبي ﷺ والاقتصار على ما ثبت منها .

أما التفسير بالرأي ؛ فمن مزلق الرأي المحمود ، ثم نتبعه بمزلق أو بعض جوانب مزلق التفسير بالرأي .

وأما مزالق التفسير بالرأي : فأظهر ما تكون في باب العقائد ثم في الأحكام الفقهية المستنبطة من الآيات ثم في الوقائع التاريخية والآيات المتعلقة بها وغير ذلك . وأكثر ما أدى إلى هذه المزالق من جهتين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . وقال : ( أحدهما قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها والثاني : قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريد من كان من الناطقين بلغة العرب بكلامه من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه والمخاطب به )

ثم ذكر من الصنف الأول تفاسير الفرق المبتدعة من الخوارج والروافض والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم .

وذكر من الصنف الثاني كثير من الصوفية والوعاظ وغيرهم .

وقال السيوطي بعد أن نقل جملة من المفسرين المتقدمين وختمهم بابن جرير : ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ثم صار كل من يسبح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمد عليه ثم ينقل عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير حتى رأيت من حكى في تفسير قوله تعالى : " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " نحو عشرة أقوال ، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم حتى قال ابن أبي حاتم : لا أعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين . ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه ؛ فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر . والإخباري ؛ ليس له شغل إلا القصص واستيفائها والأخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي .

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى باب أمهات الأولاد ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية ، والجواب عن أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية ، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي . وصاحب العلوم العقلية خصوصاً

الغمام فخر الدين قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية .

قال أبو حيان في البحر : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ولذا قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير .

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات ، وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه قال البلقيني : استخرجت من الكشاف اعتزلاً بالمناقش من قوله في تفسير : " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " . قال : وأي فوز أعظم من دخول الجنة . أشار به إلى عدم الرؤية ثم ذكر شيئاً من تفاسير الملاحدة والرافضة وغيرهم .

ومما وقع فيه بعض المفسرين في كلامهم وخرجوا فيه عن المنهج المعتدل . قوله تعالى : " إن الله لا يحب المعتدين " : استدل به المعتزلة على نفي خلق الله للاعتداء ، ولا حجة لهم فيه لأن هناك فرقا بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية . والذي دفعهم لذلك هو اعتقادهم الشيء أولاً ثم تنزيل كلام الله عليه .

وكذا تعرض أبو حيان للكلام في صفة المحبة ، وحقيقتها وجعلها مستحيلة على الله . وخرج بها إلى مجال التأويل ، وجعلها مجازاً عن إرادة الثواب ، وتبعه الألوسي ، والذي عليه السلف الذين هم أعلم بالله منا عدم التعرض لذلك لاتضاح المعنى ، وعدم خفائه على من يسمعه لأنه بلسان عربي مبين ، وأما الصفة التي وصف الله بها نفسه ، فنشبت لها سبحانه على الوجه الذي يليق به ، وهو أعلم به وهذا هو الطريق الأسلم ، كما أنه الطريق الأعم .

ثانياً : قوله تعالى : " واعلموا أن الله مع المتقين " قال الرازي : وهذا من أقوى الدلائل على أنه ليس بجسم ولا في مكان ، إذ لو كان جسماً لكان في مكان معين ، فكان إما أن يكون مع أحد منهم ، ولم يكن مع الآخر أو يكون مع كل واحد من المؤمنين جزء من أجزائه وبعض من أبعاضه تعالى الله عنه علواً كبيراً .

وهذا الكلام من سفاسف المتكلمين الذين أتعبوا أنفسهم في مثل هذه القضايا والآية لا دلالة فيها ألبتة على ما قال عقلاً ؛ فإن القائل إذا قال : سرنا والقمر معنا . كان ذلك صدقاً لا جدال فيه على الرغم من كون القمر في مكان وهو جسم .

وذلك لأن معية لا تستلزم حلولاً ولا اختلاطاً .

ورحم الله الرازي حين قال تائباً من هذا الكلام وأضرابه في توبته تلك :

نهاية إقدام العقول عقال      وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا      وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا      سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا .

وقال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمفاهيم الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات " الرحمن على العرش استوى " إليه يصعد الكلم الطيب " ، وقرأ في النفي : " ليس كمثله شيء " ، " ولا يحيطون به علماً " ثم قال : ( ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ) .

وأيضاً قوله تعالى : " إن الله يحب المحسنين " : تعرض الصاوي لتأويل صفة المحبة واعتبر أنه أريد بها لازمها وهو الإثابة لاستحالتها على الله .

وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله : " إن الله لا يحب المعتدين " فما قيل هناك يقال هنا والله تعالى أعلم .

وأما طامات التفسير بالرأي المذموم فهي كثيرة وأهون ما جاء من ذلك طامات أهل التفسير الإشاري الذي قبله بعض أهل العلم .

والصواب : رده كرد غيره من التفسير المذموم ومما قيل في تمريره أن الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشاري ، وبين تفسير الباطنية الملاحظة أن الصوفية لا يمتنعون إرادة الظاهر بل يحضون عليه ، ويقولون : لا بد منه أولاً إذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يجاوز الباب .

وأما الباطنية ؛ فإنهم يقولون إن الظاهر غير مراد أصلاً ، وإنما المراد الباطن وقصدهم نفي الشريعة .

وبعضهم استدلل لذلك بحديث لا يثبت وهو مارواه الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع .

قلت : أما الظهر والبطن فقد قال السيوطي في معناه أوجه :

أحدها : أنك إذا بحثت عن باطنها وقستة على ظاهرها وقفت على معناها .

الثاني : أنهما من آية إلا عمل بها قوم ولها قوم سيعلمون بها كما قال ابن مسعود .

الثالث : أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها.

الرابع : قال أبو عبيدة وهو أشبهها بالصواب : إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين ، وحديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعالهم فيحل بهم مثل ما حل بهم .

ثم ذكر الخامس وهو كلام هؤلاء ثم قال :

ومعنى قوله ( ولكل حرف حد ) أي : منتهى فيما أراد الله من معناه .

وقيل : لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب .

ومعنى قوله : ( ولكل حد مطلع ) أي : لكل غاية من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ، ويوقف على المراد به . وقيل : كل ما يستحق من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة . وقال بعضهم : الظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع الإشراف على الوعد والوعيد .

ثم إن بعض أهل العلم ممن قبل هذا التفسير الإشاري اشترط شروطا لقبوله وهي خمسة :

١- ألا يتناقض وما يظهر من معنى النظم الكريم .

٢- ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر .

٣- ألا يكون تأويلا بعيدا سخيلا كتفسير بعضهم قوله تعالى : " وإن الله لمع المحسنين " بجعل كلمة لمع ماضيا ، وكلمة المحسنين مفعوله .

٤- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي .

٥- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده .

ونحن في غنى عن هذه الشروط لأن أعرف الناس بكتاب الله وهو رسول الله ﷺ وصحبه الكرام وتلاميذهم من التابعين ومن تبعهم وعلماء الأمة الجهابذة لا يعرف عنهم هذا النوع من تفسير كتاب الله ، ويكفي نظرة خاطفة على بعض أمثله ليعلم مدى فساده .

ومن ذلك تفسير الإشاري لابن عربي لقول الله تعالى : " إن الله يأمركم أن تدبجوا بقرة " بقرة : هي النفس الحيوانية . وذبحها : قمع هواها الذي هو حياتها ، ومنبعها من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة .

وقال في تفسير : "ولسليمان الريح عاصفة". إلى قوله : " وذكرى للعابدين " من سورة الأنبياء .

"ولسليمان الريح" : أي سخرنا لسليمان العقل العملي والتمكن على عرش النفس في الصدر ربح الهوى .

" عاصفة " : في هبوبها تجري بأمره مطيعة له إلى الأرض أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب التي باركنا فيها بتميز الأخلاق ، والملكات الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، وكنا بكل شيء من أسباب الكمال علمين .

" ومن الشياطين " : شياطين الوهم والتخييل . "من يغوصون له " : في بحر الهيولي الجثمانية ويستخرجون درر المعاني الجزئية . " ويعملون عملا دون ذلك " : من التركيب والتفصيل والمصنوعات وتهيج الدواعي المكسوبات وأمثالها. " وكنا لهم حافظين " : عن الزيغ .

ونختم هذه الفقرة بكلام السيوطي : وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير .

قال ابن الصلاح في فتاويه : وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسيراً فقد كفر .

قال ابن الصلاح : وأنا أقول الظن بمن يوثق به منهم ، إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير ، ومع ذلك فيآلتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس .

نكتفي بهذا القدر بهذه المحاضرة وفق الله للجميع وصلى الله على نبينا وعلى آله وسلم .

## الأسئلة :

المجموعة الأولى :

١- معنى التفسير في الاصطلاح الشرعي : الإيضاح والتبيين من الفسر وهو الإبانة وكشف المغطى . ( خطأ )

٢- معنى التفسير اصطلاحاً : علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه . ( صح )

- ٣- يندر في كلام المفسرين التعبير بلفظ التأويل قاصدين به التفسير أو ما يقاربه . ( خطأ )
- ٤- التأويل في اللغة مأخوذ من الأول وهو : الرجوع . ( صح )
- ٥- التأويل عند السلف مرادف للتفسير في الأغلب . ( صح )
- ٦- أقرب الفروق بين التفسير والتأويل هو ما قيل : إن التفسير إنما هو كشف المعنى بحسب الطاقة البشرية . وأما التأويل فهو : معرفة ما يؤول إليه المعنى على وجه الحقيقة ومراد الله ولكن هذا الفرق لا يدل عليه الأدلة من الكتاب والسنة . ( خطأ )
- ٧- أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات وأنه أجل العلوم الشرعية . ( صح )
- ٨- علم التفسير أشرف العلوم ، لأن موضوعه أساس علوم الإسلام ولأن غايته هي الاعتصام بالعروة الوثقى . ( صح )
- ٩- كانت نشأة التفسير على يد معلم البشرية محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى . ( صح )
- ١٠ - التفسير المروي عنه ﷺ قسم واحد هو عبارة عن تفسير لبعض المفردات ، أو الألفاظ الجملة . ( خطأ )

#### المجموعة الثانية :

- ١- قل تفسير المفردات في التفسير النبوي لكون القرآن نزل بلسان عربي مبين في قوم سليقتهم العربية . ( صح )
- ٢- أهم قسم في التفسير النبوي هو التفسير الإجمالي والموضوعي لجميع مقاصد القرآن وقد بينه النبي ﷺ أيما بيان . ( صح )
- ٣- ليس صحيحاً أن جل القرآن الكريم قد فسره النبي ﷺ . ( خطأ )
- ٤- قول ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه . قول صحيح لا غبار عليه . ( صح )
- ٥- تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل لا يعتبر حديثاً مسنداً ، يعني به ما كان من سبب نزول ونحوه . ( خطأ )
- ٦- اعتمد الصحابة في تفاسيرهم على أربعة مصادر : القرآن الكريم ، النبي ﷺ ، الاجتهاد بما لديهم من لغة عربية وفهم ثاقب ، أهل الكتاب . ( صح )

- ٧- مدرسة التفسير بالمأثور متمثلة أظهر ما تكون في حبر الأمة ، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، ثم غيره من مفسري الصحابة ، مثل : عبد الله بن مسعود . (صح)
- ٨- مدرسة التفسير بمكة أصلها ابن عباس ومدرسة التفسير بالمدينة، أصلها أبي بن كعب ، و مدرسة التفسير بالعراق ، أصلها ابن مسعود (صح)
- ٩- اختلف في جواز التفسير بالرأي فطائفة تحرمه وطائفة تميزه ولكل أدلته وإن كانت أدلة المجيزين أكثر وأوضح (خطأ)
- ١٠- التفسير بالرأي المحمود هو التفسير الموافق لكلام العرب مع موافقة الكتاب والسنة ، ومراعاة الشروط الكثيرة التي يجب توافرها للمفسر . (صح)

#### المجموعة الثالثة :

- ١- لا يجب على المفسر الإحاطة بعلم الحديث ومصطلحه وعلم المغازي والسير وعلم التاريخ وأخبار الأمم السالفة وعلم الديانات لعدم الحاجة لها في تفسير القرآن . (خطأ)
- ٢- السبب الذي أدى إلى وقوع أغلب المفسرين بالرأي في مزالق صعوبة بل ربما استحالة اجتماع شروط المفسر في شخص واحد . (صح)
- ٣- تولى كبر مدرسة التفسير بالرأي المذموم طوائف متعددة من المبتدعة والمتزندقة ، مثل : الحلولية والشيعة ، والخوارج والمعتزلة ونحوهم ، من الفرق الضالة . (صح)
- ٤- ينقسم التفسير إلى أنواع كثيرة ومنها : تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي المحمود وتفسير بالرأي المذموم . (خطأ)
- ٥- التفسير الإشاري في الحقيقة يندرج تحت التفسير بالرأي المذموم ، وهو توجه من توجهات التفسير عند الصوفية . (صح)
- ٦- الوضع على الصحابة يظهر بكثرة في كتب الرافضة لأغراضهم العقائدية المنحرفة وينسبون ذلك لعلي بن أبي طالب وآل البيت . (صح)
- ٧- التفسير المنسوب إلى ابن عباس من طريق الكلبي ذو قيمة علمية في حد ذاته ولكن لا تصح نسبته له . (صح)

٨- من نقل أقوالاً في تفسير قوله تعالى : " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " خلاف أن المقصود بها اليهود والنصارى وافق الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم (خطأ)

٩- حديث : لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع . حديث ثابت عن رسول الله ﷺ . (خطأ)

١٠ - مما قيل في معنى قوله لكل آية ظهر وبطن أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها. ولكل حرف حد ( أي : منتهى فيما أراد الله من معناه . ( ولكل حد مطلع ) أي : لكل غاية من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ، ويوقف على المراد به . (صح)

## المحاضرة الثالثة

### طبغات تفسير ابن كثير ومختصراته وفضائل الفاتحة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فقد افتتح الحافظ ابن كثير كتابه بمقدمة هامة في أصول التفسير ذكرنا منها طرفا كبيرا في غضون كلامنا في المحاضرتين السابقتين ثم عطف على ذلك بمبحث طويل يتحدث فيه عن فضائل القرآن ونزوله وكتابه وغير ذلك وجعله قبل تفسيره تشويقا لقارئ التفسير وطالب القرآن وكان في بداية تصنيفه للكتاب قد جعله في آخره ثم بدا له أن يجعله في البداية لهذا الغرض كما صرح بذلك في أواخر النسخ المخطوطة للكتاب .

ثم بدأ رحمه الله بتفسير الفاتحة ونحن في هذه المحاضرة إن شاء الله تعالى سوف نفتح حديثنا في تفسير الفاتحة بذكر فضائلها دون تفسيرها والأحكام المتعلقة بها حيث نرجى ذلك للمحاضرة القادمة إن شاء الله تعالى إلا أننا سوف نقدم بين يدي حديثنا اليوم معلومات هامة حول طبغات كتاب تفسير ابن كثير ومختصراته فنقول :

لم يخدم الكتاب خدمة أكاديمية شاملة في حد علمي إلى الآن ولذا فإنني أحاول عمل ذلك الآن أسأل الله التوفيق والسداد من خلال أكثر من عشرين مخطوطة لهذا الكتاب العظيم متفرقة في أنحاء العالم لن نطيل بذكر تفاصيلها وسوف تجدون ذلك مفصلا في التحقيق المنتظر بإذن الله تعالى .

وقد قام بتحقيق جزء من تفسير ابن كثير الدكتور محمد الفالح من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ونال بها درجة الدكتوراه من قسم القرآن وعلومه . ولم يتيسر لي الوقوف عليها .

وطبع الكتاب مرات كثيرة ، بطبعات مستقلة في أربعة مجلدات كبيرة من القطع العادي ، وفي آخره فضائل القرآن . كما طبع مع غيره أحيانا كطبعته مع تفسير البغوي مرة ومع تفسير البيان في مقاصد القرآن . لحسن صديق القنوجي البخاري مرة أخرى ، وطبع مستقلا بدار الأندلس في بيروت في سبع مجلدات .

ومن الطبعات التي طبع بها الكتاب :

طبع لأول مرة في المطبعة الأميرية ببولاق منذ أكثر من قرن من الزمان وذلك سنة ١٣٠٠هـ  
بهامش تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان .

قال عنها أحمد شاکر : وهي طبعة محرفة لا يكاد ينتفع بها نفعا صحيحا .

وطبع للمرة الثانية سنة ١٣٤٢ هـ في مطبعة المنار بإشراف صاحبها الشيخ محمد رشيد رضا  
رحمه الله بأمر من الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله مع تفسير البغوي في تسعة مجلدات .

قال عنها أحمد شاکر : اجتهد أستاذنا رحمه الله في تصحيحه ما استطاع ولكن فاته من ذلك  
الشيء الكثير ٦/١ وقد انتقده بتفصيل أوسع في ٢/١ .

ثم تداولت الكتاب طبعات تجارية اعتمادا على طبعة المنار في الغالب :

منها طبعة عيسى البابي الحلبي ، وطبعة دار الفكر ببيروت في ٧ مجلدات متوسطة . وطبعة  
دار إحياء التراث العربي ببيروت وهي مصورة من طبعة البابي الحلبي .

حتى قامت بطبعه أول طبعة فيها شيء من التحقيق العلمي دار الشعب سنة ١٣٩٣هـ في ٨  
مجلدات حيث رجع المحققون وهم الأساتذة عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد  
إبراهيم البنا إلى مخطوطة الأزهر فقط وقاموا بجهد مشكور في عزو الأحاديث المرفوعة لاسيما  
للمسند والصحيحين كما قاموا بتعليقات لغوية مفيدة إلا أنه بسبب عدم المقابلة كثر فيها  
السقط والتحريف وقد تعقبها بالنقد الدكتور إسماعيل عبد العال في كتابه ابن كثير ومنهجه  
في التفسير .

ثم طبع طبعات كثيرة اعتمد بعضها على طبعة الشعب والبعض الآخر ما سبقها وقليل منها  
حظي بشيء من التحقيق والمقابلة .

ومن هذه الطبعات نذكر بعض ما وقفنا عليه :

طبعة مكتبة التراث الإسلامي بجلب ، وطبعة دار المعرفة وتعتبر مكتملة اكتمالا جيدا إلا أنه  
وجدت بعض المواضع ذات نقص .

طبعة دار الأرقم بالكويت سنة ١٤٠٥هـ خرج أحاديثها شيخنا الشيخ مقبل بن هادي  
الوادعي رحمه الله ولم تكتمل وهي طبعة سقيمة جدا من جميع النواحي ويبدو أن الشيخ إنما

علق عليها من حفظه أو على عجالة من أمره في المواضع التي علق عليها وهي قليلة ، وهي بالطبع غير مقابلة على شيء من النسخ الخطية ولم يقدم لها إلى غير ذلك من سلبيات طبعة دار الفيحاء بدمشق مع دار السلام بالرياض سنة ١٤١٤هـ مقابلة على مخطوطة دار الكتب المصرية فقط وبدون تحقيق وقد قدم لها عبد القادر أرناؤوط .

طبعة دار ابن الجوزي بالدمام سنة ١٤١٧هـ بتحقيق أبي إسحق الحويني الأثري وهي طبعة جيدة مقابلة على عدة نسخ خطية بدون دقة مخرج فيها الأحاديث تخريجا مطولا خرج به صاحبه عن المقصد من تحقيق الكتاب مع إهمال جوانب عديدة كانت أولى بهذا الاهتمام ، وتتميز بالحكم على بعض الآثار مع عزوها ، ولم تكمل هذه الطبعة وإنما خرج منها مجلدان في خلال ست سنوات تقريبا الأول تضمن كتاب فضائل القرآن حتى نهاية تفسير سورة الفاتحة وتم تجهيز المجلد الثالث وينتهي بنهاية سورة البقرة ولم يدفع للطباعة ومن التعقبات على هذه الطبعة أنه أخرج نصا ملفقا من نسخ الكتاب فلا ندري ما هي النسخة الأصل التي اعتمدها وما هي النسخة التي قابل عليها .

ومنها إطالة تخريج الأحاديث مع عدم الحاجة لذلك .

ومنها أنه وقع المحقق في أمر عظيم وهو تدمير كم هائل من التفسير بالمأثور حيث حكم عليه بالضعف لتبنيه أشد الأقوال في النقد .

ثم طبع الكتاب طبعات كثيرة أخرى كلها ضعيفة لا نطيل بها ومن أحسنها

طبعة دار طيبة بالرياض سنة ١٤١٨هـ بتحقيق سامي بن محمد السلامة وهي طبعة جيدة مقابلة على عدة نسخ خطية مع اهتمام بعزو الأحاديث وتخريج بعضها .

وتعتبر من حيث الجودة في المرتبة التالية لطبعة مكتبة أولاد الشيخ الآتية .

أما آخر طبعة وقفت عليها للكتاب فهي طبعة مكتبة أولاد الشيخ للتراث بمصر سنة ١٤٢١هـ وهي طبعة كاملة في خمسة عشر مجلدا تتضمن في أولها كتاب فضائل القرآن وهي مقابلة على نسختين النسخة الأزهرية ونسخة دار الكتب المصرية وحققتها فريق من الباحثين وهم : مصطفى السيد محمد ، ومحمد السيد رشاد ، ومحمد فضل العجاوي ، وعلي أحمد عبد الباقي ، وحسن عباس قطب .

وهي طبعة جيدة في الجملة وجهد مشكور ممن قاموا به وأسأل الله تعالى أن يثيبهم ويتقبل عملهم وطبعتهم تعتبر أفضل طبعة كاملة موجودة حاليا إلا أن الملاحظات عليها تعتبر قوية ومن ذلك أنهم لم يلتزموا المنهج العلمي في مقابلتهم فلا ندري ما هي النسخة الأصل وما هي النسخة المقابلة .

ومنها أنهم فاتهم زيادات كثيرة بسبب اقتصارهم في الواقع على نسخة واحدة ومن ذلك وبالنسبة لخدمة الكتاب فقد اضطرب منهج التخريج والحكم على الأحاديث لتعدد الباحثين واختلاف مستوياتهم . وقد أغفلوا أحاديث عدة لم يخرجوها أولم يبينوا حكمها وكذا أهملوا الآثار والمواضع التي تحتاج إلى تحرير وتعليق .

كما وقعوا في أخطاء علمية وأحكام جائرة على بعض الروايات التفسيرية كغيرهم .  
ومما يؤكد أهمية تفسير ابن كثير عكوف العلماء عليه ، وقيامهم باختصار في عصره ، فقد لخصه في نفس حجم الأصل شمس الدين محمد بن علي العلي المعروف بابن اليونانية (٧٠٧-٧٩٣ هـ) ، ثم اختصره عفيف الدين بن سعيد الدين بن مسعيد الكازروني (المتوفى حوالي ٩٤٠ هـ) في كتابه البدر المنير ، وطبع هذا المختصر الأخير ، وعلى هامشه أصله سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

وفي عصرنا المتأخر أقبل على اختصاره جماعة من المشتغلين بالعلم فكان أفضل اختصار له هو كتاب عمدة التفسير للشيخ أحمد محمد شاکر المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ حيث اعتمد مخطوطة الأزهر وخرج جملة من أحاديثه وحكم عليها ورسم له خطة محكمة حاول الالتزام بها، وسماه عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، لكنه اخترمته المنية قبل أن يتمه وقد وصل فيه إلى تفسير قوله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبِّكُمْ﴾ .

وقد طبع في دار المعارف بمصر في خمسة أجزاء ثم في دار المدني في مجلدين بدون تاريخ .  
وصرح الشيخ شاکر بهدفه من العمل فقال : وقد بدا لي أن أقوم بالعملين ، نشر هذا التفسير في طبعة علمية محققة متقنة ، وإخراج مختصر منه للقارئ المتوسط يحفظ عليه مقصدة إن شاء الله ذلك ، ويسره ، ووفقني له " .

ثم اختصره الشيخ نسيب الرفاعي اختصارا راعى فيه منهج السلف في جانب العقائد وسماه تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير وطبع هذا الكتاب عدة طبعات ويعتبر أفضل

مختصر كامل وقد أثنى عليه جماعة من أهل العلم نقل كلامهم في مقدمة الكتاب ومنهم سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله .

ثم اختصره الشيخ محمد علي الصابوني فتم له ذلك وسماه مختصر تفسير ابن كثير ولكنه لم يلتزم بما شرطه في اختصاره وانتقده الشيخ محمد جميل زينو في مواضع خاصة تتعلق بالعقيدة وقد طبع الكتاب في ثلاثة مجلدات عدة طبعات بآلاف من النسخ بدار القرآن الكريم ببيروت سنة ١٣٩٣هـ ثم سنة ١٣٩٩هـ ثم سنة ١٤٠٢هـ وهي الطبعة السابعة. ووزع مجاناً في بلاد عديدة على نفقة أحد التجار الكبار ويدعى حسن عباس الشربتلي .

ثم اختصره الشيخ محمد كريم راجح وقد طبع الكتاب بدار المعرفة ببيروت سنة ١٤٠٩ هـ الطبعة الرابعة .

ثم اختصره الدكتور عبد الله بن محمد بن إسحق آل الشيخ فتم له أيضاً وطبع في أربعة مجلدات سنة ١٤١١هـ باسم التيسير لتفسير ابن كثير على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله وهو مختصر جيد في منهجه إلا أنه بدون أي تحقيق لشيء من الروايات . وقد راجع طباعته وصححها الدكتور عبد الكريم أمين عثمان النواوي .

ثم أخيراً اختصره جماعة من العلماء بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري فطبع في مجلد واحد ضخماً بإخراج ممتاز سنة ١٤١٩هـ وصدر منه طبعتان باسم المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير وقد عني بتخريج بعض أحاديثه .

### أما سورة الفاتحة

فهي مكية على الصحيح كما روي عن ابن عباس وقتادة وأبي العالية بل إنها من السور المختلف في القول بأنها أول ما نزل والتحقيق أنها أول ما نزل من السور بعد صدر العلق وكان نزولها في صبيحة نزل الوحي عندما أتى جبريل لرسول الله ﷺ وعلمه الوضوء والصلاة وبعدها فتر الوحي حتى انقضى شهر رمضان ونزل رسول الله ﷺ فاستبطن الوادي ورأى جبريل فنزل عليه صدر سورة المدثر فكانت أول ما نزل بعد فترة الوحي ثم حمي الوحي وتتابع على ما حررناه في صحيح السيرة النبوية .

وقيل : مدنية قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري . ويقال : نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة .

قال ابن كثير : والأول أشبه لقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾ . وهو كما قال .

وهي سبع آيات بلا خلاف .

وإنما اختلفوا في البسمة هل هي آية مستقلة من أولها أو بعض آية ، أو لا تعد من أولها بالكلية ويأتي تقرير ذلك .

أما أسماؤها:

قال البخاري : سميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة . وقيل : إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته .

قال ابن جرير : والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع ؛ أما .

قال : وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها ، وجمعها ما سواها . وقيل : لأن الأرض دحيت منها .

ويقال لها أيضا : الفاتحة لأنها تفتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام . وضح تسميتها بالسبع المثاني قالوا : لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة ، وإن كان للمثاني معان أخرى منها الإطلاق على السبع الطوال ، ومنها على السور غير الطوال ، والمئين ، والمفصل ومنها على القرآن كله .

وقد ثبت في الصحيح تسميتها بالسبع المثاني وبالقرآن العظيم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال لأم القرآن : هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم .

وفي لفظ : وهي فاتحة الكتاب .

وفضائلها كثيرة استوعبت ما صح منها في موسوعة فضائل سور وآيات القرآن ومن ذلك ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد بن المعلى (رضي الله عنه) قال : كنت أصلي ، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت وأتيت ، فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ قال : قلت : يا رسول الله ! إني

كنت أصلي . قال : ألم يقل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال ٢٤] ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن أو من القرآن قبل أن تخرج من المسجد . قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله ! إنك قلت : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن . قال : نعم ، الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته .

وقد رواه الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب وهو يصلي فقال : يا أبي . فالتفت ، ثم لم يجبه ، ثم صلى أبي فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ ، فقال : السلام عليك أي رسول الله . قال : وعليك السلام ، قال : ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني ؟ فقال : أي رسول الله ، كنت في الصلاة . قال : أو لست تجد فيما أوحى إلي ﴿ استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال ٢٤] ؟ قال : بلى يا رسول الله لا أعود . قال : أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ؟ قلت : نعم أي رسول الله . قال رسول الله ﷺ : إني لأرجو أن لا ( أخرج ) من هذا الباب حتى تعلمها . قال : فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني وأنا أتبطأ مخافة أن يبلغ قبل أن يقصني الحديث ، فلما أن دنونا من الباب قلت : أي رسول الله ما السورة التي وعدتني ؟ قال : ما تقرأ في الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه أم القرآن . قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني .

وقد رواه الترمذي والنسائي وغيرهما عن أبي بن كعب مختصرا بلفظ : قال رسول الله ﷺ : ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدني ما سألت .

وروى الإمام أحمد عن ابن جابر قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء ، أي صبه ، والمراد بال . فقلت : السلام عليك يا رسول الله . فلم يرد علي ، قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله . فلم يرد علي ، قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي فانطلق رسول الله ﷺ يمشي ، وأنا خلفه حتى دخل علي رحله ، ودخلت أنا المسجد ، فجلست كئيبا حزينا ، فخرج علي رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال : عليك السلام ورحمة الله ،

وعليك السلام ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله ، ثم قال : ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تحتمها .

قال ابن كثير : هذا إسناد جيد . وهو كما قال .

قال ابن كثير : واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والصور على بعض كما هو المحكي عن كثير من العلماء منهم إسحاق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربي وابن الحصار من المالكية . وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك لأن الجميع كلام الله ولثلا يوهم المفضل نقص المفضل عليه ، وإن كان الجميع فاضلا .

قلت : والصواب : القول الأول لتواتر الأحاديث المؤيدة لذلك ، والتفاضل ليس في ذات كلام الله ، وإنما في الثواب والأجر المترتب عليه والله أعلم .

وروى البخاري ومسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري قال : كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحي سليم وإن نفرنا عُيِّب ، فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأمنه برقية : أي : نتهمه أي : ما كنا نعلم أنه يرقى فنعيه بذلك . فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رقية ؟ أو كنت ترقى ؟ قال : لا ، ما رقيت إلا بأمر الكتاب . قلنا : لا تحدثوا شيئا حتى نأتي أو نسأل رسول الله ﷺ .

فلما قدمنا المدينة ذكرنا للنبي ﷺ فقال : وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقسما واضربوا لي بسهم . وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديغ يسمونه بذلك تفاقولا . وذلك كما قالوا للفلاة مفازة ، وقيل : هو من السلم وهو لدغ الحية ، وقيل لأنه مسلم لما به .

وروى مسلم في صحيحه وغيره عن ابن عباس قال : بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل عليه السلام ، إذ سمع نقيضا (والنقيض هو : الصوت ) ، (ونقيض السقف هو : تحريك الخشب) فرفعه فرفع جبريل عليه السلام بصره إلى السماء ، فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط . قال : فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال : " أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ؛ فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته " .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : " من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج " — ثلاثا — غير تمام . ف قيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام . قال : اقرأ بها في نفسك ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله تعالى : أثنى علي عبدي . فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال : مجدي عبدي — وقال مرة : فوض إلي عبدي — فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل . فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل .

وروى ابن جرير رحمه الله : عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، وله ما سأل ؛ فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال : حمدني عبدي . وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال : أثنى علي عبدي . ثم قال : هذا لي وله ما بقي . وقد صححه أحمد شاكر وهو كما قال .

وفي الصحيحين أيضا عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " .

وسوف نعرض لهذا الحديث في المحاضرة القادمة إن شاء الله تعالى . هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير من أحاديث في فضائل الفاتحة ، وقد ورد في فضلها أحاديث أخر ومن ذلك :

ما رواه ابن الأعرابي في معجمه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " رن إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب " .

وقد أخرجه غيره كأبي الشيخ في العظمة وابن الضريس وغيرهما . وهذا الحديث : إسناده صحيح له حكم المرفوع بأنه مما لا يقال بالرأي ، وليس مما يتلقى من أهل الكتاب ، وكلمة رن أي : صاح ، والرنة الصيحة الشديدة .

وكذلك ما رواه النسائي رحمه الله عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ في مسير له فنزل ونزل رجل إلى جانبه فالتفت إليه النبي ﷺ فقال : ألا أخبرك بأفضل القرآن قال : فتلا عليه : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وهذا حديث صحيح رجاله جميعا ثقات وقد صححه الحاكم ، وسكت الذهبي .  
ومن ذلك أيضا الحديث الذي رواه الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : إذا قال الإمام : غير المغضوب عليهم ولا الضالين . فقولوا : آمين ، فإن الملائكة يقولون : آمين ، وإن الإمام يقول : آمين ، فمن وافق تأمينه ، تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وسوف نعرض لهذا الحديث في آخر تفسير سورة الفاتحة أيضا ، وقد جاء عن غير أبي هريرة بلفظ آخر ، فرواه الإمام مسلم رحمه الله عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله .

ومن ذلك أيضا ما رواه ابن الضريس عن أبي أمامة قال : أربع آيات من كنز العرش ليس ينزل منه شيء غيرهن غير أم الكتاب فإنه يقول : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ ، وآية الكرسي ، وخاتمة سورة البقرة ، والكوثر .

وهذا الحديث حديث حسن ، وصححه الضياء وهو موقوف ، ولكنه في حكم المرفوع بأنه لا مجال للرأي فيه ، وليس يمكن أن يتلقى عن أهل الكتاب ، وقد صرح برفعه في بعض الطرق ، والحديث بالنسبة لفاتحة الكتاب ، وأنها نزلت من كنز العرش له شواهد كثيرة ، وقد ذكرناها بتفصيلها في موسوعة فضائل سور وآيات القرآن وكذلك له شواهد أيضا في آية الكرسي وخاتمة سورة البقرة .

أما قوله : والكوثر : فالذي أراه أن المراد بالكوثر هنا نهر الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ وليس سورة الكوثر . وفي هذه الحالة يكون له شواهد كثيرة ويرجح ذلك بأنه قال : أربع آيات ولم يقصد آيات القرآن . بل أراد ما هو أعم من ذلك لأن عدد آيات الفاتحة وحدها سبع .  
والكوثر من أعظم ما أوتيته ﷺ من الآيات الباهرات .

ومما جاء أيضا في فضائل الفاتحة ما رواه البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن نفرا من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل

الماء ، فقال : هل فيكم راق ؟ إن في الماء رجلا لديغا - أو سليما - فانطلق رجل منهم ، فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء ، فبرأ ، فجاء بالشاء إلى أصحابه ، فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجرا ، قال الرجل : يا رسول الله ، إنا مررنا بحي من أحياء العرب فيهم لديغ - أو سليم - فانطلقت ، فرقيته بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ ، فقال رسول الله ﷺ : إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله عز وجل .

ومما جاء في ذلك أيضا ما رواه أبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : فاتحة الكتاب شفاء من السم .

وهذا حديث إسناده حسن ويشهد له ما ذكرناه عن أبي سعيد الخدري وعن ابن عباس رضي الله عنهما .

ومن ذلك أيضا ما رواه الإمام أحمد والطيالسي وغيرهما : عن خارجة بن الصلت عن عمه قال : أقبلنا من عند النبي ﷺ فأتينا على حي من العرب ، فقالوا : أنبئنا أنكم جئتم من عند هذا الرجل - الحبر - بخير فهل عندكم دواء أو رقية - أو شيء - فإن عندنا معتوها في القيود قال : فقلنا : نعم ، قال : فجاءوا بالمعتوه في القيود قال : فقرأت بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة ، وعشية ، أجمع بزاقني ثم أتفل ، قال : فكأنما نشط من عقال قال : فأعطوني جعلاً فقلت : لا حتى أسأل النبي ﷺ فسألته فقال : كل ، لعمرى من أكل برقية باطل ، لقد أكلت برقية حق .

وقوله لعمرى قسم والمراد بالعمر الحياة ، ولا تقرأ إلا بالفتح عند القسم ، ويقال العمر بضمين .

وهذا الحديث حديث حسن رجاله أئمة ثقات أعلام ، وخارجة بن الصلت تابعي ذكره ابن حبان في الثقات ، وروى عنه الشعبي وسماه وقد قال ابن أبي خيثمة : إذا روى الشعبي عن رجل وسماه فهو ثقة يحتج بحديثه . وقد صحح هذا الحديث الحاكم وسكت الذهبي وصححه ابن حبان . وله طريق آخر وله شواهد .

ومن ذلك أيضا ما رواه الطبراني عن السائب بن يزيد قال : عوذني رسول الله ﷺ بفاتحة الكتاب تفلا .

وهذا الحديث حسن لغيره بهذا اللفظ ، وقد وجد أصله في الصحيح ، فقد أخرجاه في الصحيحين ، ولكن بغير هذا اللفظ .

كما روى الدارمي رحمه الله عن عبد الملك بن عمير قال : قال رسول الله ﷺ : في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء .

وهو حديث مرسل ، وإسناده رجاله ثقات ، والحديث المرسل ضعيف في القول الصحيح من أقول أهل العلم ، لكن هذا الحديث له شواهد يعتبر بها حسنا لغيره منها : شواهد في هذا اللفظ تتعلق به . ومنها : ما تقدم من أحاديث في مطلق أنها رقية ولم يحدد لها مرضا معيناً ، وكذا الحديث الذي ذكر في كونها شفاء من السم ، وحديث السائب الذي فيه أن الرسول ﷺ رقاها والذي جاء في الصحيح : أنه كان به ألم في رجله فهذا يشهد لهذه الرواية المرسلة .

ونكتفي بهذا القدر وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك أتوب إليك .

## الأسئلة :

- ١- افتتح الحافظ ابن كثير كتابه بمقدمة هامة في أصول التفسير . (صح)
- ٢- لم يهتم الحافظ ابن كثير بكتابة مقدمة لتفسيره وبدأ بتفسير الفاتحة مباشرة . (خطأ)
- ٣- مهد الحافظ ابن كثير لتفسيره بمبحث طويل يتحدث فيه عن فضائل القرآن ونزوله وكتابته وغير ذلك . (صح)
- ٤- كان ابن كثير في بداية تصنيفه للتفسير قد جعل فضائل القرآن في آخره ثم بدا له أن يجعله في البداية لتشويق القارئ . (صح)
- ٥- لم يخدم تفسير ابن كثير خدمة أكاديمية شاملة إلى الآن . (صح)
- ٦- قام بتحقيق تفسير ابن كثير كاملا الدكتور محمد الفالح من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ونال به درجة الدكتوراه . (خطأ)
- ٧- طبع تفسير ابن كثير لأول مرة في المطبعة الأميرية ببولاق طبعة دقيقة مصححة . (خطأ)
- ٨- أول طبعة لتفسير ابن كثير فيها شيء من التحقيق العلمي هي طبعة دار الشعب (صح)
- ٩- طبعة دار الأرقم التي خرج أحاديثها الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله جيدة ومقابلة . (خطأ)
- ١٠- من التعقبات على طبعة ابن كثير بتحقيق الحويني أنه أخرج نصا ملفقا من نسخ الكتاب فلا ندري ما هي النسخة الأصل التي اعتمدها وما هي النسخة التي قابل عليها . (صح)
- ١١- من مميزات طبعة ابن كثير بتحقيق الحويني اعتدال المحقق في النقد . (خطأ)
- ١٢- طبعة مكتبة أولاد الشيخ للتراث بمصر تعتبر أفضل طبعة كاملة موجودة حاليا لتفسير ابن كثير (صح)
- ١٣- تتميز طبعة مكتبة أولاد الشيخ بانضباط منهج التخريج والحكم على الأحاديث (خطأ)
- ١٤- أفضل اختصار كامل لتفسير ابن كثير هو كتاب عمدة التفسير للشيخ أحمد محمد شاكر (خطأ)
- ١٥- سورة الفاتحة نزلت مرة في مكة ومرة في المدينة على الصحيح (خطأ)

- ١٦- التحقيق أن الفاتحة أول ما نزل من السور بعد صدر العلق وكان نزولها في صبيحة نزل الوحي . (صح)
- ١٧- دلت الأحاديث المتواترة على تفضل بعض الآيات والسور و ليس في ذات كلام الله ، وإنما في الثواب والأجر المترتب عليه . (صح)
- ١٨- الآية التي بين النصف الذي لله والنصف الذي للعبد في الفاتحة هي ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (صح)
- ١٩- النصف الذي للعبد في فاتحة الكتاب يبدأ بقوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . ﴾ (صح)
- ٢٠- " رن إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب " من الأحاديث الموقوفة التي يمكن أن تتلقى من أهل الكتاب . (خطأ)
- ٢١- ثبت في الحديث أن الفاتحة هي أفضل القرآن . (صح)
- ٢٢- من وافق تأمينه ، تأمين الملائكة بعد قراءة الفاتحة في الصلاة غفر له ما تأخر من ذنبه . (خطأ)
- ٢٣- إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال المأمومون آمين أجابهم الله . (صح)
- ٢٤- حديث أبي أمامة : أربع آيات من كنز العرش ليس ينزل منه شيء غيرهن ومنها أم الكتاب . موقوف ، وليس له حكم المرفوع . (خطأ)
- ٢٥- قراءة الفاتحة على الرجل الملدوغ مقابل شاء ثابت في الصحيح . (صح)
- ٢٦- حديث : فاتحة الكتاب شفاء من السم . حديث حسن . (صح)
- ٢٧- حديث خارجة بن الصلت عن عمه في رقية المعتوه بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة ، وعشية مع جمع البزاق والتفل من الأحاديث الواهية . (خطأ)
- ٢٨- عوذ رسول الله ﷺ السائب بن يزيد بفاتحة الكتاب نفلا من وجع في رجله . (صح)
- ٢٩- حديث : في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء . مرسل رجاله ثقات لكنه ضعيف لإرساله وليس له شواهد يعتبر بها حسنا لغيره . (خطأ)
- ٣٠- ومن الشواهد المعتمدة لحديث فاتحة الكتاب شفاء من كل داء : الأحاديث في مطلق أنها رقية ولم يحدد لها مرضا معيناً . (صح)

## المحاضرة الرابعة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فالتفسير يأتي على ضروب فمنه تفسير المفردات وهو غالب ما يروى عن الصحابة والتابعين في التفسير ومنه التفسير الإجمالي وهو عرض للمعنى الإجمالي الذي تضمنته الآيات وهي طريقة كثير من المفسرين كما يلاحظ في تفسير الطبري قبل أن يسوق الروايات أو بعدها وهو موجود أيضا في تفسير ابن كثير كما سيأتي معنا .

وهناك التفسير التحليلي وهو مبني على تحليل الآية من حيث تركيبها اللغوي ومعاني مفرداتها وما يستنبط منها من أحكام وهو موجود لدى كثير من المفسرين ويعد الطبري في أوائل من سلك هذا المسلك التفسيري .

وهناك التفسير الموضوعي وهو جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين كالجهاد مثلا والربط بينها وبيان ما يستفاد منها وهو نوع من التصنيف لا يذكر كثيرا ضمن كتب التفسير لأنه لا يستوعب آيات القرآن الكريم بل هو أقرب إلى التصنيفات المستقلة .  
والذي نسلكه غالبا في دراستنا هو التفسير التحليلي ويندرج فيه الإجمالي وشرح المفردات .

العنصر الأول :

### الكلام على تفسير الاستعاذة

[ قال الله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإما ينزغنك من الشيطان

نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم ﴾ [الأعراف ٢٠٠، ١٩٩]

ففي هذه الآية يأمر الله بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده (عنه) طبعه الطيب الأصل إلى المادة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولا يتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف

[٢٧] وقال تعالى : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [فاطر ٦]

وقال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [النحل ٩٩، ٩٨] والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر والعيادة تكون لدفع الشر واللياذ لطلب جلب الخير كما قال المتنبي :

يا من ألوذ به فيما أومله      ومن أعوذ به ممن أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره      ولا يهيضون عظما أنت جابره (

ولفظ الاستعاذة يأتي الحديث عنه في مسائل الآيات ومن ذلك أن تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي أستجير بجناب الله من الشيطان أن يضربني في ديني أو دنيائي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه . فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله .

والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن : إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير ، وقيل : مشتق من شاط ؛ لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول : كلاهما صحيح في المعنى ، ولكن الأول أصح ، وعليه يدل كلام العرب .

( وقال سيبويه : العرب تقول : تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا : تشيط ) فالشيطان : مشتق من البعد على الصحيح . ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانا . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ [الأنعام ١١٢]

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن . فقلت : أو للإنس شياطين ؟ قال : نعم .

رواه أحمد ضمن حديث طويل وقد أخرجه الحاكم وغيره وصححه وسكت الذهبي وإسناده فيه مقال من عدة جهات إلا أن له طرقا وشواهد تكفي في تحسين الجزء المذكور من الحديث ومنه الآية نفسها .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : " يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود " . فقلت : يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر من الأصفر ؟ فقال : " الكلب الأسود شيطان " .

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال (الله) تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ [الملك ٥] وقال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ [الحجر ١٦-١٨] إلى غير ذلك من الآيات .

(وقيل : رجيم بمعنى راجم لأنه يرمي الناس بالوساوس والرباثة...)

والرباثة جمع ربيثة وهي : الحاجات التي تحبسهم عن الخير .

ومما يذكر في فضل الاستعاذة ما رواه البخاري وغيره عن سليمان بن صُرد قال : استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه . فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده ؛ لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ ؟ . قال : إني لست بمجنون .

### العنصر الثاني : الكلام عن البسمة :

روى الإمام أحمد عن أبي تيممة عن رديف النبي ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ (حماره) ، فقلت : تعس الشيطان فقال النبي ﷺ : " لا تقل تعس الشيطان ؛ فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاضم وقال : بقوتي صرعته . وإذا قلت : بسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب " .

قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح وصححه الشيخ الألباني رحمه الله .

وتعس : بكسر العين وفتحها أي كب لوجهه أو هلك ويبدو أنه كان من عادتهم إذا عثر أحدهم دعا بذلك على من يكره كما في حديث الإفك ؛ كما في حديث الإفك تعس مسطح .

فهذا من تأثير بركة بسم الله ، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول كما يأتي تفصيل ذلك في المسائل إن شاء الله تعالى .

وللنحاة قولان في تقدير المتعلق بالباء في قولك : بسم الله ؛ هل هو اسم أو فعل ؟ وهما متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن .

فأما من قدره باسم تقديره : بسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ [هود ٤١] ، ومن قدره بالفعل (أمرأ أو خبرأ نحو : ابدأ بسم الله ، أو ابتدأت بسم الله ) ، فلقوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وكلاهما صحيح ؛ فإن الفعل لا بد له من مصدر ، فلك أن تقدر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله إن كان قياما أو قعودا أو أكلا أو شربا أو قراءة أو وضوءا أو صلاة ؛ فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله ، تبركا وتيمنا واستعانة على الإتمام والتقبل والله أعلم .

وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره ؛ ففيها للناس ثلاثة أقوال ، وهي مسألة من مسائل ما يسمى بعلم الكلام وهو علم محدث أدى بأصحابه إلى زلات كثيرة وليت الحافظ لم يذكر هذه المسألة هنا أصلاً ، ويكفي قوله بعد أن أشار إليها : فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث " .

الله : علم على الرب تبارك وتعالى . يقال : إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات . كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر ٢٤، ٢٢] فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له

وفي الصحيحين : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة" . وجاء تعدادها في رواية الترمذي ، (وابن ماجه، وفي الروايتين اختلاف وزيادة ونقصان . وقد ذكر الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم ، ألف في الكتاب والسنة الصحيحة ، وألف في التوراة ، وألف في الإنجيل ، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ)

وهذا من خرافات تفسير الرازي وتوسعاته غير المرضية التي لا أزمة لها ولا تثبت لا عقلا ولا نقلا .

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لا يعرف في كلام العرب (له) اشتقاق من فعل ويفعل ، فذهب من ذهب من النحاة ، إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له ، ( وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول : يا الله ، ولا تقول : يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام ) .

وقيل : إنه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لله دَرُّ الغايات الممدِّه سبحن واسترجعن من تألّهي

والمده : المدح ، المادة المادح والجمع المده . والغانية الجارية التي غنيت بزوجها . فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو : التأله ، من أله يأله إلهة وتألها . كما روي أن ابن عباس قرأ : ويدرك وإلهتك . قال : عبادتك أي أنه كان يُعبد ولا يُعبد . وهي قراءة شاذة .

وأصل ذلك الإله ؛ فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة ، فالتقت اللام التي عينها ، مع اللام الزائدة في أولها للتعريف ، فأدغمت إحداهما في الأخرى ، فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة ، وفخمت تعظيما فليل : الله .

والقول بعدم اشتقاقه أصح والمشتق المذكور هو لفظ الإله وليس لفظ الله ، ومن الأدلة على عدم اشتقاقه أنه لا يثنى ولا يجمع .

الرحمن الرحيم : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم ، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا .

وقال القرطبي : والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذي ، وصححه عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : " أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها (اسما) من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته " .

قال : وهذا أظهر في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق .

قلت : الدليل المذكور يدل على أنه مشتق منه لا مشتق ولا يمنع أن يكون الرحم والرحمة وتصريف ذلك كله مشتق من اسم الله الرحمن .

قال القرطبي : ثم قيل : هما بمعنى ، كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فعلان كفعيل ؛ فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ، نحو قولك : رجل غضبان . للرجل الممتلئ غضبا . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ [الأحزاب : ٤٣]

وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يُسأل يغضب .  
(واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء ١١٠] وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب ، وشهر به ، فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب ، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة ، من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب) .

قلت : جهرم : بلدة بفارس ولم أقف على شرح لمعناها وكأنه يراد بها تزندق كأنه اتبع دين فارس وقد ذكرها الحافظ الذهبي في المغني في الضعفاء في ترجمة علي بن عبد الملك الطرسوسي فقال : قال الحاكم : كان معتزليا متهاونا بالرواية تجهرم حتى هجر .١.هـ .  
وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به ، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكد ، والجواب : أن هذا ليس من باب التأكيد ، وإنما هو من باب النعت (بعد النعت) ، ولا يلزم فيه ما ذكره .

كما زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء ١١٠] ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية \_ لما قال رسول الله ﷺ : لعلي اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم \_ فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخاري . وفي بعض الروايات لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة .

قلت : هذا اللفظ لم أجده إلا في طبقات ابن سعد عن ابن عباس في قصة أخرى وهي إرسال قريش النضر وعقبة لسؤال اليهود عنه ﷺ وفيه " يزعم أنه رسول الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة . وفيه الكلبي وهو متروك .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نفورا ﴾ [الفرقان ٦٠] والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود ، وعناد ، وتعنت في كفرهم . وإنه قد وجد في أشعار الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن . قال ابن جرير : وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها      ألا قضب الرحمن ربي يمينها

المهجين هنا : يعني الزوج . وقضب : أي قطع .

و عن الحسن قال : الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه ( تسمى به تبارك وتعالى).

العنصر الثالث :

الحمد لله رب العالمين

القراء السبعة على ضم الدال من قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ وهو مبتدأ وخبر .

ورويت فيه قراءات أخرى : الحمد لله بالنصب . وهو على إضمار فعل .

، الحمد لله بضم الدال واللام إتباعا للثاني الأول وله شواهد .

، الحمد لله بكسر الدال إتباعا للأول الثاني . وكلها شواذ لا يقرأ بها .

قال أبو جعفر بن جرير : معنى ﴿ الحمد لله ﴾ الشكر لله خالصا ، دون سائر ما يعبد من

دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم ، التي لا يحصيها العدد ،

ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات في طاعته ، وتمكين جوارح أجسام

المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ،

من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية

إلى دوام الخلود ، في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا .

(وقال ابن جرير : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ؛

فكأنه قال : قولوا الحمد لله) .

قال : وقد قيل : إن قول القائل : (الحمد لله) ثناء عليه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى .  
وقوله : الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه . ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل  
المعرفة بلسان العرب ، يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر .

وقد اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين ، أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود  
بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان  
والأركان .

ولكنهم اختلفوا ، أيها أعم ، الحمد أو الشكر ؟ على قولين . والتحقيق أن بينهما عموماً  
وخصوصاً ؛ فالحمد أعم من الشكر ، من حيث ما يقعان عليه ، لأنه يكون على الصفات  
اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه ، وهو أخص لأنه لا يكون إلا  
بالقول . والشكر أعم من حيث ما يقعان به ؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم .  
وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية ، لا يقال : شكرته لفروسيته ، وتقول :  
شكرته على كرمه وإحسانه إلي . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم .

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث كثيرة ومن ذلك ما رواه أحمد وغيره عن الأسود بن سريع  
قال : قلت : يا رسول ، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى ؟ فقال : أما إن ربك  
يجب الحمد .

وهو حديث حسن وقد صححه أحمد شاكر وحسنه الألباني .  
وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا : قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أفضل من قوله :  
لا إله إلا الله ؛ لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد .

وقال آخرون : بل لا إله إلا الله أفضل ، لأنها الفصل بين الإيمان والكفر ، وعليها يقاتل  
الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، كما ثبت في الحديث المتفق عليه . وفي الحديث الآخر في  
السنن : " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " . وهو  
حديث حسن له طرق .

والألف واللام في ﴿ الحمد ﴾ لاستغراق جميع أجناس الحمد ، وصنوفه ، لله تعالى . كما جاء  
في الحديث : " اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وببيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر  
كله " .

والرب هو : المالك المتصرف . ويطلق في اللغة على السيد ، وعلى المتصرف للإصلاح . وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى ، ( ولا يستعمل الرب لغير الله إلا بالإضافة تقول : رب الدار ، ورب كذا . وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل .  
والعالمين : جمع عالم ، ( وهو كل موجود سوى الله عز وجل )  
والعالم : جمع لا واحد له من لفظه . والعوالم : أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر ، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً .  
وفي رواية سعيد بن جبير وعكرمة ، عن ابن عباس : رب الجن والإنس .  
وكذلك قال غير واحد من السلف .

واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان ١] وهم الجن والإنس . وقال الفراء وأبو عبيدة : العالم عبارة عما يعقل ، وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ، ولا يقال للبهائم : عالم .  
وقوله : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ سبق الكلام عليه في البسمة .

( قال القرطبي : وإنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم ، بعد قوله : ﴿ رب العالمين ﴾ ، ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب ، كما قال : ﴿ نبيّ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ وقوله : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ قال : فالرب فيه ترهيب ، والرحمن فيه ترغيب . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ، لما طمع في جنته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، لما قنط من جنته أحد . "

المبحث الرابع :

مالك يوم الدين

قرأ بعض القراء : ﴿ مالك ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ ملك ﴾ ، وكلاهما صحيح متواتر في السبعة .  
وقرئ أيضاً : ملك \_ بإسكان اللام ، على وزن سهل . ومليك على وزن فاعل ، وملكي بإشباع الكسرة . وحكعن أبي حنيفة أنه قرأ : مَلَك يوم الدين ، على أنه فعل وفاعل ومفعول . وكلها شواذ لا يقرأ بها .

وقد رجح كلا من القراءتين المتواترتين مرجحون من حيث المعنى ، وكلاهما صحيحة حسنة .  
ورجح الزمخشري ﴿ملك﴾ لأنها قراءة الحرمين ، ولقوله : ﴿لمن الملك اليوم﴾ و ﴿قوله الحق  
وله الملك﴾ .

وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئا غريبا عن ابن شهاب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ  
وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون : ﴿مالك يوم الدين﴾ .  
قال ابن شهاب : وأول من أحدث ﴿ملك﴾ مروان .

قال ابن كثير : مروان عنده علم بصحة ما قرأه لم يطلع عليه ابن شهاب ، والله أعلم .  
قلت : الأثر في إسناده عدي بن الفضل قال الذهبي : تركوه وهو أيضا مرسل لا يصح .  
وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه ؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين ،  
وذلك عام في الدنيا والآخرة . وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئا ،  
ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي  
وسعيد﴾ [هود ١٠٥] .

(والملك في الحقيقة هو الله عز وجل . قال الله : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك  
القدوس السلام﴾ وفي الصحيحين : عن أبي هريرة مرفوعا : "أخنع اسم عند الله ؛ رجل  
تسمى بملك الأملاك ، ولا ملك إلا الله" . وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال : "يقبض الله  
الأرض ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟  
أين المتكبرون ؟" . وفي القرآن العظيم ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ . فأما تسمية  
غيره في الدنيا بملك ، فعلى سبيل المجاز ، كما قال تعالى : ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت  
ملكا﴾ ﴿وكان وراءهم ملك﴾ ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا﴾ وفي الصحيحين :  
"مثل الملوك على الأسرة" .

والدين : الجزاء والحساب كما قال : ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ وقال : ﴿أئنا  
لمدينون﴾ أي : لمجزيون . أي : محاسبون . وفي الحديث الذي حسنه الترمذي وفيه ضعف :  
الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت" . أي حاسب نفسه لنفسه ، وكما قال عمر :  
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ،  
على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافيه﴾ ( .

المبحث الخامس : إياك نعبد وإياك نستعين

القراءة المتواترة المتفق عليها بتشديد الياء من ﴿إياك﴾ ، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر، وهي قراءة شاذة مردولة ، لأن إيا ضوء الشمس . وقرأ بعضهم : أياك بفتح الهمزة وتشديد الياء . وقرأ بعضهم : هياك بالهاء بدل الهمزة ، وكلها شواذ .

ونستعين : بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع ، سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم .

والعبادة في اللغة من الذلة . يقال : طريق معبد ، ويعير معبد ، أي : مذلل . وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف .

وقدم المفعول \_ وهو إياك \_ وكرر ، للاهتمام والحرص ، أي : لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك . وهذا هو كمال الطاعة . والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين . وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن . وسرها هذه الكلمة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ؛ فالأول : تبري من الشرك . والثاني : تبري من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عز وجل . وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى : ﴿فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [هود ١٢٣] ، ﴿قل هو الرحمن آمنأ به وعليه توكلنا﴾ [المالك ٢٩] ، ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلا﴾ [المزمل ٩] وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبه ؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى ؛ فلهذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة ، بجميل صفاته الحسنى ، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك .

وإنما قدم ﴿إياك نعبد﴾ على ﴿وإياك نستعين﴾ لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم ، والله أعلم .

فإن قيل : ما معنى النون في قوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ؟ فإن كانت للجمع ؛ فالداعي واحد ، وإن كانت للتعظيم ؛ فلا يناسب هذا المقام . وقد أجيب : بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد ، والمصلي فرد منهم ، ولاسيما إن كان في جماعة أو إمامهم ،

فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين ، بالعبادة التي خلقوا من أجلها ، وتوسط لهم بخير .  
ومنهم من قال : ﴿ إياك نعبد ﴾ ألطف في التواضع من إياك أعبد ، لما في الثاني من تعظيم  
نفسه ، من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى ، الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق  
عبادته ، ولا يثني عليه كما يليق به .

والعبادة مقام عظيم ، يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى ، وقد سمى الله رسوله  
ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ [الكهف  
١] ، ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ [الجن ١٩] ، ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾  
[الإسراء ١] فسماه عبداً عند إنزاله عليه ، وعند قيامه في الدعوة ، وإسرائته به .

المبحث السادس :

اهدنا الصراط المستقيم

قراءة الجمهور بالصاد وقرئ السراط بالسين ، وقرئ بالزاي . قال الفراء : وهي لغة بني  
عدي ، وبني كلب .

قلت : ليس بالزاي الخالصة كما رواه بعضهم خطأ وإنما بالصاد المشوبة بالزاي ويسمى  
الإشمام وتنطق مثل الظاء عند عوام مصر هكذا : ..... ، وهي قراءة حمزة على تفصيل في  
الروايتين عنه . وهذه القراءات المذكورة متواترة .

وطلب العبد هنا ذلك أنه لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ، ناسب أن يعقب  
بالسؤال ، كما قال : فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبي ما سأل ، وهذا أكمل أحوال  
السائل أن يمدح مسؤوله ، ثم يسأل حاجته (وحاجة إخوانه المؤمنين) بقوله : ﴿ اهدنا  
الصراط المستقيم ﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة ، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه  
الأكمل .

والهداية ههنا : الإرشاد والتوفيق ، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿ اهدنا الصراط  
المستقيم ﴾ فتضمن معنى : ألهمنا ، أو وفقنا ، أو ارزقنا ، أو أعطنا . ﴿ وهديناه النجدين ﴾  
[البلد ١٠] أي : بينا له الخير والشر . وقد تعدى بإلى كقوله تعالى : ﴿ اجتباه وهداه إلى  
صراط مستقيم ﴾ [النحل ١٢١] ، ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [الصفافات ٢٣]

وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإنيك لتهدني إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى ٥٢] . وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ [الأعراف ٤٣] أي : وفقنا لهذا ، وجعلنا له أهلا .

قلت : الهداية نوعان : هداية دلالة وإرشاد وهداية توفيق وإلهام وكله مراد هنا .  
وأما الصراط المستقيم : فقال الإمام أبو جعفر بن جرير : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو : الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه . وكذلك ذلك في لغة جميع العرب ، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مُستقيم

قال : والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر . قال : ثم تستعير العرب الصراط ، فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج ؛ فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوج باعوجاجه .

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف ، في تفسير الصراط وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد ، وهو المتابعة لله وللرسول ، فروي أنه كتاب الله . كما في حديث الحارث الأعور عن علي وهو حديث ضعيف .

كما روي في تفسير السدي عن ابن عباس وابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قالوا : هو الإسلام .

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قال : الإسلام ، هو أوسع مما بين السماء والأرض . وإسناده حسن .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان ، عن رسول الله ﷺ قال : ضرب الله مثلا ؛ صراطا مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ! ادخلوا الصراط جميعا ، ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك ! لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه . فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ،

والداعي من فوق : واعظ الله من قلب كل مسلم . قال ابن كثير : وهو إسناد حسن صحيح . قلت : صححه أيضا الحاكم والسيوطي والألباني .

وقال مجاهد : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قال : الحق .

وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .

وعن أبي العالية ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قال : هو النبي ﷺ وصاحبه من بعده . قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن . فقال : صدق أبو العالية ونصح . إسناده حسن .

قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال صحيحة ، وهي متلازمة ؛ فإن من اتبع النبي ﷺ ، واقتدى بالذين من بعده \_ أبي بكر وعمر \_ فقد اتبع الحق . ومن اتبع الحق ، فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام ، فقد اتبع القرآن ، وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم ، فكلها صحيحة ، يصدق بعضها بعضا والله الحمد .

وعن عبد الله بن مسعود قال : الصراط المستقيم ؛ الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ . إسناده صحيح .

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي \_ أعني ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أن يكون معنيا به : وفقنا للثبات على ما ارتضيته ، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك ، من قول وعمل . وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره الله به ، والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح . وكل ذلك من الصراط المستقيم .

فإن قيل : فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها ، وهو متصف بذلك ؟ وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلا ونهارا إلى سؤال الهداية ، لما أرشده الله إلى ذلك ؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى ، في تثبيته على الهداية ، ورسوخه فيها ، وتبصره وازدياده منها ، واستمراره عليها ؛ فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق ؛ فالسعيد

من وفقه (الله تعالى) لسؤاله ، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه ، آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ الآية . [ النساء ١٣٦ ] ، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان ، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل ؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك ، والله أعلم .

العنصر السابع :

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين  
القراءة في صراط كالقراءة في الصراط معرفة .

وقد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخرها ؛ أن الله يقول : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .

وقوله : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ مفسر للصراط المستقيم ، وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم .

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ [ النساء ٩٦-٧٠ ] .

وعن الربيع بن أنس : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ قال : هم النبيون .  
وقال ابن جريج عن ابن عباس : هم المؤمنون . وكذا قال مجاهد .

وقال وكيع : هم المسلمون .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم النبي ﷺ ومن معه .  
والآية أعم وأشمل .

وقوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

قرأ الجمهور ﴿ غير ﴾ بالجر على النعت .

قال الزمخشري : وقرئ بالنصب على الحال ، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ، ورويت عن ابن كثير . وذو الحال : الضمير في ﴿ عليهم ﴾ ، والعامل ﴿ أنعمت ﴾ .

قلت : تعبيره بقراءة النبي ﷺ غير صحيح فإن قراءة العشرة هي قراءة رسول الله ﷺ بأصح الأسانيد بل بالتواتر وأما هذا فالمراد به أنها رويت عن النبي ﷺ بالآحاد الضعيفة أو الشاذ وقد روى الدوري عن عبد الجبار بن وائل بن حجر قال : قرأ النبي ﷺ غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهي غير مشكلة ولعلها المرادة هنا وإسناده ضعيف لإرساله وروى الطبراني عن ابن مسعود أنه قرأ على رسول الله ﷺ غير المغضوب عليهم خفض . قال الهيثمي : فيه الفياض بن غزوان وهو ضعيف وجماعة لم أعرفهم .

وأما قراءة عمر رضي الله عنه فقد أخرجها ابن أبي داود في المصاحف من طرق عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود وعلقمة عنه وهذا إسناد صحيح ، وهي قراءة تفسيرية أو منسوخة شاذة . والمعنى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ممن تقدم وصفهم ونعتهم ، وهم أهل الهداية ، والاستقامة والطاعة لله ورسوله ، وامتنال أوامره وترك نواهيه وزواجه ، غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدت إراداتهم ، فعلموا الحق وعدلوا عنه . ولا صراط الضالين ؛ وهم الذين فقدوا العلم ، فهم هائمون في الضلالة ، لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ، ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين ، وهما طريقتا اليهود والنصارى .

وقد زعم بعض النحاة أن غير ههنا استثنائية ، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم ، وليسوا منهم . والأول أولى أي : غير صراط المغضوب عليهم . اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف ، وقد دل عليه سياق الكلام ، وهو قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ثم قال : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ .

ومنهم من زعم أن لا في قوله : ﴿ ولا الضالين ﴾ زائدة ، وأن تقدير الكلام عنده : غير المغضوب عليهم والضالين . واستشهد بييت العجاج :

في بير لا حور سعى وما شعر

أي : في بير حور . والصحيح ما تقدم .

وقوله حور : أي هلكة . أي بئر هلكة .

ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن عمر بن الخطاب : أنه كان يقرأ : غير المغضوب عليهم وغير الضالين . وهذا إسناد صحيح .

وكذا حكى عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك . وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير ، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي (لئلا يتوهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم ) ، وللفرق بين الطريقتين لتجنب كل منهما ؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم . ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ؛ لأن من علم وترك استحق الغضب ، بخلاف من لم يعلم . والنصارى لما كانوا قاصدين شيئا ، لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه ، وهو اتباع الرسول الحق ضلوا . وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب (كما قال عنهم : ﴿ من لعنه الله وغضب عليه ﴾ [ المائدة ٦٠ ] ) وأخص أوصاف النصارى الضلال . (كما قال : ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [ المائدة ٧٧ ] ) وبهذا جاءت الأحاديث والآثار .

من ذلك ما رواه أحمد وغيره عن عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ قال : هم اليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ قال : النصارى هم الضالون . وإسناده حسن .

وعن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن ﴿ المغضوب عليهم ﴾ قال : اليهود . قال : قلت : ﴿ الضالين ﴾ . قال : النصارى .

ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري وعزاه لابن مردويه بإسناد حسن . وفي تفسير السدي عن ابن عباس وابن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ هم اليهود . ﴿ ولا الضالين ﴾ هم النصارى . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافا .

## الأسئلة :

- ١ . تفسير المفردات هو غالب ما يروى عن الصحابة والتابعين في التفسير (صح)
- ٢ . التفسير الإجمالي هو عرض للمعنى الإجمالي الذي تضمنته الآيات وهي طريقة القليل من المفسرين (خطأ)
- ٣ . التفسير التحليلي هو مبني على تحليل الآية من حيث تركيبها اللغوي ومعاني مفرداتها وما يستنبط منها من أحكام (صح)
- ٤ . التفسير الموضوعي نوع من التصنيف لا يذكر كثيرا ضمن كتب التفسير لأنه لا يستوعب آيات القرآن الكريم بل هو أقرب إلى التصنيفات المستقلة . (صح)
- ٥ . العيادة تكون لدفع الشر واللياذ لطلب جلب الخير . (صح)
- ٦ . والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن وقيل : مشتق من شاط والثاني أصح (خطأ)
- ٧ . الرجيم : فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله (صح)
- ٨ . للنحاة قولان في تقدير المتعلق بالباء في قولك : بسم الله ؛ هل هو اسم أو فعل ؟ وهما متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن (صح)
- ٩ . مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره الخوض فيها على جميع التقديرات يجري مجرى العبث (صح)
- ١٠ . الله يقال : إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات (صح)
- ١١ . ذكر الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم منها ألف في الكتاب والسنة الصحيحة وهذا من فوائد تفسير الرازي القيمة . (خطأ)
- ١٢ . القول بعدم اشتقاق لفظ : الله أصح والمشتق المذكور في الشواهد هو لفظ الإله وليس لفظ الله . (صح)
- ١٣ . استدلال القرطبي على أن اسم الرحمن مشتق بالحديث القدسي أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها (اسما) من اسمي استدلال دقيق في محله (خطأ)
- ١٤ . الرحمن أبلغ من الرحيم لأن فعلا لا يقع إلا على مبالغة الفعل وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول (صح)

- ١٥ . الحديث الذي يدل على ان العرب لم يكونوا يعرفون الرحمن إلا رحمن اليمامة حديث ثابت (خطأ)
- ١٦ . اشتهر عند كثير من العلماء ، أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان . (صح)
- ١٧ . اختلف في أيها أعم ، الحمد أو الشكر ؟ على قولين . والتحقيق أنهما سواء . (خطأ)
- ١٨ . الألف واللام في ﴿ الحمد ﴾ للعهد (خطأ)
- ١٩ . لا يستعمل الرب لغير الله إلا بالإضافة (صح)
- ٢٠ . استدل بقوله تعالى : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ على أن العالمين يراد به كل من يعقل من الإنس والجن والملائكة (خطأ)
- ٢١ . حديث الزهري أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ . وأول من أحدث ﴿ ملك ﴾ مروان . حديث حسن له توجيه معتبر . (خطأ)
- ٢٢ . الدين في قوله مالك يوم الدين مثل الدين في قوله : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ (صح)
- ٢٣ . الذي يقرأ إياك نعبد بدون تشديد الياء كأنما يقول ضوء شمسك نعبد (صح)
- ٢٤ . قراءة الصراط مع إثماد الصاد زايا مثل ظاء العوام لا تنبغي (خطأ)
- ٢٥ . اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف ، في تفسير الصراط وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد ، وهو المتابعة لله والرسول ﷺ (صح)
- ٢٦ . يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها ، وهو متصف بذلك لأن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى ، في تثبيته على الهداية (صح)
- ٢٧ . الذين أنعمت عليهم لا يصح أن يفسروا بالمذكورين في سورة النساء : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم... الآية ﴾ (خطأ)
- ٢٨ . عن عمر بن الخطاب : أنه كان يقرأ : غير المغضوب عليهم وغير الضالين وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير (صح)

٢٩ . اليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم . ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى (صح)

٣٠ . لا يوجد بين المفسرين اختلاف في أن المغضوب عليهم في هذه الآية هم اليهود والضالين هم النصارى . (صح)

## المحاضرة الخامسة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فمحاضرة اليوم استكمال لحديثنا عن الفاتحة وسيكون البحث في المسائل والأحكام المتعلقة بالفاتحة فنقول :

اشتملت هذه السورة على حمد الله ، وتمجيده ، والثناء عليه ، وعلى ذكر المعاد \_ وهو يوم الدين \_ وعلى إرشاد الله العباد إلى سؤاله ، والتضرع إليه ، والتبري من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية \_ تبارك وتعالى \_ وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم \_ وهو الدين القويم \_ وتثبيتهم عليه ، حتى يفضي بهم ذلك إلى جنات النعيم ، في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة . والتحذير من مسالك الباطل ، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وأهمهم المغضوب عليهم اليهود والضالون النصارى .

ومن المسائل والأحكام المتعلقة بهذه السورة العظيمة :

أولاً : يتعذر على بعض من يقرأ هذه السورة تحرير النطق بالضاد في قوله : ولا الضالين . فمنهم من ينطقها دالا مفخمة أو طاء ومنهم من ينطقها ظاء خالصة ومنهم من ينطقها ظاء كظاء عوام مصر دون إخراج طرف اللسان وعلى القارئ أن يحاول تحقيق مخرجها ونطقها نطقاً صحيحاً فإذا تعذر عليه ذلك فنطقها بما يشبه الظاء وهو أهون خطأ من نطقها دالا أو طاء اغتفر له ذلك ولذا قال الحافظ ابن كثير : والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما ؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان ، وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ، ومن الحروف الرخوة ، ومن الحروف المطبقة ؛ فهذا اغتفر استعمال إحداها مكان الأخرى لمن لا يميز ذلك ، والله أعلم . وهذه صفات للحروف لها أضداد وضد الجهر همس وضد الرخاوة الشدة وضد الإطباق الانفتاح .

وقد أبعد بعضهم النجعة فظن أن نطقها ظاء صوابا وضمن كلامه ما تقدم عن الحافظ ابن كثير ولمن يفتن إلى أنه اعتبره خطأ مغتفرا في حق من تعذر عليه النطق الصحيح فأمليت رسالة مختصرة في الرد عليه سميتها : تنزيه المثاني من النطق بالضاد عند عبید الله الأفغاني . فمن شاء التوسع في تلك المسألة فليراجع الرسالة المذكورة .

وأما حديث : أنا أفصح من نطق بالضاد ؛ فقد قال ابن كثير : لا أصل له . وقال السيوطي : معناه صحيح ولكن لا أصل له .

ثانيا : إذا طرحنا سؤالاً فلماذا أسند الله الضلال في هذه السورة إلى من قام به ؟ ألا يكون في ذلك حجة للقدرية ، ومن حذا حذوهم ، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ، ويفعلونه ؟

فالجواب : إن أصحاب الفرق الضالة يحتجون على بدعهم بمتشابهة من القرآن ، ويتركون ما يكون فيه صريحا في الرد عليهم ، وهذا حال أهل الضلال والغي . قال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ [آل عمران ٧] . وقد ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم : " إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم " فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة ، لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل ، مفرقا بين الهدى والضلال ، وليس فيه تناقض ولا اختلاف ؛ لأنه من عند الله تنزِيل من حكيم حميد . والصواب هو ما عليه أهل السنة والجماعة وأن الله هو الذي أضلهم بقدره ، كما قال : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ [الكهف ١٧] وقال : ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأعراف ١٨٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال ، وأما نسبة ذلك لهم فهو من باب التأديب في الخطاب من العبد لربه كما في قول إبراهيم عليه السلام : وإذا مرضت فهو يشفين . فنسب المرض لنفسه والشفاء لله والكل منه سبحانه والأمثلة على ذلك من الكتاب والسنة مشهورة .

### ثالثا : حكم الاستعاذة ولفظها :

قال الشاطبي رحمه الله :

إذا ما أردت الدهر تقرأ فاستعد      جهارا من الشيطان بالله مسجلا

على ما أتى في النحل يسرا وإن تزد      لربك تنزيها فلست مجهلا

وقد ذكروا لفظ الرسول فلم يزد      ولو صح هذا النقل لم يبق مجملا

والجمهور على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يأثم تاركها ، وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال وقال ابن سيرين إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية فاستعد وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي صلى الله عليه وسلم عليها ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب . وهو كلام وجيه ويؤيده ما نقلناه عن الشاطبي .

وأما الجهر بها فقال الشافعي وغيره : يجهر بالتعوذ وإن أسر فلا يضر . واختيار الشاطبي الجهر ولاشك في أنه أولى .

وأما لفظ الاستعاذة فاختلف فيه : فقيل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وقيل : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم .

وقيل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم

وقيل : أستعيد بالله من الشيطان الرجيم

وأصح ذلك وأكمله ما ثبت في الأحاديث الصحيحة وهو القول الثاني لما رواه أحمد وأصحاب السنن عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . ويقول : لا إله إلا الله . ثلاثا . ثم يقول : الله أكبر ثلاثا ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه .

وقد فسر الهمز بالموته وهي الخنق الذي يعتري المصروع من الجنون أو غيره ثم يفيق والنفخ بالكبر والنفث بالشعر .

وهو وإن كان في الصلاة فهو أولى ما يتبع في القراءة خارجها كذلك .

والأول كاف أيضا لما ثبت من لفظه ﷺ في غير القراءة وهو ما دلت عليه سورة النحل .  
وقد روي في لفظ الاستعاذة عند القراءة حديث لا يصح ولو ثبت لم يبق في هذا الأمر إجمال  
كما قال الشاطبي وقد رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ  
قال : يا محمد استعد قل : أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل : بسم  
الله الرحمن الرحيم . ثم قال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ... إلخ .

قال ابن كثير : في إسناده ضعف وانقطاع .

قلت : نقل هذا الكلام عن الحافظ ابن كثير الإمام ابن الجزري وأقره على ضعفه وانقطاعه  
وعدم قيام الحجة به وذكر أن أبا عمرو الداني أخرجه أيضا بلفظ : قل : أعوذ بالله من  
الشيطان الرجيم . وهذا اللفظ هو الذي عناه الشاطبي .

والضعف المذكور في كلام ابن كثير من جهة أحد الرواة وهو بشر بن عمارة الخثعمي وهو  
ضعيف ، وأما الانقطاع فبين راويه الضحاك وابن عباس .

وأما موضع الاستعاذة :

فقال ابن كثير : والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع  
الوسواس فيها . ومعنى الآية عندهم ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾  
[النحل ٩٨] أي إذا أردت القراءة كقوله ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم  
وأيديكم ﴾ [المائدة ٦] الآية أي إذا أردتم القيام والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله  
ﷺ بذلك .

وقال ابن الجزري : هو قبل القراءة إجماعا ولا يصح قول بخلافه عن أحد ممن يعتبر قوله وإنما  
آفة العلم التقليد .

أما رواية ابن قلوفا عن حمزة فهي منقطعة ... لا يصح إسناده وأما أبو هريرة فالذي نقل  
عنه رواه الشافعي في مسنده ... عن صالح بن أبي صالح أنه سمع أبا هريرة وهو يؤم الناس  
رافعا صوته ( ربنا إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم ) في المكتوبة وإذا فرغ من أم القرآن .  
وهذا إسناده لا يحتج به لأن إبراهيم بن محمد — يعني شيخ الشافعي فيه — هو الأسلمي وقد  
أجمع أهل النقل والحديث على ضعفه ولم يوثقه سوى الشافعي ، قال أبوداود : كان قدريا

رافضيا مآبونا كل بلاء فيه ، وصالح بن أبي صالح الكوفي ضعيف وإن على تقدير صحته لا يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة بل يدل على أنه كان يستعيذ إذا فرغ من أم القرآن أي للسورة الأخرى وذلك واضح .

وقال ابن الجزري : وأما ابن سيرين والنخعي فلا يصح عن واحد منهما عند أهل النقل .....وأما داود وأصحابه فهذه كتبهم موجودة لا تعد كثرة لم يذكر فيها أحد شيئا من ذلك ونص ابن حزم إمام أهل الظاهر على التعوذ قبل القراءة ولم يذكر غير ذلك .

قلت : الذي نقل جل هذه الأقوال الرازي في تفسيره وقد وقفت على خلط كثير في نسبة الآثار لدى الرازي رحمه الله في عدة مواضع من كتابه فلا يوثق بنقله .

قال ابن العربي : ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ قال ذلك بعد قراءة أم القرآن لمن قرأ في الصلاة . وهذا قول لم يرد به أثر ولا يعضده نظر ..... ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فالله أعلم بسر هذه الرواية .

قال الرازي : وأقول : هاهنا قول ثالث وهو أن يقرأ الاستعاذة قبل القراءة بمقتضى الخبر وبعدها بمقتضى القرآن ، جمعا بين الدليلين بقدر الإمكان .

قلت : وهو جمع غير وجيه لأن الخبر مفسر للقرآن لا وجه غيره .

( النشر ١/٢٥٤-٢٥٥ ، وانظر مسند الشافعي ١/٣٥ ، تفسير القرطبي ١/٧٧ ، أحكام القرآن ٣/١١٧٦ ، مفاتيح الغيب ١/٦٠ ) .

#### رابعا : البسمة :

مواضع استحباب البسمة :

وهي كثيرة وقد أخرج الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعا : كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع . وحسنه السيوطي وفي إسناده أحمد بن محمد بن عمران وهو ضعيف والحديث قال فيه الألباني : ضعيف جدا .هـ وقد جاء بلفظ : لا يبدأ بحمد الله وحسنه جماعة من الأئمة .

وقد استند الحافظ ابن كثير لهذا الحديث في استحبابها عند الخطبة .

وتقدم ما يدل على استحبابها إذا تعثر المسلم ، وتستحب البسمة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك ، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره : " لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه " . وقد ضعف جميع طرقه جماعة من أهل العلم وصححها بعضهم والصواب أنه حديث حسن بمجموع طرقه .  
قال ابن كثير : هو حديث حسن ، ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقا .

وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقا في قول بعضهم كما سيأتي بيانه في موضعه .

وهكذا تستحب عند الأكل لما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبي سلمة : قل بسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك " . ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه . وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا " .  
وهناك مواضع أخرى كثيرة وما ذكرناه كفاية .

( إرواء الغليل ١/١٢٢ ، البدر المنير ٣/٢٢٥-٢٥٧ ، التحقيق في أحاديث الخلاف ١/١٣٧-١٤٠ ، نصب الراية ١/٣-٤ ، التلخيص الحبير ١/٧٢-٧٦ ، الجامع لأخلاق الراوي ٢/٦٩ )

هل هي آية من كل سورة أم لا ؟

أجمع أهل العلم على أنها بعض آية من سورة النمل .  
ثم اختلفوا : هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كتبت في أولها ، أو أنها بعض آية من أول كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية على أقوال للعلماء سلفا وخلفا وذلك مبسوط في غير هذا الموضوع .

ومن ذهب إلى أنها آية من كل سورة إلا براءة : عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله . ونسب لجماعة من الصحابة والتابعين وجلها إما أسانيدها ضعيفة وإما ألفاظها ليست نصا فيما نسب إليهم . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور . وقال الشافعي في قول : هي آية من الفاتحة وليست من غيرها . وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة وهما غريبان .

وقال داود : هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها . وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وحكاه أبو بكر الرازي عن محمد بن الحسن والكرخي وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله .

والراجح من ذلك أنها آية مستقلة نزلت للفصل بين السور كما في القول الأخير لما رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم .

وقد اختلف علماء العدد في عد البسمة آية من الفاتحة فعدّها الكوفي والمكي ولم يعدّها بقية العلماء السبعة وعدوا بدلا منها أول لفظ عليهم فهي باتفاقهم سبع آيات .

قال الناظم : الكوفي مع مكّي يعدّ البسمة سواهما أولى عليهم عد له والقول الثاني أصحّ لحديث أبي هريرة قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين فقد بدأ فيه بالحمد لله رب العالمين ولم يذكر البسمة ثم جعل لله الثلاث آيات الأولى وقال في الرابعة : هذه بيني وبين عبدي ثم جعل الثلاث آيات الأخيرة للعبد . فتمت القسمة بذلك معنى وعددا .

وأما ما رواه ابن خزيمة عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأ البسمة في أول الفاتحة في الصلاة وعدّها آية . فهو من رواية عمر بن هارون البلخي قال فيه ابن حجر : متروك . فالحديث ضعيف ولا يوجد ما يشهد له على عدّها آية .

فأما ما يتعلق بالجهر بها فمفرع على هذا ؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها وكذا من قال : إنها آية من أولها وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلّفوا فذهب الشافعي إلى أنه

يجهر بها مع الفاتحة والسورة ، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين خلفا وسلفا ، وقد ذكر ابن كثير أسماءهم مفصلة .

ثم قال : والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها . وأيضا فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ . وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم .

قلت : أصل هذا الحديث في صحيح مسلم مختصرا ، ولكنه ليس نصا في المسألة فالمشاهدة لا تعني المطابقة في كل المواضع وقد يقصد في بعض أمور الصلاة التي كان الاختلاف حولها كالجهر بالتكبيرات أو الطول والقصر ونحو ذلك .

وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يفتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال الترمذي : وليس إسناده بذلك . قلت : هذا في إسناده مجهول . فلا يثبت .

وقد رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال : صحيح .

قلت : قد تعقبه الذهبي بقوله : ابن حسان - يعني عبد الله بن عمرو بن حسان المذكور في إسناده - كذبه غير واحد ومثل هذا لا يخفي على المصنف . ١.هـ فالحديث ضعيف جدا . وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال : كانت قراءته مدا . ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . وقال الدارقطني : إسناده صحيح .

وروى الشافعي رحمه الله والحاكم في مستدركه عن أنس أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بسمل .

قلت : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم وسكت الذهبي . وهذه الروايات ليست صريحة في جهر النبي ﷺ بالبسملة في الصلاة .

قال ابن كثير : وفي هذه الأحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها . فأما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر .

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مغفل ، وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل .

قلت : أما أبو بكر وعمر وعثمان فثابت عنهم كما سيأتي وأما علي فلم أف على ثبوته عنه بل روي عنه عكسه ونقل الرازي أن عليا كان يجهر بالتسمية وأن ذلك ثبت بالتواتر ( انظر مفاتيح الغيب ٢٠٥/١ ) وهيئات أن يكون كما قال .

وقد قال الترمذي عقب حديث عبد الله بن مغفل الآتي ذكره : والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم .

كما قد روى الطبراني عن أبي وائل قال : كان علي وعبد الله لا يجهران بيسم الله الرحمن الرحيم ولا بالتعويد ولا بالتأمين . وقال الهيثمي : فيه أبو سعد البقال وهو ثقة مدلس . وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهاً ولا سرا واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين .

وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين .

ومسلم : لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها . ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل .

قلت : في رواية عبد الله بن مغفل أنه قد سمع ولده يجهر بالبسملة فقال : أي بني إياك والحدث . وإسناده حسن .

قال ابن كثير : فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة وهي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر والله الحمد والمنة .

قلت : لكن القول بعدم الجهر بها أظهر لثبوت الحديث به ، ثم يبقى الحكم فيمن لم يقرأها أصلا عند من يعتبرها سابعة الفاتحة . وحسب ما رجحناه أولا فصلاته صحيحة ولا شيء عليه لأنها ليست منها ، وإن كان الأولى الإتيان بها خروجاً من الخلاف .

#### خامساً : حكم قراءة الفاتحة في الصلاة :

سبق في حديث أبي هريرة قسمت الصلاة إطلاق لفظ الصلاة ، وأراد بها : القراءة ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ [الإسراء ١١] أي : بقراءتك كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس

فدل على عظمة القراءة في الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها ، إذ أطلقت العبادة ، وأريد به جزء واحد منها وهو القراءة ، كما أطلق لفظ القراءة ، والمراد به الصلاة في قوله : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء ٧٨] والمراد : صلاة الفجر كما جاء مصرحاً به في الصحيحين من أنه تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار . فدل ذلك كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة ، وهو اتفاق من العلماء .

ولكن اختلفوا هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب ، أم تجزئ هي وغيرها ؟ على قولين مشهورين ؛

فعند أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين ، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاءه في الصلاة . واحتجوا بعموم قوله تعالى ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمل ٢٠] وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته أن رسول الله ﷺ قال له : إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . قالوا : فأمره بقراءة ما تيسر ، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها ، فدل على ما قلنا .

والقول الثاني : أنه يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها . وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء . واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور ، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : " من صلى صلاة لم يقرأ بها بأم القرآن فهي خداج " . والخداج هو الناقص ، كما فسر في الحديث " غير تمام " .

واحتجوا أيضاً بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : " لا صلاة لمن (لم) يقرأ بفاتحة الكتاب " .

وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن " .

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة . وقال آخرون : إنما تجب قراءتها في معظم الركعات . وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذاً بمطلق الحديث : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " .

ثم هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها ، كما تجب على إمامه ، لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثاني : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية ، لا الفاتحة ولا غيرها ، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية ، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : " من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة " . ولكن في إسناده ضعف

قلت : رجاله كلهم ثقات إلا أن أبا الزبير راويه عن جابر لم يصرح بالسماع وهو مدلس . وقد ضعف هذا الحديث جماعة وصححه آخرون وأظن أن التوجه الفقهي كان له أثر في كلام بعضهم حول هذا الحديث ، ولا يستبعد تحسينه وقد حسنه الشيخ الألباني بعد مبحث نفيس فيه وقال الحافظ ابن حجر : مشهور من حديث جابر . (انظر الإرواء ٤٩٩)

ولكن ليس صريحاً في قراءة الفاتحة وهو محمول على القراءة بعد الفاتحة جمعاً بين الأدلة فلا يقرأ المأموم سوى الفاتحة خلف الإمام لأن قراءة الإمام تجزئ عنه .

والقول الثالث : أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : " إنما جعل الإمام ليؤتم به ؛ فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا... " وذكر بقية الحديث .

قلت : تكلم بعض الحفاظ في زيادة وإذا قرأ فأنصتوا في هذا الحديث والصواب ثبوتها فهي زيادة ثقة وليست شذوذاً والفرق بينهما دقيق .

قال ابن كثير : وهكذا رواه بقية أهل السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : " وإذا قرأ فأنصتوا " . وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً .

قلت : لم يخرججه الترمذي ، وإسناده حسن وقد طعن بعض الحفاظ في زيادة ﴿ وإذا قرأ فأنصتوا ﴾ أيضا كما في الحديث السابق ووجهها اللوم فيها على أبي خالد الاحمر ولكن قد تابعه محمد بن سعد الأنصاري وهو ثقة وغيره أيضا فهي زيادته ثابتة كذلك انظر (سنن الدارقطني ١/٣٢٨-٣٣٠، السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٥٦، إرواء الغليل ٢/١٢٢، ١٢١)

قال ابن كثير : فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول ، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله ، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل .

قلت : في ذلك نظر بل إنما دلا فقط على الإنصات عند قراءة الإمام ماسوى الفاتحة أو القراءة في وقت سكوته جمعا بين النصوص (انظر المحلى ٣/٣٠٨-٣١٠) وقد دل على ذلك صراحة حديث عبادة بن الصامت بلفظ : صلى بنا النبي ﷺ صلاة الصبح فنقلت عليه القراءة فلما انصرف قال : إني لأراكم تقرؤون وراء إمامكم قال : قلنا : أجل والله يارسول الله هذا ! قال : فلا تفعلوا إلا بأمر الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها . هذا لفظ ابن خزيمة في صحيحه وقد أخرجه غيره أيضا وإسناده صحيح ( موسوعة فضائل سور وآيات القرآن ١/٤٠-٤٣).

**ثامنا : التأمين بعدها :**

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها : آمين كياسين . ويقال : آمين \_ بالقصر أيضا كيمين \_ ومعناه : اللهم استجب .

ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل ﴿ آمين البيت الحرام ﴾ . [المائدة ٢]

والثابت المحفوظ في السنة الأول .

والدليل على استحباب التأمين ما رواه وائل بن حجر قال : سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقال : آمين \_ مد بها صوته . أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن .

وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . قال : آمين . حتى يسمع من يليه من الصف الأول .

رواه أبو داود ، وابن ماجه \_ وزاد : يرتج بها المسجد \_ والدارقطني ، وقال : هذا إسناد حسن .

وعن بلال أنه قال : يارسول الله لا تسبني بآمين . رواه أبو داود .  
قلت : إسناده صحيح وأخرجه أيضا الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسكت الذهبي .

ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ، ويتأكد في حق المصلي ، سواء أكان منفردا ، أم إماما ، أم مأموما ، وفي جميع الأحوال لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا أمن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفي لفظ أن رسول الله ﷺ قال : إذا قال أحدكم في الصلاة آمين ، والملائكة في السماء آمين ؛ فوافقت إحداهما الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه .

قيل : معنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة : في الزمان . وقيل : في الإجابة . وقيل : في الإخلاص .

والأول أظهر .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعا : وإذا قال \_ يعني الإمام \_ : ولا الضالين . فقولوا : آمين يجبكم الله .

وقال جويبر : عن الضحاك عن ابن عباس قال : قلت : يا رسول الله ! ما معنى آمين ؟ قال : رب افعل .

قلت : في إسناده جويبر صاحب التفسير وهو هالك وفيه انقطاع بين الضحاك وابن عباس . فلا يصح .

وقال الجوهرى : معنى آمين : كذلك فليكن . وقال الترمذي : معناه لا تخيب رجاءنا . وقال الأكثرون : معناه اللهم استجب لنا .

وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن يساف أن آمين اسم من أسماء الله تعالى . وروي عن ابن عباس مرفوعا ، ولا يصح . قاله أبو بكر بن العربي المالكي .

قلت لعل المراد والله أعلم أنه بمعنى اللهم استجب فقصدتهم ما تضمنه من لفظ الجلالة ، لا أن آمين كلها اسم من أسماء الله لأنه لا معنى لذكر ذلك بعد الدعاء ولكن صحيحا عندهم أن يدعو الداعي فيقول : يا آمين ارحمني . أو أن يتسمى شخص بـ عبد آمين . وهذا كله باطل لم يرد شيء يدل عليه .

وقال أصحاب مالك : لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم لقوله : وإذا قال \_ يعني الإمام \_ : ﴿ولا الضالين﴾ فقولوا : آمين ... الحديث

وقد ثبت غير هذا اللفظ وهو قوله : إذا أمن الإمام فأمنوا . وأنه عليه السلام كان يؤمن إذا قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ .

وهذا هو المعتمد ، لأن قوله إذا قال ولا الضالين فقولوا آمين لا يعني أنه لا يؤمن بل هو حث على أن يكون توقيت التأمين لهم موافقا لتأمين الإمام فكله بعد قول الإمام ولا الضالين.

وقد اختلف في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية ، والصحيح أنه يجهر بذلك لثبوت الأحاديث به كما تقدم من قوله : حتى يرتج المسجد .

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال : إنهم لم يحسدونا على شيء ، كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وصلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين . قلت : أصله في الصحيح . وقال الهيثمي : إسناده حسن .

ورواه ابن ماجه ولفظه : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين".

قال البوصيري : إسناده صحيح احتج مسلم بجميع رواته . وصححه المنذري ومغلطاي والألباني

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت آمين في الصلاة ، وعند الدعاء ، لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى ؛ كان موسى يدعو ، وهارون يؤمن ، فاختموا الدعاء بآمين ، فإن الله يستجيبه لكم .

قال ابن كثير تعقيبا عليه : ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأمولا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ [يونس ٨٨-٨٩] فذكر الدعاء عن موسى وحده ، ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى : ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ فدل ذلك على أن من أمن على دعاء ، فكأنما قاله ؛ فلهذا قال من قال : إن المأموم لا يقرأ ؛ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها . فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم .

قلت : الحديث في إسناده زري بن عبد الرحمن وهو ضعيف وله شاهد أخرجه عبد الرزاق عن أبي هريرة من قوله وفيه كان موسى بن عمران إذا دعا أمن هارون على دعائه . وفيه بشر بن رافع ضعيف .

ولو صح الحديث لما كان فيه حجة لأن هارون لم يؤمر بأن يقول مثل قول موسى عليه السلام ولكن المصلي أمر بالقراءة كما سبق بيانه فلا يسقطها عنه مجرد التأمين والله أعلم .

وقد ذكر ابن كثير هنا حديثين في فضل التأمين رواهما ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه

الأول عن رسول الله ﷺ قال : آمين ؛ خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين .

وفي إسناده أبو أمية إسماعيل بن يعلى قال الذهبي : متروك . وقال السيوطي : إسناده ضعيف .

والثاني عن رسول الله ﷺ : إذا قال الإمام : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . فقال :

آمين . فوافق آمين أهل الأرض ، آمين أهل السماء ، غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه .

ومثل من لا يقول : آمين ، كمثل رجل غزا مع قوم ، فاقترعوا ، فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه . فقال : لم لم يخرج سهمي ؟ فقيل : إنك لم تقل : آمين .

قلت : وإسناده فيه ضعف لأجل الكلام المعروف في ليث بن أبي سليم . وقال الهيثمي : في

الصحيح بعضه رواه أبو يعلى وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة مدلس وقد عنعنه .

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## الأسئلة :

- ١ . الصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما (صح)
- ٢ . من الناس من ينطق الضاد دالا مفخمة أو طاء ومنهم من ينطقها ظاء خالصة ومنهم من ينطقها ظاء كظاء عوام مصر دون إخراج طرف اللسان وهو أهونها خطأ (صح)
- ٣ . حديث : أنا أفصح من نطق بالضاد ؛ حديث ثابت (خطأ)
- ٤ . أسند الله الضلال في هذه السورة إلى من قام به من باب تعليم الأدب في الخطاب وإلا فهو سبحانه الذي أضلهم (صح)
- ٥ . وجوب الاستعاذة في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قول وجيه ويؤيده كلام الشاطبي (صح)
- ٦ . أصح صيغ الاستعاذة وأكملها ما ثبت في الأحاديث الصحيحة وهو قوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . (خطأ)
- ٧ . روي في لفظ الاستعاذة عند القراءة حديث لا يصح . (صح)
- ٨ . موضع الاستعاذة قبل القراءة إجماعا ولا يصح قول بخلافه عن أحد ممن يعتبر قوله (صح)
- ٩ . الإمام الرازي رحمه الله دقيق جدا في نقله للآثار . (خطأ)
- ١٠ . قراءة الاستعاذة قبل القراءة بمقتضى الخبر وبعدها بمقتضى القرآن ، جمعا بين الدليلين جمع غير وجيه لأن الخبر مفسر للقرآن وليس وجها غيره (صح)
- ١١ . كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم أقطع . حديث صحيح (خطأ)
- ١٢ . تشرع البسمة عن الأكل وعند الذبح وعند الجماع وفي مواضع أخرى عديدة (صح)
- ١٣ . أجمع أهل العلم على أن البسمة آية كاملة من سورة النمل . (خطأ)
- ١٤ . الراجح من أقوال العلماء أن البسمة آية مستقلة نزلت للفصل بين السور لما رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عباس (صح)
- ١٥ . القول الأصح هو عد البسمة آية من سورة الفاتحة (خطأ)

- ١٦ . الأحاديث الصريحة في أن رسول الله ﷺ كان يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم غير ثابتة (صح)
- ١٧ . عدم الجهر بالبسملة في الصلاة هو الثابت عن أبي بكر وعمر وعثمان (صح)
- ١٨ . القول بالجهر بالبسملة أظهر لثبوت الحديث به . (خطأ)
- ١٩ . أجمع الأئمة على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر (صح)
- ٢٠ . ولا تجهر بصلاتك \_ أي بقراءتك \_ ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا (صح)
- ٢١ . وقرآن الفجر \_ أي ما يقرأ في قيام الليل \_ إن قرآن الفجر كان مشهودا (خطأ)
- ٢٢ . قوله ﷺ : من صلى صلاة لم يقرأ بها بأم القرآن فهي خداج دليل على صحة صلاة من لم يقرأ بالفاتحة مع نقصان أجرها (خطأ)
- ٢٣ . حديث من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة " . لا يستبعد تحسينه ولكن ليس صريحا في قراءة الفاتحة وهو محمول على القراءة بعد الفاتحة جمعا بين الأدلة (صح)
- ٢٤ . الحديثان الواردان بلفظ : وإذا قرأ فأنصتوا دلا فقط على الإنصات عند قراءة الإمام ماسوى الفاتحة أو القراءة في وقت سكوته جمعا بين النصوص (صح)
- ٢٥ . معنى آمين : اللهم استجب لنا. وقيل : معناه لا تخيب رجاءنا . وقال الأكثرون : معناه كذلك فليكن . (خطأ)
- ٢٦ . يصح أن يقول القائل يا آمين ارحمني على قول من يقول آمين اسم من أسماء الله تعالى . (خطأ)
- ٢٧ . قوله إذا قال ولا الضالين فقولوا آمين لا يعني أنه لا يؤمن بل هو حث على أن يكون توقيت التأمين لهم موافقا لتأمين الإمام (صح)
- ٢٨ . الصحيح الجهر بالتأمين لثبوت الأحاديث به . (صح)
- ٢٩ . من الأمور التي حسدنا عليها اليهود التأمين خلف الإمام (صح)
- ٣٠ . حديث تأمين هارون خلف دعاء موسى عليهما السلام يصح الاستدلال به على عدم قراءة المأموم في الصلاة الجهرية . (خطأ)

## المحاضرة السادسة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد

فمحاضرة اليوم بدايتنا مع تفسير سورة البقرة وهي سورة عظيمة احتوت على تشريعات شاملة لجل جوانب الحياة عدا ما تضمنته من عقائد وقصص ووعظ وتذكير وغير ذلك ولذا فإنها متفردة بفضائل عدة لا يعرف مثلها لغيرها بل إنها حوت أعظم آية في كتاب الله وهي آية الكرسي وسوف نستهل كلامنا بذكر فضائلها كسورة كاملة أما فضائل بعض آياتها فنستعرضها إن شاء الله تعالى في محالها وتنقسم فضائل سورة البقرة إلى أقسام ثلاثة : فضائل لها خاصة ، وفضائل تشترك فيها هي وسورة آل عمران ، وفضائل تشترك فيها مع السبع الطوال الأول

أما فضائلها مستقلة فمنها :

ما رواه البخاري عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوطة عنده ، إذ جالت الفرس ، فسكت ، فسكنت فقرأ فجالت الفرس ، فسكت ، فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريبا منها . فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء (فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرج) حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال : اقرأ يا ابن حضير . قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قريبا ، فرفعت رأسي وانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها قال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم . هكذا رواه البخاري معلقا مجزوما به وقد وصله جماعة .

ووقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه وذلك فما رواه أبو عبيد عن جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدثوه أن رسول الله ﷺ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تنزل داره البارحة تزهو مصابيح ؟ قال : فلعله قرأ سورة البقرة . قال : فسئل ثابت ، فقال : قرأت سورة البقرة .

وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهاما ، ثم هو مرسل ، والله أعلم .

أما الإبهام فالمراد به أشياخ المدينة وهم من التابعين لا شك لأن جرير بن زيد لا يعرف برواية عن الصحابة وأما الإرسال فلكونهم من التابعين إلا أن مجموعهم يرفع الإبهام ويبقى الإرسال فلعل المخرج واحد .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، فإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان" .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه .  
وإسناد صحيح .

وروى أبو عبيد أيضا عن عبد الله - يعني ابن مسعود- قال : إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة .

رواه جماعة هكذا موقوفا ورواه غيرهم مرفوعا وبعضهم مطولا وبعضهم مختصرا ، والأرجح فيه الوقف والشاهد فيه في حكم المرفوع .

وقد رواه غيره مطولا عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجله على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرأها ، فإن الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله .

عزاه السيوطي أيضا لابن مردويه وقال : بسند ضعيف .هـ وقد أخرجه من طريق أبي إسحاق به مرفوعا جماعة منهم النسائي كما سيأتي وفي إسناده أبو إسحاق السبيعي وقد اختلط ولم يصرح بالسماع وخالف غيره والصواب أنه موقوف كما تقدم .

وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط .

وإسناده جيد وهو نفس ماسبق إلا أن فيه زيادة وله ضراط . ولعله أخذها من قصة مصارعة عمر مع الشيطان .

وروى أيضا من طريق الشعبي قال : قال عبد الله بن مسعود : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها ، وآية الكرسي وآيتان بعدها ، وثلاث آيات في آخرها .

قلت : ورجاله ثقات إلا أنه منقطع بين الشعبي وابن مسعود .

وفي رواية : لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا تقرأن على مجنون إلا أفاق .  
أخرجها أيضا الدارمي من طريق آخر عن الشعبي ولأجزاء منها شواهد تصح بها في آية  
الكرسي وخواتيم البقرة وفي قراءة آية الكرسي على المجنون .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : إن لكل شيء سناما ، وإن سنام القرآن  
البقرة ، من قرأها في بيته ليلة لم يدخله شيطان ثلاث ليال ، ومن قرأها في بيته نهارا لم يدخله  
شيطان ثلاثة أيام .

رواه الطبراني ، و ابن حبان وإسناده حسن لشواهدة وتحديد الأيام الثلاثة لا شاهد له وقد  
صححه ابن حبان

ومن ذلك أيضا : ما رواه أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : البقرة سنام  
القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا ، واستخرجت الله لا إله إلا هو الحي القيوم  
من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل  
يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، وقرؤها على موتاكم .

قلت : الحديث بطوله له شواهد يثبت بها ماعدا قوله : نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا .  
وقد صححه ابن حبان وقوله : اقرؤها على موتاكم يعني المختصر لأن شواهد الحديث في  
المختصر ومن ذلك قصة غضيف بن الحارث الثمالي التي رواها

وقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لكل شيء سنام ، وإن سنام  
القرآن البقرة ، وفيها آية هي سيدة أي القرآن : آية الكرسي .

قلت : رواه أيضا الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه لتشيع حكيم بن جبير وسكت  
الذهبي . وهو حديث صحيح له شواهد .

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد ،  
فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم \_ يعني ما معه من القرآن \_ فأتى على رجل من أحدثهم  
سنا ، فقال : ما معك يا فلان ؟ فقال : معي كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة  
البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم . فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعي  
أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن

واقرووه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقراه ، وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان ، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك .  
هذا لفظ رواية الترمذي ثم قال : هذا حديث حسن .

وهذا الحديث حسن في الشواهد والمتابعات وصححه ابن خزيمة وابن حبان وفي إسناده مولى أبي أحمد قال الحافظ ابن حجر : مقبول . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسكت الذهبي . وقد ضعفه الألباني .

أما ما ورد في فضلها مع آل عمران

فروى مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " اقرؤوا القرآن ، فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة ، اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما ، ثم قال : اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة "

الزهراوان : المنيرتان . والغياية : ما أظلك من فوقك . والفرق : القطعة من الشيء ، والصواف : المصطفة المتضامة . والبطلة : السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أي : لا يمكنهم حفظها ، وقيل : لا تستطيع النفوذ في قاريها والله أعلم .

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما " .

وروى أحمد عن بريدة رضي الله عنه قال : كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعتة يقول : " تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة " . قال : ثم سكت ساعة ، ثم قال : " تعلموا سورة البقرة وآل عمران ؛ فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة ، كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فرقان من طير صواف ، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك . فيقول : أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر ، وأسهرت ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة . فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ، ويوضع

على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا ، فيقولان : بما كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن . ثم يقال : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها . فهو في صعود ما دام يقرأ هَذَا كان أو ترتيلاً " .

أخرجه أيضا الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم وسكت الذهبي . وقد حسنه أيضا البغوي وللحديث شواهد كما ذكر الحافظ ابن كثير يرتقي بها للحسن .

ورواه بشير بن المهاجر قال ابن حجر : صدوق في حديث لين ا.هـ والملاحظ من أقوال الأئمة أن حديثه حسن إذا لم يخالف ولذا أخرج له مسلم في صحيحه من روايته عن ابن بريدة .

وروى أبو عبيد عن أبي أمامة قال : إن أخا لكم أري في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وعر طويل ، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان يهتفان : هل فيكم من يقرأ سورة البقرة ؟ هل فيكم من يقرأ سورة آل عمران ؟ قال : فإذا قال الرجل : نعم دنتا منه بأعناقهما حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل .

وإسناده حسن وهو رؤيا صالحة يستأنس بها .

وروى أبو عبيد أيضا عن أم الدرداء قالت : إن رجلا ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له فقتله ، وإنه أقيد منه فقتل ، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة ، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ، ثم إن آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة ، فقيل لها : ﴿ ما يبذل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ [ ق ٢٩ ] قال : فخرجت كأنها السحابة العظيمة .

قال أبو عبيد : أراه يعني : أنهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن .

وإسناده حسن وهو من قبيل المرفوع حيث لا يمكن أن يقال من جهة الرأي ولا أن يتلقى عن أهل الكتاب .

وأما ماورد في فضلها مع السبع الطول

فعن واثلة بن الأسقع ، عن النبي ﷺ قال : أعطيت السبع الطول مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وفضلت بالمفصل .

أخرجه أحمد وغيره بإسناد حسن وللحديث شواهد كثيرة يصح بها وقد صححه الألباني .

وعن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر .  
والحبر : بكسر الحاء المهملة وفتحها وسكون الباء الموحدة العالم ذميا كان مسلما .  
أخرج هذا الحديث أحمد والحاكم وغير واحد وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه  
وسكت الذهبي . وهو حديث حسن .

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾ [ الحجر ٨٧ ] ، قال  
: هي السبع الطول (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس .  
وكذا قال غير واحد من السلف والصواب أن السبع الطوال غير مراده في هذه الآية والمراد بها  
الفاتحة لثبوت الأحاديث بذلك كما تقدم في الفاتحة .

هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير في فضل سورة البقرة ونزید عليه بعض ما لم يذكره مما صح من  
الحديث ومن أراد التفصيل فليرجع إلى موسوعة فضائل سور وآيات القرآن ومن ذلك :  
عن العباس رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ يوم حنين ، ورسول الله ﷺ على بغلته التي  
أهداها له فروة الجذامي ، فلما ولى المسلمون قال لي رسول الله ﷺ : يا عباس ناد أصحاب  
الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فرجعوا كعطفة البقر على أولادها فقالوا : يا لبيك يا لبيك قال  
: فقاتلوا والكفار ، وارتفعت أصوات الأنصار وهم يقولون : يامعشر الأنصار مرتين ، ثم  
قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا : يا بني الحارث بن الخزرج ، يا بني الحارث  
بن الخزرج قال : وتناول رسول الله ص وهو على بغلته فقال : هذا حين حمي الوطيس ،  
وهو يقول : قدما قدما ياعبس وأنا آخذ بلجامه ، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرماهم  
بهم ثم قال : انهزموا ورب الكعبة - وربما قال سفيان : ورب محمد - قال : فذهبت أنظر  
فإذا القتنا لعلى هيئته فيما أرى قال : فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى  
حدهم كليلا وأمرهم مدبرا حتى هزمهم الله قال : وكأني أنظر إلى النبي ﷺ يركض خلفهم على  
بغلته

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : استعملني رسول الله ﷺ وأنا أصغر الستة  
الذين وفدوا عليه من ثقيف ، وذلك أني كنت قرأت سورة البقرة (

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : إن رجلا من بني النجار كان يكتب للنبي ﷺ وقد كان قرأ البقرة وآل عمران وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا - يعني عظم - وفي رواية ( يعد فينا عظيما ) وفي رواية (عد فينا ذو شأن ) فكان النبي ﷺ يملئ عليه غفورا رحيمًا فيكتب عليهما حكيمًا فيقول له النبي : اكتب كذا وكذا ، اكتب كيف شئت واملئ عليه عليهما حكيمًا ، فيقول : اكتب سميعًا بصيرًا فيقول : اكتب اكتب كيف شئت فارتد ذلك الرجل عن الإسلام ، فلحق بالمشركين (بأهل الكتاب ) وقال : أنا أعلمكم بمحمد إن كنت لأكتب ماشئت (فرفعوه قالوا : هذا كان يكتب لمحمد فأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم ) فمات ذلك الرجل فقال النبي ﷺ : إن الأرض لم تقبله فحفروا له فواروه ، فأصبحت الأرض قد على وجهها ، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، ثم عادوا فحفروا له فواروه ، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذا .

وعن أبي أمامة يرفعه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاثة في البقرة وآل عمران وطه .

وعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المائتين ومكان الإنجيل المثاني وفضلت بالملفصل

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : أوتي موسى الألواح وأوتيت المثاني .

وفي فضل سورة البقرة روايات أخرى لا تثبت وفيما صح الكفاية والحمد لله .

وكان خالد بن معدان رحمه الله يسميها فسطاط القرآن وورد في حديث مرفوع لا يصح وذلك لعظمتها ولما جمع فيها من الأحكام التي لم تذكر في غيرها حتى قال بعض أهل العلم إن فيها ألف أمر وألف نهي وألف خير قيل وفيها خمسة عشر مثلا ولهذا روي أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أقام ثمانين سنين على تعلمها .

ثانيا : حول السورة : اسمها ومكية أم مدنية وعدد آياتها :

اسمها المشهور سورة البقرة وثبت ذلك في عدة أحاديث وكره بعض أهل العلم أن يقال سورة البقرة لما رواه ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال (النبي ﷺ) : لا تقولوا : سورة البقرة ،

ولا سورة آل عمران ، ولا سورة النساء ، وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة ، والتي يذكر فيها آل عمران ، وكذا القرآن كله .

قال ابن كثير : هذا حديث غريب لا يصح رفعه ، وعيسى بن ميمون هذا هو (أبو) سلمة الخواص ، وهو ضعيف الرواية لا يحتج به .

قلت : رواه غير ابن مردويه أيضا وقال السيوطي : بسند ضعيف .هـ وضعفه الزيلعي والهيثمي وابن حجر وغير واحد .وقد حدث تصحيف في راويه عبيس بن ميمون في عدة مراجع فكتب عيسى بن ميمون ولذا ظنه الحافظ ابن كثير أبا سلمة الخواص وهو متروك والصواب أنه عبيس بن ميمون أبو عبيدة الخزاز كما جاء منسوباً في البيهقي في الشعب وهو ضعيف أيضا وقال البيهقي : هذا فيه عبيس بن ميمون منكر الحديث وهذا لا يصح وإنما يروي فيه عن ابن عمر من قوله . ثم رواه بسند صحيح عنه . وأتبعه بروايات تدلل على جواز ذلك وقد تقدم أحاديث مرفوعة صريحة في الجواز في فضائل هذه السورة والحمد لله رب العالمين .

وقد ثبت في الصحيحين ، عن ابن مسعود : أنه رمى الجمرة من بطن الوادي ، فجعل البيت عن يساره ، ومنى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه . وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة (جيش بني) حنيفة ، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم .

قلت : ثبت عن عروة بن الزبير أنه قال : كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة يا أصحاب سورة البقرة . وأخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهما وإسناده صحيح إليه .

وبعض أهل العلم يسميها سورة البكر لقوله تعالى فيها : لا فارض ولا بكر .

وجميعها مدنية بلا خلاف روي ذلك عن ابن عباس وتلاميذه وابن الزبير وزيد بن ثابت . وهي من أوائل ما نزل بالمدينة إلا قوله : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية فإنها مع آيات الربا من أواخر ما نزل كما ثبت في الصحيح .

وأيها مائتان وثمانون وخمس في العد الحجازي والشامي وست في الكوفي وسبع في البصري ومواقع الاختلاف في عد أيها ثلاث عشرة يراجع لها كتب عد الآي .

ثالثا : مناسبة السورة لما قبلها :

قال البقاعي : لما أخبر سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غير طريق الهالكين أرشدهم في أول التي تليها إلى أن الهدى المسئول إنما هو في هذا الكتاب وبين لهم صفات الفريقين : الممنوحين بالهداية حثا على التخلق بها ، والممنوعين منها زجرا عن قربها . فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة .  
وقال الآلوسي : ووجه مناسبتها لسورة الفاتحة أن الفاتحة مشتملة على بيان الربوبية أولا والعبودية ثانيا وطلب الهداية في المقاصد الدينية والمطالب اليقينية ثالثا وكذا سورة البقرة مشتملة على بيان معرفة الرب أولا كما في يؤمنون بالغيب وأمثاله وعلى العبادات وما يتعلق بها ثانيا وعلى طلب ما يحتاج إليه في العاجل والآجل آخرا وأيضا في آخر الفاتحة طلب الهداية وفي أول البقرة إيماء إلى ذلك بقوله : هدى للمتقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ﴾

حول الآية : عدها ومناسبتها وفضلها :

أخرج وكيع وعبد بن حميد عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه كان يعد الم آية وحم آية . وهي معدودة آية عند الكوفيين قال الناظم :

ما بدؤه حرف التهجي الكوف عد لا الوتر مع طاسين مع ذي الرا اعتمد

وقيل في مناسبتها أن هذه الحروف من المتشابه وهو من الغيب الواجب الإيمان به فناسب أن يكون الافتتاح به ليكون العبد أتم انقيادا لما دونه وذكر البقاعي بعض الروابط بين ذلك وبين ما سبقه من الفاتحة كما هو مناسب لما بعده من ذكر صفة المؤمنين وإيمانهم بالغيب .

وقال الآلوسي : لما افتتح سبحانه الفاتحة بالأمر الظاهر وكان وراء كل ظاهر باطن افتتح هذه السورة بما بطن سره وخفي إلا على من شاء الله تعالى أمره .

الفضائل :

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه وابن الضريس ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه وابو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في شعب

الإيمان عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حرفاً من كتاب الله  
فله به حسنة والحسنة بعشرة أمثالها لا تقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم  
حرف

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والدارمي وابن الضريس والطبراني ومحمد بن نصر عن  
ابن مسعود موقوفاً مثله

وأخرج محمد بن نصر وأبو جعفر النحاس في كتاب الوقف والابتداء والخطيب في تاريخه وأبو  
نصر السجزي في الإبانة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
اقرأ القرآن فإنكم تؤجرون عليه أما إني لا أقول الم حرف ولكن ألف عشر ولام عشر وميم  
عشر فتلك ثلاثون

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار والمرهبي في فضل العلم وأبو ذر الهروي وأبو نصر السجزي بسند  
ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ  
القرآن كتب الله له بكل حرف حسنة لا أقول الم ذلك الكتاب حرف ولكن الألف حرف  
والذال والألف والكاف

وأخرج محمد بن نصر والبيهقي في شعب الإيمان والسجزي عن عوف بن مالك قال قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له به حسنة لا أقول بسم  
الله ولكن باء وسين وميم ولا أقول الم ولكن الألف واللام والميم  
وأخرج محمد بن نصر السلفي في كتاب الوجيز في ذكر المجاز والمجيز عن أنس بن مالك عن  
النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له عشر حسنات  
بالباء والتاء والثاء

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف وأبو نصر السجزي عن ابن عمر قال إذا فرغ الرجل من  
حاجته ثم رجع إلى أهله ليأت المصحف فليفتحه فليقرأ فيه فإن الله سيكتب له بكل حرف  
عشر حسنات أما إني لا أقول الم ولكن الألف عشر واللام عشر والميم عشر  
وأخرج أبو جعفر النحاس في الوقف والابتداء وأبو نصر السجزي عن قيس بن سكين قال  
قال ابن مسعود تعلموا القرآن فإنه يكتب بكل حرف منه عشر حسنات ويكفر به عشر  
سيئات أما إني لا أقول الم حرف ولكن أقول ألف عشر ولام عشر وميم عشر .

قلت : من الممكن أن تقرأ : الم في هذه الآثار أو في بعضها : ألم . كما في افتتاح سورة الشرح وسورة الفيل ، فتكون أوضح في الدلالة على أجر الحرف .  
قال أبو السعود :

الم الالفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطعات المرقومة في فواتح السور الكريمة أسماء لها لاندراجها تحت حد الاسم ويشهد به ما يعترها من التعريف والتكبير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة وأما ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف وفي رواية الترمذي والدارمي لا أقول الم حرف وذلك الكتاب حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة وربما يطلق على الكلمة أيضا تجوزا فأريد بالحديث الشريف دفع توهم التجوز وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيقي ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف .

وقال الألوسي : يحكى عن الخليل أنه سأل أصحابه كيف تنطقون في الباء من ضرب والكاف من لك فقالوا باء كاف فقال إنما جئتم بالاسم لا الحرف وأنا أقول به كه .

وما روى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف فالمراد به غير المصطلح إذ هو عرف جديد بل المعنى اللغوي وهو واحد حروف المباني فمعنى ألف حرف إلخ مسمى ألف وهكذا ولعله صلى الله تعالى عليه وسلم سمى ذلك حرفا باسم مدلوله فهو معنى حقيقي له ... فإن أريد من ألم مفتتح سورة الفيل يكون المراد أيضا منه مسماه وتكون الحسنات ثلاثين وفائدة النفي دفع توهم أن يكون المراد بالحرف فيمن قرأ حرفا الكلمة وإن أريد نحو ما هنا فالمراد نفسه ويكون عدد الحسنات حينئذ تسعين .

قلت : ونستخلص من ذلك ويؤكد الروايات المذكورة لهذه الحديث أن العشر حسنة على كل حرف لا على قولك : ألف . من قوله تعالى : ألم ، بل قولك : ألف . يقابله ثلاثون حسنة ، عشر حسنة لكل حرف من حروفه الثلاث المنطوقة . والله أعلم .  
القراءات وتوجيهها :

قرأ ألم بالسكت على كل حرف من حروفها الثلاثة أبو جعفر من العشرة ووجه ذلك أنها ليست حروف المعاني بل هي مفصولة وإن اتصلت رسماً وفي كل واحد منها سر لله تعالى أو كل حرف منها كناية عن اسم الله تعالى كما يأتي في تفسيرها فهو يجري مجرى كلام مستقل وحذف واو العطف لشدة الارتباط والعلم به .  
نكتفي بهذا القدر ونستكمل في المحاضرة القادمة الآثار الواردة في هذه الآية ومذاهب أهل العلم فيها والله الموفق .

المراجع :

إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر - الدمياطي ١٦٦/١

نظم الدرر للبقاعي ٧٧-٦٨/١

تفسير أبي السعود ٢١-٢٠/١

روح المعاني ٩٩-٩٨/١

الدر المنثور ٥٦-٥٥/١

الأسئلة :

- ١ . سورة البقرة متفردة بفضائل لا يعرف مثلها لغيرها . ( صح ) .
- ٢ . تنقسم فضائل سورة البقرة إلى أربعة أقسام : فضائل لها خاصة ، وفضائل تشترك فيها وسورة آل عمران ، وفضائل تشترك فيها مع السبع الطوال ، وفضائل تشترك بها مع الفاتحة . ( خطأ ) .

- ٣- جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي يقرأ فيه سورة آل عمران لا يقربه شيطان » . ( خطأ )
٤. معنى قول النبي ﷺ : « اقرءوها على موتاكم » ، أي : على المحتضر . ( صح )
٥. البقرة مع الفاتحة تسميان الزهراوين . ( خطأ ) .
٦. جعل النبي ﷺ حافظ البقرة أميراً على سرية مع أنه كان أصغرهم . ( صح ) .
٧. معنى الزهراوين في قول النبي ﷺ : « اقرءوا الزهراوين » ، أي : الجميلتين مثل الزهور . ( خطأ ) .
٨. معنى كأنهما غيابتان في قوله ﷺ : « فإنهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غيابتان يحاجان عن أهلها » ، أي : ظلان عظيمان . ( صح ) .
٩. الملائكة نزلت على أسيد بن حضير ورآها ﷺ وهو يقرأ سورة البقرة . ( صح )
١٠. معنى ( البطلة ) في قول النبي ﷺ : « اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » ، يعني : السحرة . ( صح ) .
١١. مما قيل في معنى ( لا تستطيعها البطلة ) ، أي : لا يستطيعون حفظها . ( صح ) .
١٢. المراد بقوله تعالى : { ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم } أنها السبع الطوال . ( خطأ ) .
١٣. في الحديث الحسن : « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر » . ( صح ) .
١٤. أمر النبي ﷺ العباس يوم فر الناس يوم حنين أن ينادي : يا أصحاب سورة البقرة . ( صح ) .
١٥. سورة البقرة من السور التي تدافع عن صاحبها في القبر . ( صح ) .
١٦. معنى قول أنس ﷺ فيمن قرأ البقرة وآل عمران ( جدّ فينا ) ، أي : صار صاحب جد واجتهاد . ( خطأ ) .
١٧. ورد أن اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن وهي البقرة وآل عمران وطه ( صح )
١٨. القول بأن في سورة البقرة مائة أمر ومائة نهي ومائة خير قول صحيح معتبر ( خطأ ) .
١٩. الصحيح من أقوال أهل العلم أنه يكره أن يقول الإنسان : سورة البقرة . سورة آل عمران، وإنما يقول : السورة التي فيها البقرة ، وهكذا . ( خطأ ) .

- ٢٠- سورة البقرة من أواخر ما نزل في المدينة بدليل أن فيها : { واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله } وهي من أواخر ما نزل كما ثبت في الصحيح . ( خطأ ) .
- ٢١- مناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة أن فيها تفصيل ما جاء ذكره في الفاتحة مجملاً . (صح)
- ٢٢ - مناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة أنه بعد أن أرشد الله المؤمنين في الفاتحة إلى سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم ، جاءت سورة البقرة بالإشارة إلى الكتاب الذي فيه الهداية فقال: { ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين } ( صح ) .
- ٢٣- { الم } من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله ، فيجب الإيمان به كالإيمان بالغيب . (صح)
- ٢٤- من قرأ : { الم } فله تسعون حسنة لأن كل حرف يلفظه له عليه عشر حسنات . (صح)
- ٢٥- المقصود بالحرف الذي ينال العبد عشر حسنات بقراءته في القرآن الحرف المكتوب في القرآن لا الحرف المتلفظ به . ( خطأ ) .
- ٢٦- لم يختلف علماء العدد في عد ( الم ) آية . ( خطأ ) .
- ٢٧- لا يصح أن يوصف القرآن بأن له سناماً تكريماً له ( خطأ)
- ٢٨- من قرأ سورة البقرة في بيته ليلة لم يدخله شيطان وذلك محدد بثلاث ليال ( خطأ)
- ٢٩- ثبت أنه نزل مع كل آية من البقرة ثمانون ملكاً ( خطأ)
- ٣٠- يحصل الصراط من الجن كما يحدث من الإنس (صح)

## المحاضرة السابعة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال : هي مما استأثر الله بعلمه ، فردوا علمها إلى الله ، ولم يفسروها .

ذكره القرطبي عن أبي بكر وعلي بصيغة التمريض وذكره الرازي فقال : وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كل كتاب سر وسره في القرآن أوائل السور . وقال علي رضي الله عنه : إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي . ( مفاتيح الغيب ٣/٢ ) ولم أقف له على إسناد ولا أراه إلا موضوعا . وأما عمر وعثمان وابن مسعود فذكره القرطبي قائلا : وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر .هـ هكذا بدون إسناد ولا أراه يصح .

وقال القرطبي أيضا : قال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن والله في كل كتاب من كتبه سر فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا يجوز أن تكلم فيها ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت .هـ وليس في تفسير سفيان شيء من ذلك . أما الشعبي فقد روى ذلك عنه ابن المنذر وأبو الشيخ في التفسير من طريق داود بن أبي هند قال : كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور قال : ياداود إن لكل كتاب سرا وإن سر هذا القرآن فواتح السور فدعها وسل عما بدا لك (انظر الدر ٢٣/١) ولم أقف على بقية سنده للنظر فيه . وهذا يعارض ما صح عن الشعبي في تفسيرها وسوف يأتي . أما سفيان فلم أر من أسند ذلك عنه .

وقد ذكر ابن كثير أن القرطبي نقله عن الربيع بن خثيم وليس كما ذكر وإنما ذكر عنه أثرا في المتشابه وهو مارواه أبو بكر الأنباري بسنده عنه قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر عنه بعلم ماشاء وأطلعكم على ماشاء فأما ما استأثر به لنفسه فلستم بنائلين فلا تسألوا عنه وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به وما بكل القرآن ما تعلمون تعملون . وإسناده صحيح .

فالقول الأول لم يثبت فيه شيء عن أحد من السلف . وأخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال المتشابهات فيما بلغنا ألم والمص والمر والر

وأصحاب هذا القول اعتبروا ذلك من المتشابه المذكور في قوله : من آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .

فإن قيل : ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده به البيان والهدى ؟

قلت : إن كان مما يمكن علمه فله فوائد

منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب

ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات إذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره

وإن كان مما لا يمكن علمه فله فوائد

منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمسوخ وإن لم يجز العمل بما فيه وإقامة الحجة عليهم لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم دل على أنه نزل من عند الله وأنه الذي أعجزهم عن الوقوف على معناه .

الإتقان في علوم القرآن ٢/٥-٣٢

وقد اختاره أبو حاتم ابن حبان وكان الحافظ ابن كثير مال إليه حيث قال بعد أن ذكر الخلاف : من ههنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاما ، فقال : لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى . ومن قال من الجهلة : إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية ، فقد أخطأ خطأ كبيرا ، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا عن المعصوم فيها شيء قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا ، وقلنا : ﴿ آمنة به كل من عند ربنا ﴾ [ آل عمران ٧ ] . ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين ، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقف حتى يتبين .

القول الثاني : هي اسم من أسماء الله تعالى ، وألفاظ الروايات تحتل أن الاسم يتكون من حروفها أو أن كل حرف منها يشير لاسم من الأسماء أو أنها يركب منها اسم الله الأعظم :  
ثبت ذلك عن ابن عباس وعن ابن مسعود :

رواه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس : هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى . وإسناده حسن .

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس : الم ، قال : أنا الله أعلم . وفي إسناده عطاء بن السائب ويشهد له بقية الطرق .

ورواه ابن جرير عن شعبة قال : سألت السدي عن حم وطس والم . فقال : قال ابن عباس : هي اسم الله الأعظم . وهو منقطع .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق سعيد بن جبير عنه قال : الم ، حم ، ن قال : اسم مقطوع وأخرج ابن مردويه عنه قال : فواتح السور كلها من أسماء الله تعالى  
ورواه ابن جرير عن مرة الهمداني قال : قال عبد الله : ... فذكر نحوه . وإسناده جيد .

وقال السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿الم﴾ . قال : (أما) ﴿الم﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء اسم الله تعالى . وهو إسناد فيه خلط وبالنسبة لابن عباس وابن مسعود فقد مر ما يشهد له .

وحكي عن علي :

فقال الرازي : روي عن علي عليه السلام أنه كان يقول يا "كهيعص" ، يا حم عسق"  
قلت أخرج ابن جرير وابن ماجه في تفسيره عن فاطمة بنت علي قالت كان علي يقول :  
يا كهيعص اغفر لي . وإسناده ضعيف

وقد سبق النقل عن علي أنه كان لا يفسرها ولا يصح أيضا .

وكذا رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير وإسناده ضعيف .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله حم قال جاء اشتقت من الرحمن وميم اشتقت من الرحيم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله كهيعص قال يا من يجير ولا يجار عليه

وأخرج عن أشهب قال سألت مالك بن أنس أينبغي لأحد أن يتسمى ب يس فقال ما أراه ينبغي لقول الله يس والقرآن الحكيم يقول هذا اسم تسميت به .  
وقال الشعبي : فواتح السور من أسماء الله تعالى أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وهو صحيح وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال الر من الرحمن وأخرج عنه أيضا قال المص الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد وأخرج عن محمد بن كعب في قوله حم عسق قال الحاء والميم من الرحمن والعين من العليم والسين من القدوس والقاف من القاهر  
( الدر المنثور ٢٢/١ ، مفاتيح الغيب ٥/٢ )

القول الثالث : هو قسم أقسم الله به :  
تقدم في رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقد جمع فيه بين كونه من أسماء الله وبين كونه قسما ولا يمتنع ذلك .  
وروى ابن أبي حاتم ، وابن جرير عن عكرمة أنه قال : الم قسم . وإسناده صحيح .

القول الرابع : أسماء للسور :  
قال ابن كثير : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما هي أسماء السور .  
قلت : أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح عنه رواية عن أبيه عندما سئل عنها وليس قولاً عنه مجرداً . وروايته عن أبيه ضعيفة .  
وقال العلامة الزمخشري في تفسيره : وعليه إطباق الأكثر ، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه .  
الكشاف ٨٣/١ .

قال ابن كثير : ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ، الم السجدة وهل أتى على الإنسان .  
قلت : وهذا ليس بمتجه فإنه سمي سورة الإنسان بجزء من أول آياتها ولم يقل أحد بأن ذلك اسم للسورة كما أنه قال الم السجدة ولم يجتزئ بالحروف فقط للاشتباه .

وعن مجاهد أنه قال : الم وحم والمص ووص ؛ فواتح افتتح الله بها . أخرجه ابن جرير وإسناده صحيح .

وفي رواية عنه أنه قال : الم اسم من أسماء القرآن . وإسناده صحيح أيضا .  
وهكذا قال قتادة

قال ابن كثير : ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنه اسم من أسماء السور فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن ، فإنه يبعد أن يكون المص اسما للقرآن كله ، لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول : قرأت المص ، إنما ذلك عبارة (عن) سورة الأعراف ، لا لمجموع القرآن والله أعلم .

القول الخامس : هي للدلالة على مدة :

فالعرب لهم حساب يسمى حساب الجمل وذلك أنهم يحسبون كل حرف من حروف أبي جاد بما يقابله من العدد ابتداء من واحد إلى عشرة ثم عشرين إلى مائة ثم مائتين إلخ فمن أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ، ك ل م ن ص ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ وهكذا .

فروى محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي قال حدثني الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله بن رباب قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ فأتى أخاه حبي بن أخطب في رجال من اليهود ، فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله عليه ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ فقال : أنت سمعته ؟ . قال : نعم . قال : فمشى حبي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ فقال رسول الله ﷺ : بلى . فقالوا : جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ فقال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين نبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك . فقال حبي بن أخطب \_ وأقبل على من كان معه \_ فقال لهم : الألف واحدة ، واللام ثلاثون . والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول

الله ﷻ ، فقال : يا محمد هل مع هذا غيره ؟ فقال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : المص . قال : هذا أثقل وأطول الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد ستون ، فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة . هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : الر . قال : هذا أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مئتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة . فهل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم . المر . قال : فهذه أثقل وأطول الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتان ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندري أقلبها أعطيت أم كثيرا . ثم قال : قوموا عنه ثم قال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ، ولن معه من الأحبار : ما يدريكم ؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع سنين فقالوا : لقد تشابه علينا أمره ، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ [ آل عمران ٧ ] .

هكذا ذكره ابن كثير بعد أن قال : وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف ، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته .

ثم قال عقبه : فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي ، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحا أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها ، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة ، وإن حسبت مع التكرار فأطم وأعظم ، والله أعلم .

قال السيوطي : وقد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى الم غلبت الروم أن البيت المقدس تفتحه المسلمون في سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة ووقع كما قاله وقال السهيلي : لعل عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة .

قال ابن حجر : وهذا باطل لا يعتمد عليه فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه الزجر عن عد أبي جاد والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فإنه لا أصل له في الشريعة .

وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي في فوائده رحلته ومن الباطل علم الحروف المقطعة في أوائل السور . هكذا نقل السيوطي .

قلت : الحديث المذكور أخرجه ابن إسحاق في السيرة وضعفه السيوطي أيضا من هذه الطريق . وقول الحافظ ابن كثير مداره على محمد بن السائب وهو ممن لا يحتج بما انفرد به منتقض بروايته من طريق أخرى في مغازي يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وجابر بن رثاب به نحوه وهذا إسناد حسن فصلت القول فيه في صحيح السيرة وله شاهد عن ابن جريج مرسلا أخرجه ابن المنذر في تفسيره .

ولا مانع من ذلك شرعا أو عقلا إلا أن الحديث لا دلالة فيه على معنى الحروف المقطعة وإنما ذلك فهم فهمه اليهود من عند أنفسهم ربما كان صحيحا وربما كان خطأ والله أعلم .  
(الإصابة ٤٤/٢ ، الدر المنثور ٥/٢ ، ٢٣/١ ، ١٣/٢ ، صحيح السيرة ٤١/١ - ٤٢)

القول السادس : هجاء موضوع ، وأظنه يعود إلى أنه من المتشابه لا يعلم معناه فهو كمن فسر الماء بالماء :

عن مجاهد أنه قال : فواتح السور كلها ق و ص و حم و طسم و الر وغير ذلك هجاء موضوع . أخرجه ابن جرير وإسناده ضعيف . وقد تقدم عن مجاهد غير هذا القول بسند صحيح .

قال ابن كثير : وقال بعض أهل العربية : هي حروف من حروف المعجم ، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها ، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفا ، كما يقول القائل : ابني يكتب في ا ب ت ث أي : في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير .

قال ابن كثير : مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا ، وهي ال م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهي نصف الحروف عددا والمذكور منها أشرف من المتروك ، وبيان ذلك من صناعة التصريف .

قال الزمخشري : وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ، ومن المستعلية والمنخفضة ، ومن حروف القلقة . وقد سردتها مفصلة ، ثم قال : فسبحان الذي دقت في كل شيء حكيمته ، وهذه الأجناس معدودة مكثورة بالمذكورة منها ، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله .

قلت : هذه بعض صفات الحروف والهمس ضده الجهر والرخاوة ضدها الشدة والإطباق ضده الانفتاح والاستعلاء ضده الاستفال وأما القلقة فلا ضد لها .

القول السابع : قول جامع :

عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿الم﴾ ، قال : هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آياته وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم . قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب ، فقال : وأعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه ، فكيف يكفرون به ؟ فالألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد ، فالألف آلاء الله ، واللام لطف الله ، والميم مجد الله . فالألف سنة ، واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة .

رواه ابن أبي حاتم وإسناده حسن وما رواه عن عيسى عليه السلام يبدو أنه أخذه من بعض أهل الكتاب وهو غريب وفيه ركافة .

قال ابن كثير بعد أن عزاه لابن جرير وليس فيه عن أبي العالية وإنما عن الربيع بن أنس : ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ، ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين واحد منها وبين الآخر ، وأن الجمع ممكن ، فهي أسماء للسور ، ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور ، فكل حرف

منها دل على اسم من أسمائه ، وصفة من صفاته كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه . قال : ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله ، وعلى صفة من صفاته ، وعلى مدة وغير ذلك ، (كما ذكره) الربيع بن أنس عن أبي العالية ، لأن الكلمة الواحدة تطلق على معاني كثيرة ، كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين ، كقوله : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [ الزخرف ٢٣، ٢٢ ] وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ [ النحل ١٢٠ ] وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله : ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ [ القصص ٢٣ ] وقوله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴾ [ النحل ٣٦ ] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله : ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾ [ يوسف : ٤٥ ] أي بعد حين على أصح القولين قال : فكذلك هذا .

هذا حاصل كلامه موجّهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية ، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا وعلى هذا وعلى هذا معا ، ولفظة الأمة وما أشبهه من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح ، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام ، فأما حملة على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم . ثم إن لفظ الأمة يدل على كل من معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع ، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف ، والمسألة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به .

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر :

قلنا لها : قفي فقالت : قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

تعني : وَقَفْتُ .

وقال الآخر :

ما للظلم عال كيف لا يا ينقد عنه جلده إذا يا

قال ابن جرير : كأنه أراد أن يقول : إذا يفعل كذا وكذا ، فاكتفى بالياء من يفعل ،

وقال الآخر :

بالخير خيرات وإن شرا فا ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول : وإن شرا فشر ، ولا أريد الشر إلا أن تشاء ، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم .

قال القرطبي : وفي الحديث : من أعان على قتل مسلم بشرط كلمة ... الحديث . قال شقيق: هو أن يقول في اقتل : اق .

ويعرض لنا سؤال وهو بغض النظر عن معاني هذه الحروف ما هي الحكمة من إيرادها غير ما قدمناه في حكمة المتشابه ؟

قال بعضهم : إنما ذكرت لنعرف بها أوائل السور . حكاه ابن جرير .

قال ابن كثير : وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه ، وفيما ذكرت فيه البسمة تلاوة وكتابة .

وقال آخرون : بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماء المشركين ، إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن ، حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه . حكاه ابن جرير أيضا

قال ابن كثير : وهو ضعيف أيضا لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها ، بل غالبها ليس كذلك ، ولو كان كذلك أيضا لانبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم ، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك . ثم إن هذه السورة والتي تليها \_ أعني البقرة وآل عمران \_ مدنيتان ليستا خطابا للمشركين فانتقض ما ذكره بهذه الوجوه .

وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله . هذا مع أنه ركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها .

قال ابن كثير : وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد ، وجمع من المحققين . وحكى القرطبي عن الفراء ، وقطرب نحو هذا . وقرره الزمخشري في كتابه ونصره أتم نصر وإليه ذهب الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية ، وشيخنا الحافظ الجههذ الإمام أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن أبي العباس .

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيك ، كما كررت قصص كثيرة ، وكرر التحدي بالصريح في أماكن .  
قال : وجاء منها على حرف واحد كقوله : ص ، ن ، ق . وحرفين : مثل حم . وثلاثة :  
مثل الم . وأربعة مثل : المر ، المص . وخمسة مثل : كهعيص ، حم عسق ، لأن تركيب  
كلامهم على هذا ؛ من الكلمات ماهو على حرف ، وعلى حرفين ، وعلى ثلاثة ، وعلى  
أربعة ، وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .)

قال ابن كثير : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان  
إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع ولهذا يقول تعالى : ﴿ الم ذلك  
الكتاب لا ريب فيه ﴾ [ البقرة ١،٢ ] . ﴿ الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك  
الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ﴾ [ آل عمران ١-٣ ] . ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلا  
يكن في صدرك حرج منه ﴾ [ الأعراف ١،٢ ] ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من  
الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ [ إبراهيم ١ ] ﴿ الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب  
العالمين ﴾ [ السجدة ١،٢ ] . ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ [ فصلت ١،٢ ] ﴿ حم .  
عسق . كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ [ الشورى ١-٣ ] ،  
وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر ، والله أعلم .  
وقال غيره : لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر  
ذلك على النبي ﷺ بل تلى عليهم حم فصلت و ص وغيرها فلم ينكروا ذلك بل  
صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم إلى عثره وغيرها وحرصهم على زلة فدل  
على أنه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار فيه .

وقيل وهي تنبيهات كما في النداء عده ابن عطية مغايراً للقول بأنها فواتح والظاهر أنه بمعناه  
وقال بعضهم : القول بأنها تنبيهات جيد لأن القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة فينبغي أن يرد  
على سمع متنبه فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي صلى الله  
عليه وسلم في عالم البشر مشغولاً فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله الم و الر و حم  
ليسمع النبي صوت جبريل فيقبل عليه ويصغي إليه .

قال وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألا وأما لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع سمعه

وقيل إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سببا لاستماعهم واستماعهم له سببا لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفئدة

وقيل هي أمارة جعلها الله لأهل الكتاب إنه سينزل على محمد كتابا في أول سور منه حروف مقطعة .

وقد أطال الألوسي في ذكر كثير من الغرائب حول هذه الحروف ولا نطيل بذكر شيء منها لعدم اعتبارها في الحقيقة .

(الإتقان في علوم القرآن ٧/٢-٢٩ ، تفسير أبي السعود ٢٠/١-٢٢ ، روح المعاني ١/٩٨-١٠٥)

#### الأسئلة :

١. اختلف المفسرون في الحروف المقطعة في أوائل السور والمراد منها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد . ( صح )
٢. قيل في الحروف المقطعة إنها مما استأثر الله بعلمه ، وهو المشهور عن الصحابة والتابعين بالأسانيد الصحيحة . ( خطأ ) .
٣. لم يثبت عن السلف شيء في أن الحروف المقطعة في أوائل السور سر من أسرار القرآن . ( صح ) .
٤. من حكم ذكر المتشابه في القرآن حث العلماء على النظر في معناه والبحث عن دقائقه . ( صح ) .
٥. من حكم ذكر المتشابه في القرآن أن يستوي الناس في معرفة معاني القرآن ( خطأ ) .
٦. من حكم ذكر المتشابه في القرآن ابتلاء العباد بالتوقف فيه والتعبد بمجرد تلاوته ( صح )

٧. من حكم ذكر المتشابه الذي لا يعلم معناه ظهور عجز الناس والتدليل على أنه من عند الله . ( صح ) .
٨. الصحيح أن الحروف المقطعة لم ينزلها الله عبثاً ولا سدى بل لها معنى ولا بد ، فمن ظهر له شيء من ذلك بدليل فعليه اتباعه وإلا فالتوقف وعدم الخوض بغير علم هو الواجب . ( صح ) .
٩. ثبت عن بعض الصحابة أن الحروف المقطعة تدل على أسماء لله تعالى ( صح ) .
١٠. الحروف المقطعة فيها اسم الله الأعظم كما ثبت عن ابن عباس ( خطأ ) .
١١. قيل إن الحروف المقطعة قسم أقسم الله به كما ثبت ذلك عن ابن عباس وغيره ( صح )
١٢. قيل إن الحروف المقطعة أسماء للسور التي افتتحت بها ( صح ) .
١٣. الاستدلال على أن الحروف المقطعة هي أسماء للسور بما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ( الم السجدة ) و ( هل أتى على الإنسان ) استدلال في محله . ( خطأ ) .
١٤. الحروف المقطعة أسماء للقرآن ككل ، ورجح ذلك ابن كثير ( خطأ ) .
١٥. الحروف المقطعة تدل على مدد معينة على أساس حساب الجمل عند العرب عند البعض ( صح ) .
١٦. الدليل على أن الحروف المقطعة هي حسابات مدد معينة الحديث الذي فيه قصة أبي ياسر اليهودي ( خطأ ) .
١٧. صحح ابن كثير في تفسيره قصة أبي ياسر في الحروف المقطعة وحساب الجمل وصحح الاستدلال بها ( خطأ ) .
١٨. القول بأن عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر منها للإشارة إلى مدة بقاء هذه المدة قول قوي معتبر ( خطأ ) .
١٩. حديث أبي ياسر اليهودي لا دلالة فيه على معنى الحروف المقطعة وإنما ذلك فهم فهمه اليهود من عند أنفسهم ربما كان صحيحاً وربما كان خطأ ( صح ) .
٢٠. حديث قصة أبي ياسر بن أخطب في استدلال اليهود بالحروف المقطعة على مدة الأمة حديث حسن ( صح ) .

- ٢١ . الحروف المقطعة في أوائل السور عددها ستة عشر حرفاً مشتملة على جميع أصناف وأجناس الحروف ( صح ) .
- ٢٢ . الدليل على أن الحروف المقطعة في أوائل السور لا يعرف معناها اختلاف العلماء في ذلك وعدم اتفاقهم على قول واحد فيها . ( خطأ ) .
- ٢٣ . الصحيح أنه لا تعارض بين الأقوال الواردة في الحروف المقطعة وأنه يمكن الجمع بينها . ( صح ) .
- ٢٤ . الحكمة في افتتاح السور بالحروف المقطعة أن يعرف بها أوائل السور وهو الصحيح ( خطأ ) .
- ٢٥ . الحكمة في الحروف المقطعة إظهار إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف التي يعرفونها ، وهو قول كثير من المحققين وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ( صح ) .
- ٢٦ . وزعت الحروف المقطعة في سور متعددة ولم تجمع في أول القرآن ليكون ذلك أبلغ في التحدي ( صح ) .
- ٢٧ . كل سورة افتتحت بالحروف المقطعة فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء ( صح ) .
- ٢٨ . عدم إنكار المشركين على النبي ﷺ في هذه الحروف دليل على أنهم لم يفهموا المراد منها وأنه ليس لها مدلول تدل عليه ( خطأ ) .
- ٢٩ . القول بأن الحكمة من الحروف المقطعة أن يتعجب العرب منها فيكون ذلك سبباً لاستماعهم القرآن ، قول مرجوح ( صح ) .
- ٣٠ . الحروف المقطعة تدل على كل ما قيل فيها في نفس الوقت لأن الكلمة الواحدة تطلق على معاني كثيرة ، كلفظة الأمة ( خطأ ) .

## المحاضرة الثامنة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فموعدنا اليوم مع تفسير الآية رقم ٢ من سورة البقرة قال تعالى :

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾

هذه الآية هي أول آيات وصف المؤمنين كما روى غير واحد بإسناد صحيح عن مجاهد قال من أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتان في نعت الكافرين وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين ومن أربعين آية إلى عشرين ومائة في بني إسرائيل .

فضائلها :

وقد روي في فضل هذه الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة أحاديث لا يثبت منها شيء وأحسنها حالا ما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند والحاكم والبيهقي في الدعوات عن أبي بن كعب قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال يا نبي الله إن لي أخا وبه وجع قال وما وجعه قال به لم قال فائتني به فوضعه بين فعوده النبي صلى الله عليه وسلم بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين ﴿والهكم إله واحد﴾ البقرة الآية ١٦٣ وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ آل عمران ١٨ وآية من الأعراف ﴿إن ربكم الله الأعراف﴾ الآية ٥٤ وآخر سورة المؤمنين ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ المؤمنون الآية ١١٦ وآية من سورة الجن ﴿وأنه تعالى حد ربنا﴾ الجن الآية ٣ وعشر آيات من أول الصفات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك قط .

وفي إسناده أبو جناب الكلبي ضعفه لكثرة تدليسه .

وما أخرجه الدارمي وابن الضريس والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن مسعود قال من قرأ عشر من سورة البقرة أول النهار لا يقربه شيطان حتى يمسي وإن قرأها

حين يمسي لم يقربه حتى يصبح ولا يرى شيئاً يكرهه في أهله وماله وإن قرأها على مجنون أفاق  
أربع آيات من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها .  
أخرجوه من طريق الشعبي عن عبد الله به وهو في حكم المرفوع وإسناده ضعيف لانقطاعه  
فإن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود .

وأخرج سعيد بن منصور والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان عن المغيرة بن سميع وكان من  
أصحاب عبد الله قال من قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه لم ينس القرآن أربع آيات من  
أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث من آخرها  
وهو في حكم المرسل فهو ضعيف  
القراءات وتوجيهها :

قرأ عبد الله الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه  
وقرأ أبو الشعثاء وزيد بن علي لا ريب فيه بالتنوين مرفوعاً والمراد استغراق النفي أيضاً كما في  
قراءة الجمهور وذلك من جهة دلالة المعنى لا من جهة اللفظ لأن اللفظ يحتمل العموم  
ويحتمل نفي الوحدة .

وقرأ الحسن لا ريباً فيه على تقدير فعل أي لا أجد ريباً .  
وقرأ الزهري وابن محيصن وعبيد بن عمير وغيرهم فيه بضم الهاء على أصل حركتها .  
وقرأها كذلك ابن أبي إسحق إلا أنه وصلها بواو .  
وروي عن أبي عمرو إدغام باء لا ريب في فاء فيه . لتقارب مخرج الحرفين .  
وكل هذه شواذ لا يقرأ بها .

وجاء مد التبرئة في قوله لا ريب عن حمزة بالتوسط في المد لا الإشباع .  
وأدغم أبو عمرو الهاء من قوله فيه في هاء هدى .  
ووصل ابن كثير هاء فيه بياء لفظية .

والوقف على فيه هو المشهور وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على لا ريب ولا بد للواقف  
من أن ينوي خبراً ونظيره قوله تعالى قالوا لا ضير . وقول العرب لا بأس وهي كثيرة في لسان  
أهل الحجاز والتقدير لا ريب فيه

ومن القراء من يقف على قوله تعالى ﴿ لا ريب ﴾ ويتدئ بقوله تعالى ﴿ فيه هدى للمتقين ﴾ والوقف على قوله تعالى ﴿ لا ريب فيه ﴾ أولى لأنه يصير قوله تعالى ﴿ هدى ﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى

مناسبتها

أما مناسبة هذه الآية باعتبارها من صدر سورة البقرة لما سبقها من سورة الفاتحة فقد ذكر أبو جعفر ابن الزبير أن قوله ذلك إشارة إلى الصراط الذي في قوله اهدنا الصراط المستقيم كأنهم لما سألوا الهداية إليه كأنه قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب وقال أبو حيان : هو أولى . يعني في معنى الإشارة في قوله ذلك .

قلت : لا يستقيم هذا لأن سورة البقرة لم تنزل بعد الفاتحة مباشرة وإنما بعدها بسنوات طوال . ولكنه يبقى وجهها للربط بين السورتين في الترتيب . وقد قدمنا نحو ذلك فيما سبق .

وأما وجه ارتباطها بالآية قبلها فقال الزمخشري : فإن قلت لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد قلت وقعت الإشارة إلى الم بعد ما سبق التكلم به وتقضى والمقضى في حكم المتباعد وهذا في كل كلام يحدث الرجل بحديث ثم يقول وذلك ما لا شك فيه ويحسب الحاسب ثم يقول فذلك كذا وكذا

وقال الله تعالى لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك البقرة ٦٨ وقال ذلكما مما علمني ربي يوسف ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حد البعد كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئا احتفظ بذلك .

وقال البقاعي : لما كان معنى الم هذا كتاب من جنس حروفكم التي فقتم في التكلم بها سائر الخلق فما عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله إلا لأنه كلام الله أنتج ذلك كماله فأشير إليه بأداة البعد ولام الكمال في قوله ذلك الكتاب لعلو مقداره بجلالة آثاره وبعد رتبته عن نيل المطرودين .

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

﴿ذلك﴾ بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمي الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم وقد حكاه البخاري عن أبي عبيدة وقيل معناه ذلك الكتاب الذي وعدوا به .  
قال الزمخشري :

فإن قلت لم ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة ؟  
قلت : لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته  
فإن جعلته خبره كان ذلك في معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير كما أجرى عليه في التأنيث في قولهم من كانت أمك  
وإن جعلته صفته فإنما أشير به إلى الكتاب صريحا لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له تقول : هند ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا  
وقال الذبياني :

نبئت نعمى على الهجران عاتبة سقيا ورعيا لذاك العاتب الزاري

فإن قلت : أخبرني عن تأليف ذلك الكتاب مع الم .  
قلت : إن جعلت الم اسما للسورة ففي التأليف وجوه أن يكون الم مبتدأ و ذلك مبتدأ ثانيا و الكتاب خبره والجملة خبر المبتدأ الأول  
ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا كما تقول هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال وكما قال  
هم القوم كل القوم يا أم خالد  
وأن يكون الكتاب صفة ومعناه هو ذلك الكتاب الموعود  
وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف أي هذه الم ويكون ذلك خبرا ثانيا أو بدلا على أن الكتاب صفة وان يكون هذه الم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى

وإن جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل أو الكتاب صفة والخبر ما بعده أو قدر مبتدأ محذوف أي هو يعني المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب ١.هـ

والريب الشك وقال ابن أبي حاتم : لا أعلم في هذا خلافا وقد يستعمل الريب في التهمة . كما قال جميل :

بثينة قالت يا جميل أرتني فقلت كالانا يابثين مُريب

ويستعمل أيضا في الحاجة كما قال بعضهم :

قضينا من تهماة كل ريب وخير ثم أجمنا السيوفا

وأخرج الطستي في مسائل ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل لا ريب فيه قال لا شك فيه قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت ابن الزبير وهو يقول :

ليس في الحق يا أمامة ريب إنما الريب ما يقول الكذوب .

وهذه الرواية لا تصح سنداً لكن الشاهد اللغوي هو المراد هنا .

والريب مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها ومنه ما روى الحسن بن علي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة

أي فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن

ومنه ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه

قال الزمخشري :

فإن قلت فهلا قدم الظرف على الريب كما قدم على الغول في قوله تعالى : لا فيها غول ؟

قلت : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه .

ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أن كتابا آخر فيه الريب فيه كما قصد في قوله لا فيها غول تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة .

والمتقون جمع متقي : وهو في اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة ومنه فرس واق

وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك ومحل هدى للمتقين الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لذلك أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبرا عنه

ويجوز أن ينصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف وأصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

الهدى : مصدر على فعل كالسرى والبكى وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلالة في مقابلته قال الله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى البقرة ٢٤ وقال تعالى لعلى هدى أو في ضلال مبين سبأ ٢٤

وهدى يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعا على النعت ومنصوبا على الحال . قال الزمخشري :

والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يقال إن قوله

الم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و ذلك الكتاب جملة ثانية

و لا ريب فيه ثالثة

و هدى للمتقين رابعة

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لجيئها متأخية آخذا بعضها بعنق بعض

فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة  
بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية  
الكمال فكان تقريرا لجهة التحدي وشدا من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبه به طرف من  
الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ولا نقص أنقص  
مما للباطل والشبهة

وقيل لبعض العلماء فيم لذلك فقال في حجة تبختر اتضاحا وفي شبهة تتضاءل افتضاحا  
ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه  
الباطل من بين يديه ولا من خلفه  
ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتب هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السري  
من نكتة ذات جزالة

ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشفه  
وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة  
وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف  
وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده  
منكرا والإيجاز في ذكر المتقين .

الأحاديث والآثار :

وقد جاء في تفسير هذه الآية بعض الأحاديث والآثار ومن ذلك :  
عن معاذ بن جبل قال يجبس الناس يوم القيامة بقيع واحد فينادي مناد أين المتقون فيقومون  
في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر قيل من المتقون قال قوم اتقوا الشرك عبادة  
الأوثان واخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة .

رواه ابن أبي حاتم وهذا قد يعطى حكم المرفوع وفي إسناده أبو حمزة ميمون الأعور وهو  
ضعيف

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن أبي حاتم  
والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي وكان من الصحابة قال قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم لا يبلغ العبد المؤمن أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به  
حذرا لما به بأس

وهذا في إسناده عبد الله بن يزيد الدمشقي قال الحافظ ابن حجر : ضعيف . والحديث قال  
فيه الألباني : ضعيف . ولكن له شاهدان موقوفان بهما يرتقي للحسن أحدهما عن ابن عمر  
علقه البخاري مجزوما به والآخر عن أبي الدرداء عند أحمد في الزهد وغيره .

عن ابن مسعود : لا ريب لا شك فيه

عن ابن عباس في قوله ذلك الكتاب قال هذا الكتاب  
عن عكرمة مثله

عن ابن عباس في قوله لا ريب فيه قال لا شك فيه

عن أبي الدرداء قال الريب الشك من الكفر

عن قتادة في قوله لا ريب فيه قال لا شك فيه

عن مجاهد مثله

عن الشعبي في قوله هدى قال من الضلالة

عن ابن مسعود في قوله هدى قال نور للمتقين قال هم المؤمنون

عن ابن عباس في قوله هدى للمتقين أي الذين يحدرون من أمر الله عقوبته في ترك ما  
يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق بما جاء منه

عن ابن عباس في قوله هدى للمتقين قال للمؤمنين الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعتي

عن قتادة في قوله هدى للمتقين قال جعله الله هدى وضياء لمن صدق به ونور للمتقين

وقال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة الآية  
والتي بعدها

عن أبي هريرة أن رجلا قال له ما التقوى قال هل أخذت طريقا ذا شوك قال نعم قال فكيف

صنعت قال إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه قال ذاك التقوى

عن طلق بن حبيب أنه قيل له ألا تجمع لنا التقوى في كلام يسير يروونه قال التقوى العمل

بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله مخافة

عذاب الله

عن أبي الدرداء قال تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الحرام  
عن الحسن قال ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام  
عن سفيان الثوري قال إنما سمو المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى  
عن عبد الله بن المبارك قال لو أن رجلا اتقى مائة شيء ولم يتق شيئا واحدا لم يكن من المتقين

عن عون بن عبد الله قال تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم تعلم منها إلى ما قد علمت منها  
عن وهب بن كيسان قال كتب رجل إلى عبد الله بن الزبير بموعظة  
أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم من صبر على البلاء  
ورضى بالقضاء وشكر النعماء وذل لحكم القرآن  
عن ابن المبارك قال قال داود لابنه سليمان عليه السلام يا بني إنما تستدل على تقوى الرجل  
بثلاثة أشياء لحسن توكله على الله فيما نابه ولحسن رضاه فيما أتاه ولحسن زهده فيما فاته  
عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال بلغنا أن رجلا جاء إلى عيسى فقال يا معلم الخير كيف  
أكون تقيا لله كما ينبغي له قال ييسر من الأمر تحب الله بقلبك كله وتعمل بكدحك  
وقوتك ما استطعت وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك قال من ابن جنسي يا معلم الخير  
قال ولد آدم كلهم وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقى لله حقا  
عن عمر بن عبد العزيز قال ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين  
ذلك ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير  
إلى خير

عن ميمون بن مهران قال لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة  
شريكه حتى تعلم من أين مطعمه ومن أين ملبسه ومن أين مشربه أمن حل ذلك أو من حرام

أقوال المفسرين في معناها

قال الزمخشري ذلك إشارة إلى الم كما قال تعالى لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك وقال تعالى ذلكم حكم الله يحكم بينكم وقال ذلكم الله وأمثال ذلك مما أشير به إلى ما تقدم ذكره والله أعلم .

وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبي وغيره أن ذلك إشارة إلى القرآن الذي وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بإنزاله عليه أو التوراة أو الإنجيل أو نحو ذلك في أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم

و الكتاب القرآن ومن قال إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعده النجعة وأغرق في النزاع وتكلف ما لا علم له به ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى في السجدة الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النهي أي لا ترتابوا فيه

وخصت الهداية للمتقين كما قال قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنعمة بالقرآن لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين واختار ابن جرير أن الآية تعم ماجاء في الآثار في وصف المتقين كله وهو ما أقره عليه ابن كثير أيضا

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى إنك لا تهدي من أحببت وقال ليس عليك هداهم وقال من يضل الله فلا هادي له وقال من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا إلى غير ذلك من الآيات ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والارشاد إليه قال الله تعالى وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم وقال إنما أنت منذر ولكل

قوم هاد وقال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقال وهديناه النجدين على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح والله أعلم ونقل القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقا ذا شوك قال بلى قال فما عملت قال شممت واجتهدت قال فذلك التقوى . ويبدو أن هذا النقل فيه وهم وإنما المروي في الزهد الكبير للبيهقي عن أبي صالح قال : قال لرجل لأبي هريرة فالتقوى ..... الخ فذكر نحوه . وقد تقدم في الآثار وفي إسناده هشام بن زياد وهو متروك .

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال  
خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى  
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى  
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى  
والأحاديث والآثار وأقوال العلماء في فضل التقوى كثيرة ولا علاقة لها بتفسير الآية ولذا لا نطيل بذكرها .

#### المعنى الإجمالي

والخلاصة أن المراد بالآية التنويه بعظم القرآن وتنزيهه عن أن يكون مظنة للارتباب والشك فيما احتواه وأنه كله يهدي ويرشد إلى سلوك طريق الخير والصلاح وتجنب طريق الشر والزيغ والضلال .

#### الأحكام المستنبطة أو مسائل :

أولا : كيف نفى الريب عن الكتاب على سبيل الاستغراق وكم من مراتب فيه ؟  
الجواب : لم ينف في الآية أن أحدا يرتاب فيه وإنما المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه ألا ترى إلى قوله تعالى وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله البقرة ٢٣ فما أبعد وجود الريب منهم وإنما عرفهم الطريق الى مزيل الريب وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة هل

تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة .

ثانيا : كيف قال الله هدى للمتقين ؟ فيه إشكالان : أن المتقين مهتدون أصلا فكيف يكون هدى لهم؟ الثاني : هل معنى ذلك أن الضال لا يهتدي بالقرآن ؟ كيف ذلك وكل من آمن به كان ضالا قبل الإيمان ؟

فالجواب على الأول أن المراد أنه سبب في استدامتهم على الهدى وهذا كثير كما في قوله يا أيها النبي اتق الله وكما في قوله يا أيها الذين آمنوا آمنوا ونحو ذلك .

ويجاب على الأول أيضا وعلى الثاني معه بأنه سماهم الله عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين لا أنهم صاروا متقين فعلا يعني سماهم بما يؤولون إليه كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا فله سلبه وعن ابن عباس إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة وتكون الحاجة فسمى المشارف للقتل والمرض والضلال قتيلا ومريضا وضالا ومنه قوله تعالى ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا نوح ٢٧ أي صائرا إلى الفجور والكفر فإن قلت فهلا قيل هدى للضالين قلت لأن الضالين فريقان فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريق الباقيين على الضلالة فبقي أن يكون هدى لهؤلاء فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقيل هدى للمتقين .

مسألة : واختلف في الصغائر هل يتناول اسم المتقي تجنبها ؟ وقيل الصحيح أنه لا يتناولها لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر

وقيل يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر .

ونكتفي بهذا القدر في هذه الآية والله الموفق .

## الأسئلة :

١. أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتان في الكافرين وثلاث عشرة في المنافقين ، وهذا يدل على أن النفاق الاعتقادي أخطر من الكفر الظاهر . ( صح ) .
٢. ورد في أول آيات سورة البقرة أحاديث صحيحة تدل على فضلها وأن من قرأها يعصمه الله من الشيطان والسحر ( خطأ ) .
٣. ثبت عن ابن مسعود أن من قرأ عشر آيات من أوائل سورة البقرة على مجنون أفاق ( خطأ )
٤. قرأ الجمهور ( لا ريب ) بالفتح ، والمعنى استغراق النفي لجميع أفرادهِ ( صح ) .
٥. لا يستقيم أن الإشارة بقوله ( ذلك ) في أول البقرة إشارة إلى الصراط المذكور في سورة الفاتحة لأن سورة البقرة لم تنزل بعد الفاتحة مباشرة وإنما بعدها بسنوات طوال ( صح ) .
٦. ذلك الكتاب بمعنى هذا الكتاب والعرب تعارض بين اسمي الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر ( صح ) .
٧. القراءات المتواترة في كلمة ( ريب ) ثلاثة : بالفتح ، وبالتنوين بالضم ، وبالتنوين بالنصب . ( خطأ ) .
٨. يجوز الوقف على ( ريب ) على تقدير خبر ، والبدء بقوله ( فيه هدى ) على معنى أن القرآن فيه هدى ( صح ) .
٩. يجوز الوقف على ( ريب فيه ) والبدء بقوله ( هدى ) على معنى أن هدى صفة للقرآن ( صح ) .
١٠. الوقف على ريب والبدء بفيه هدى أبلغ من حيث المعنى في الآية ( خطأ ) .
١١. ذكر بعضهم أن الإشارة بقوله ( ذلك ) في أول البقرة إشارة إلى الصراط المذكور في سورة الفاتحة كأنهم لما سألوا الهداية إليه قيل لهم : ذلك الصراط هو الكتاب ، وقال أبو حيان : هو أولى ( صح ) .
١٢. الإشارة بذلك إشارة للبعيد ، ففي قوله : ذلك الكتاب إشارة إلى بعد رتبة هذا القرآن وعلو قدره ( صح ) .
١٣. قيل إن ذلك في قوله : ذلك الكتاب بمعنى هذا ، من باب استعمال اسم الإشارة مكان الآخر ( صح ) .

١٤. قوله : لا ريب فيه المراد منه نفي أن أحدا يرتاب فيه ( خطأ ) .
١٥. اللام في ( الكتاب ) هي لام الكمال التي تدل على كمال هذا الكتاب فإنه هو الكتاب على الحقيقة ( صح ) .
١٦. الريب هو الشك وقد يستعمل في التهمة وفي الحاجة أيضاً ( صح ) .
١٧. أصل الريب قلق النفس واضطرابها ومنه حديث : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة » ( صح ) .
١٨. تأخير ( فيه ) على ( ريب ) للدلالة على أن هذا الكتاب لا شك فيه بخلاف غيره ففيه شك ( خطأ ) .
١٩. أصل التقوى من الوقاية ، بمعنى : يقي نفسه ما يوجب العقوبة ( صح ) .
٢٠. اختلاف العلماء في تعريف التقوى من باب التنوع والتمثيل ، وكل ما ذكره داخل في معنى التقوى . ( صح ) .
٢١. جملة ( لا ريب فيه ) خبر بمعنى النهي ، أي : لا ترتابوا فيه لأنه لا ريب فيه ( صح ) .
٢٢. تخصيص المتقين بالذكر في الآية فيه دلالة على أن هذا الكتاب ليس فيه هدى لغير المتقين ( خطأ ) .
٢٣. تخصيص الهداية بالقرآن للمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدى الذي فيه وإن كان هدى لجميع الناس ( صح ) .
٢٤. الهدى معناه عند الإطلاق يراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة والإرشاد إليه ولا يدخل فيه ما يقر في القلب من الإيمان ( خطأ ) .
٢٥. نفي الريب عن القرآن مع أن كثيراً من الناس يرتابون فيه كما قال تعالى : { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا } فيه دلالة على أن عدم الريب فيه متعلق بالمتقين فهم الذين لا يرتابون فيه ولا يشكون أنه كلام رب العالمين ( خطأ ) .
٢٦. قوله { هدى للمتقين } مع أن المتقين مهتدون أصلاً للدلالة على أنه سبب في استدامتهم على الهدى ( صح ) .
٢٧. عن الحسن قال : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام ( صح ) .

٢٨. لا يطلق على العبد أنه من المتقين حتى يترك الصغائر مع الكبائر ( خطأ ) .
٢٩. الإيمان يطلق على الرجل لظاهر حاله ، وأما التقوى فلا تطلق على الرجل إلا بعد خبرة بحاله ( صح ) .
٣٠. نقل ابن جرير وغيره القول بأن الإشارة بذلك الكتاب إلى التوراة والإنجيل ( صح ) .

## المحاضرة التاسعة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فموعدنا اليوم مع تفسير الآية رقم ٣ من سورة البقرة قال تعالى :

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾

هذه الآية هي الآية الثانية في وصف المؤمنين كما جاء في رواية مجاهد وغيره وما روي في فضلها هو ما روي في فضل الآيات الأربع حسب ما سبق الحديث عنه

القراءات وتوجيهها :

فيها أوجه أدائية ومن ذلك إبدال الهمزة في يؤمنون واوا لورش عن نافع والهمزة عند الوقف وتفخيم لام الصلاة لورش ووصل ميم الجمع في رزقناهم لابن كثير ولقالون عن نافع بخلف عنه وقد ذكرنا ذلك هنا وفي الآية السابقة مما يشبه ذلك من باب الإشارة لهذه الأنواع ولا يسعنا أن نذكر ذلك عند كل آية والذي يعيننا في التفسير ما يكون من القراءات متعلقا بالمعنى وأما ما خلا ذلك فمكانه كتب القراءات وتوجيهها .

مناسبتها

أما مناسبة هذه الآية فهي واضحة لأننا ما زلنا في موضوع واحد وهو بيان أوصاف المؤمنين

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

يؤمنون : والإيمان إفعال من الأمن يقال آمنته وآمنته

ثم يقال آمنه إذا صدقه وحقيقته آمنه التكذيب والمخالفة

وأما تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقر واعترف

وأما ما حكاه بعضهم عن العرب من قولهم : ما آمنت أن أجد صحابة أي ما وثقت  
فحقيقته صرت ذا أمن به أي ذا سكون وطمأنينة وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب  
أي يعترفون به أو يثقون بأنه حق  
ويجوز أن لا يكون بالغيب صلة للإيمان وان يكون في موضع الحال أي يؤمنون غائبين عن  
المؤمن به وحقيقته ملتبسين بالغيب كقوله الذين يخشون ربهم بالغيب فاطر ١٨ ليعلم أي لم  
أخنه بالغيب يوسف ٥٢

الغيب :

فإن قلت : فما المراد بالغيب إن جعلته صلة وإن جعلته حالا ؟  
فالجواب : إن جعلته صلة كان بمعنى الغائب إما تسمية بالمصدر من قولك غاب الشيء غيبا  
كما سمي المشاهد بالشهادة قال الله تعالى عالم الغيب والشهادة الزمر ٤٦  
والباء هنا للتعدية

وإما أن يكون فيعلا يعني أصله غيب أي ما غاب فخفف فقيل : غيب كما في نحو ميت  
وميت .

والمراد بالغيب : الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير وإنما نعلم منه نحن ما  
أعلمناه أو نصب لنا دليلا عليه ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال فلان يعلم الغيب .  
والغيب ما يتعلق بالله وصفاته والنبوات وما يتعلق بها والبعث والنشور والحساب والوعد  
والوعيد وغير ذلك

وإن جعلته حالا كان بمعنى الغيبة والخفاء وتكون الباء هنا للمصاحبة .  
وقيل المراد بالغيب القلب أي يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم  
وتكون الباء هنا للآلة .

وقال الزمخشري : الذين يؤمنون إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة أو مدح منصوب أو  
مرفوع بتقدير أعني الذين يؤمنون أو هم الذين يؤمنون  
وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه ب أولئك على هدى  
فإذا كان موصولا كان الوقف على المتقين حسنا غير تام ، وإذا كان مقتطعا كان وقفا تاما .

يقيمون :

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها من أقام العود إذا قومه .

أو الدوام عليها والمحافظة عليها كما قال عز وعلا الذين هم على صلاتهم دائمون وقال والذين هم على صلواتهم يحافظون

أو من قامت السوق إذا نفقت لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه

أو من التجلد والتشمير لأدائها وأن لا يكون في مؤديها فتور عنها ولا توان من قولهم : قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط .

أو المراد أداؤها فعبير عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت والقنوت القيام وبالركوع والسجود وقالوا سبح إذا صلى لوجود التسبيح فيها

الصلاة :

أصل الصلاة في كلام العرب الدعاء ، قال الأعشى :

لها حارسٌ لا يبرح الدهرَ بيَّتها وإن دُجِّحتَ صلَّى عليها وزمَما

والبيت في وصف الخمر أي لها حارس لا يفارقها طوال الوقت وإن ذبحت أي أزيل ختمها أخذ يدعو مخافة أن تكون فسدت . والزممة صوت الدعاء .

وقال أيضا :

وقابلها الریح في دَِّها وصلَّى على دَِّها وارْتَسَم

والبيت في الخمر كذلك ، والمراد بقابلها الریح أي عند فتحها ، وأخذ يدعو مخافة أن تكون فسدت ، وارتم أي كبر ودعا . ودن الخمر وعأؤها .

أنشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك .

وقال الآخر :

تقول بنتي وقد قرّبتُ مرَّحلاً  
يا رب جَبَّ أبي الأوصابَ والوجعاً  
عليك مثل الذي صليتِ فاغتمِضي  
نوما فإنَّ لجنبِ المرءِ مُضْطَجَعاً

والأوصاب هي الأوجاع

يقول : عليك من الدعاء مثل الذي دعوت لي .

ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة ، في الأوقات المخصوصة ، بشروطها المعروفة ، وصفاتها وأنواعها المشهورة .

وقيل : هي مشتقة من الصَّلَوَيْنِ إذا تحركا في الصلاة عند الركوع ، وهما عرفان بمتدان من الظهر حتى يكتنفا عَجَبَ الذنب . وهو آخر فقرات العمود الفقري في الظهر .

ومنه سمي "المصلي" وهو التالي للسابق في حلبة الخيل ، يقال : صلى الفرس إذا جاء مصليا وهو الذي يتلو السابق لأن رأسه عند صَلَاة . وفيه نظر . وقيل : هي مشتقة من الصُّلِّي وهو الملازمة للشيء من قوله تعالى : ﴿ لا يصلاحها ﴾ أي لا يلزمها ويدوم فيها إلا

﴿الأشقي﴾ [الليل ١٥] وقيل : مشتقة من تَصْلِيَةِ الخشبة في النار لتَقْوَم ، كما أن المصلي يَقْوَمُ عَوَجَهُ بالصلاة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ [ العنكبوت

٤٥ ] ، واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم .

وعكس أبو حيان الأمر فجعل الصلاة حقيقة في الهيئة المخصوصة ومجازا في الدعاء بجامع أن الداعي يخشع في دعائه كما يفعل المصلي وهذا عجيب منه لأن الصلاة بهذه الكيفية

اصطلاح شرعي ليس من وضع اللغة والشواهد تؤيد القول الأول .

رزقناهم :

الرزق في اللغة العطاء ويطلق على الحظ المعطى نحو ذبح ورعي للمذبوح والمرعي

وقيل هو بالفتح مصدر وبالكسر اسم .

وفي العرف ما ينتفع به الحيوان . وقيل إنه يعم غيره كالنبات

وقيل أصل الرزق الحظ ويستعمل بمعنى الملك وبمعنى الشكر عند أزد ومنه قوله : وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون .

وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله

ويسمى رزقا منه

وأدخل من التبعية صيانة لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهي عنه وقدم مفعول الفعل  
دلالة على كونه أهم كأنه قال ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به

ينفقون : أنفق الشيء وأنفده أخوان

وعن يعقوب نفق الشيء ونفذ واحد

والإنفاق والإنفاق أخوان خلا أن في الثاني معنى الإذهاب بالكلية دون الأول والمراد بهذا  
الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير فرضا كان أو نفلا ومن فسر بالزكاة ذكر أفضل أنواعه  
والأصل فيه أو خصصه بما لاقتارانه بما هو شقيقها .

وكل ما جاء مما فاءه نون وعينه فاء فдал على معنى الخروج والذهاب ونحو ذلك إذا تأملت  
مثل نفخ ونفر ونفس ونفع إلخ .

وجملة ومما رزقناهم ينفقون معطوفة على ما قبلها من الصلة وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة  
على رءوس الآي .

الأحاديث والآثار :

عن عبد الله قال الإيمان التصديق

وعن ابن عباس رضي الله عنهما يؤمنون يصدقون

وعن الزهري الإيمان العمل

وعن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون

وعن جعفر بن محمود عن جدته نويلة أو تويلة بنت أسلم قالت : صليت الظهر أو العصر  
في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحول الرجال مكان النساء والنساء  
مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلوا البيت الحرام .

قال إبراهيم الراوي عن جعفر : فحدثني رجال من بني حارثة أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم حين بلغه ذلك قال أولئك قوم آمنوا بالغيب .

قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه . لأجل الزيادة التي في آخره وهي ضعيفة جدا

فقد أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما وقال الهيثمي : فيه إسحاق بن إدريس الأسواري وهو ضعيف متروك .

وقد جاء بإسناد آخر حسن أخرجه الطبراني وغيره وقال الهيثمي : رجاله موثوقون .

إلا أن الشاهد غير مذكور فيه وهو قوله : " فحدثني رجال من بني حارثة... الخ "

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فذكرنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بينا لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيث ثم قرأ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب إلى قوله المفلحون أخرجه سعيد بن منصور في سننه والحاكم وغيرهما وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسكت الذهبي وإسناده صحيح .

وعن ابن عباس بالغيب قال بما جاء منه يعني من الله تعالى .

وعن أبي العالية في قوله تعالى يؤمنون بالغيب قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله وكذا قال قتادة بن دعامة

وقال السدي بأسانيده : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن .

وعن زر قال الغيب القرآن

وقال عطاء بن أبي رباح من آمن بالله فقد آمن بالغيب

وقال إسماعيل بن أبي خالد يؤمنون بالغيب قال بغيث الإسلام

وقال زيد بن أسلم الذين يؤمنون بالغيب قال بالقدر

وعن ابن محيريز قال قلت لأبي جمعة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم أحدثك حديثا جيدا تغدينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو عبيدة بن

الجراح فقال يا رسول الله هل أحد خير منا أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني .

أخرجه أحمد وغيره وإسناده حسن وقال الهيثمي : رجاله ثقات وقال ابن حجر : إسناده حسن وصححه الألباني .

وأخرجه ابن مردويه في تفسيره مطولا عن صالح بن جبير قال قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس يصلي فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضي الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الإنصراف قال إن لكم جائزة وحقا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا هات رحمك الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة فقلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا أمنا بالله واتبعناك قال ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا مرتين .

وقد أخرجه أيضا مطولا كما هنا الطبراني وإسناده حسن وقال الحافظ ابن حجر : إسناده هذه الرواية أقوى من إسناده المتقدمة .

وروى الحسن بن عرفة في جزئه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الخلق أعجب إليكم إيمانا قالوا الملائكة قال وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا فالنبيون قال وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم قالوا فنحن قال وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إن أعجب الخلق إلي إيمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها .

في إسناده المغيرة بن قيس البصري قال أبو حاتم الرازي : منكر الحديث .

وأخرجه من طريق ابن عرفة البيهقي في الدلائل وإسناده ضعيف وقد ضعفه الألباني ولكن قال السيوطي : له طرق كثيرة أوردتها في الأمالي ومنها ما ذكره ابن كثير بعده عن عمر وعن أنس وكذا يشهد له ما تقدم عن أبي جمعة فالأقرب تحسين الحديث ويؤيده جزم الحافظ ابن كثير به عن النبي ﷺ واستدلالة به على الوجادة كما في الباعث الحثيث ويأتي ذكر ذلك في مسائل الآية .

قال ابن عباس و يقيمون الصلاة أي يقيمون الصلاة بفروضها  
و عنه أيضا إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها  
وقال قتادة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها  
وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها  
وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهذا إقامتها  
وعن ابن عباس ومما رزقناهم ينفقون قال زكاة أموالهم  
وقال السدي بأسانيده : ومما رزقناهم ينفقون قال نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن  
تنزل الزكاة .

وعن الضحاك : كانت النفقات قربانا يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى  
نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات  
المثبتات .

وقال قتادة : ومما رزقناهم ينفقون فأنفقوا مما أعطاكم الله هذه الأموال عوار وودائع عندك يا  
ابن آدم يوشك أن تفارقها .

#### أقوال المفسرين في معناها

قال الزمخشري : فإن قلت ما هذه الصفة أوردت بيانا وكشفا للمتقين أم مسرودة مع المتقين  
تفيد غير فائدتها أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيذا قلت :  
يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من  
فعل الحسنات وترك السيئات .

أما الفعل فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات وذكر الصلاة والصدقة  
لأن هاتين أما العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما ...ومن ثم اختصر الكلام  
اختصارا بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها والذي إذا وجد لم تتوقف  
أخواته أن تقترن به مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين .  
وأما الترك فكذلك ألا ترى إلى قوله تعالى إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر  
العنكبوت ٤٥ .

ويحتمل أن لا تكون بيانا للمتقين وتكون صفة برأسها دالة على فعل الطاعات ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي ويحتمل أن تكون مدحا للموصوفين بالتقوى وتخصيصا للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهارا لإنافتها عن سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات .

قال ابن كثير وأما الغيب المراد ها هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد .

وقال بعد أن ساقها : فكل هذه متقاربة في معنى واحد لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به .

ومن فسره بالخشية كقوله تعالى إن الذين يخشون ربهم بالغيب وقوله من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء وقال بعضهم يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون وقال إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالا أي في حال كونهم غيبا عن الناس .

واختار ابن جرير أن قوله ومما رزقناهم ينفقون عام في الزكاة والنفقات فقال وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه .

وقال ابن كثير : كثيرا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال فإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهاال إليه ودعائه والتوكل عليه والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن

محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والأحاديث في هذا كثيرة .

قلت : الآية نزلت قبل فرض الزكاة فكان اللفظ فيها يشمل الواجب وقتئذ وهو النفقة على من تجب عليه النفقة فلما فرضت الزكاة أصبحت داخلة فيه كذلك لأنها مما أمر به المؤمن من إنفاق فلا تعارض .

وهو شامل أيضا لما ينفقه المؤمن قربة واحتسابا مما تيسر عليه .

المعنى الإجمالي :

والمعنى الإجمالي للآية أن الله يصف عباده المتقين بأنهم يحافظون على الصلوات المفروضة بشروطها وأركانها وواجباتها ويؤدونها بالخشوع والطمأنينة ولا يضيعون حق الله فيما رزقهم من مال فينفقون منه على من وجبت عليهم نفقته ويؤدون زكاته الواجبة فيه ويتصدقون بما تيسر رجاء ثواب الله وابتغاء مرضاته .

الأحكام المستنبطة أو مسائل :

المسألة الأولى :

هل الإيمان التصديق أم أن العمل داخل في مسمى الإيمان ؟

الجواب : الإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وكما قال إخوة يوسف لأبيهم وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال كقوله تعالى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فأما إذا استعمل مطلقا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعا أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار وأحاديث كثيرة .

وتفصيل الأمر في ذلك مبسوط في كتب العقيدة ومنها كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية وقد أطل آلوسى النفس في الحديث عن هذه المسألة وذكر أدلة كل فريق وحاول الرد

عليها وأدلة جمهور أهل السنة واضحة وقولهم هو الحق الذي لا محيد عنه وسائر الأقوال متكلفة وواضح ضعفها والحمد لله رب العالمين .

المسألة الثانية : حديث أبي جمعة المذكور في شرح هذه الآية وما شابهه استدل به أهل العلم على العمل بالوجادة التي اختلف فيها أهل الحديث لأن الله مدحهم على إيمانهم بما يجدونه مكتوبا وذكر أنهم أعظم أجرا من هذه الحيثية لا مطلقا .

والوجادة من وجد يجد وهو أن يقف الراوي على كتاب بخط شيخ فيه أحاديث ليس له رواية بما فيه . فله أن يقول : وجدت أو قرأت بخط فلان أو في كتاب فلان بخطه حدثنا فلان . ولاعتبارها من طرق التحمل شروط وتفصيل ينظر لها كتب مصطلح الحديث .

المسألة الثالثة : هل الحرام يعتبر رزقا ؟

الجواب : المعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام .

ألا ترى أنه تعالى في هذه الآية أسند الرزق إلى ذاته إيدانا بأنهم ينفقون من الحلال الصرف فإن إنفاق الحرام بمعزل من إيجاب المدح ، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا .

وأهل السنة جعلوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق ، والذم لتحريم ما لم يحرم ، واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة .

وقالوا بشمول الرزق لهما لأدلة كثيرة منها أنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقا وقد قال الله تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها

واحتج بعضهم بما روي عنه عليه السلام في حديث عمرو بن قرّة حين أتاه فقال يا رسول الله إن الله كتب علي الشقوة فلا أرى أرزق إلا من دني بكفي فأذن لي في الغناء من غير فاحشة فقال عليه السلام لا آذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أي عدو الله والله لقد رزقك الله حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله . وهو حديث ضعيف .

قال الأوسي : واختلف المتكلمون في معناه شرعا فالمعول عليه عند الأشاعرة ما ساقه الله تعالى إلى الحيوان فانتفع به سواء كان حلالا أو حراما من المطعومات أو المشروبات أو الملبوسات أو غير ذلك والمشهور أنه اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان ليتغذى به ويلزم على الأول أن تكون العواري رزقا لأنها مما ساقه الله تعالى للحيوان فانتفع به وفي جعلها رزقا بعد بحسب العرف كما لا يخفى ويلزم أيضا أن يأكل شخص رزق غيره لأنه يجوز أن ينتفع به الآخر بالأكل إلا أن الآية توافقه إذ يجوز أن يكون الانتفاع من جهة الإنفاق على الغير بخلاف التعريف الثاني إذ ما يتغذى به لا يمكن إنفاقه إلا أن يقال إطلاق الرزق على المنفق مجاز لكونه بصدده والمعتزلة فسروه في المشهور تارة بما أعطاه الله تعالى عبده وممكنه من التصرف فيه وتارة بما أعطاه الله تعالى لقوامه وبقائه خاصة وحيث أن الإضافة إلى الله تعالى معتبرة في معناه وأنه لا رازق إلا الله سبحانه وأن العبد يستحق الدم والعقاب على أكل الحرام وما يستند إلى الله تعالى عز وجل عندهم لا يكون قبيحا ولا مرتكبه مستحقا ذما وعقابا قالوا إن الرزق هو الحلال والحرام ليس برزق وإلى ذلك ذهب الجصاص منا في كتاب أحكام القرآن وعندنا الكل منه وبه وإليه قل كل من عند الله والدم والعقاب لسوء مباشرة الأسباب بالاختيار نعم الأدب من خير رأس مال المؤمن فلا ينبغي أن ينسب إليه سبحانه إلا الأفضل فالأفضل كما قال إبراهيم عليه السلام وإذا مرضت فهو يشفين وقال تعالى أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم فالحرام رزق في نفس الأمر لكننا نتأدب في نسبتنا إليه سبحانه

قال : والأحسن الاستدلال بالإجماع قبل ظهور المعتزلة على أن من أكل الحرام طول عمره مرزوق طول عمره ذلك الحرام والظواهر تشهد بانقسام الرزق إلى طيب وخبيث وهي تكفي في مثل هذه المسألة .

#### المسألة الرابعة :

قال أبو السعود تعليقا على أثر ابن مسعود المذكور في قوله : يؤمنون بالغيب : وما كان أغناه رضي الله تعالى عنه عما أجاب به إذ يخرج الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن هذا العموم

الذي في هذه الآية كما يشعر به قراءته لها مستشهدا بما وبه قال بعض أهل العلم وأنا لا أميل إلى ذلك .

قلت : تجاوز أبو السعود رحمه الله الحد في هذا التعليق وليس ما ذكره بلازم وإنما قصد ابن مسعود بيان درجة عالية من درجات الإيمان بالغيب مختصة بأمر معين وهو الإيمان برسول الله ﷺ وهذا قريب جدا مما ورد في الحديث الصحيح المذكور أيضا في تفسير الآية . وقد آمن الصحابة بغيوب كثيرة ولكن ليس منها الإيمان بالنبي ﷺ كغيب من الغيوب فمن هنا اختلف عنهم من بعدهم في هذه النقطة لا في مطلق الإيمان بالغيب ، وابن مسعود ﷺ لم يحصر الإيمان بالغيب في الإيمان برسول الله ﷺ لمن لم يدركه فلا معنى لما ذكره أبو السعود رحمه الله .

#### الأسئلة :

١. اختلاف القراءات في الآية لا يؤثر في معنى الآية ( خطأ ) .
٢. معنى ( يؤمنون بالغيب ) أي : يعترفون ويصدقون ، وحقيقة الإيمان : آمنه التكذيب والمخالفة ( صح ) .
٣. الباء في ( يؤمنون بالغيب ) زائدة ( خطأ ) .
٤. المراد بالغيب الأمر الغائب الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير ( صح ) .
٥. المراد بالغيب القلب أي يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم وتكون الباء هنا للآلة ، وهو الصحيح ( خطأ ) .
٦. يجوز أن لا يكون ( بالغيب ) صلة ( للإيمان ) وأن يكون في موضع الحال أي يؤمنون غائبين عن المؤمن به وحقيقته ملتبسين بالغيب . ( صح ) .
٧. إن جعلت ( الغيب ) صلة كان بمعنى الغائب والباء للتعدي ( صح ) .
٨. وإن جعلته ( الغيب ) حالا كان بمعنى الغيبة والخفاء ، وتكون الباء هنا للمصاحبة .
٩. أمور أسماء الله وصفاته والبعث والنشور والحساب ليست من الغيب لأن الله أخبر عنها ( خطأ ) .
١٠. جملة ( الذين يؤمنون بالغيب ) يصح فيها الجر والنصب ولا يصح فيها الرفع ( خطأ ) .

- ١١- معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع فيها نقص من أقام العود إذا قومه ( صح ) .
- ١٢- معنى إقامة الصلاة المداومة والمحافظة عليها ( صح ) .
- ١٣- أصل الصلاة في اللغة الدعاء ( صح ) .
- ١٤- الصحيح من معنى الصلاة في الاصطلاح أنها من الصَّلَوَيْنِ وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى آخر العمود الفقري لأنهما يتحركان عند الركوع ( خطأ )
- ١٥- الرزق في اللغة العطاء ، وهو كل ما يعطيه الله للعبد ( صح ) .
- ١٦- إسناد الرزق إلى الله للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه ( صح ) .
- ١٧- دخول ( من ) في قوله { ومما رزقناهم ينفقون } للدلالة على أن جنس الرزق إنما هو من الله لا من غيره . ( خطأ ) .
- ١٨- قدم المفعول ( رزقناهم ) على الفعل ( ينفقون ) للدلالة على الاستمرار أن إنفاقهم للمال مستمر ( خطأ ) .
- ١٩- كل ما ورد في اللغة مما فاء فاعله نون وعينه فاء فإنه يدل على معنى الخروج والذهاب ( صح ) .
- ٢٠- أنفق الشيء وأنفذه بمعنى واحد إلا أن الأول فيه معنى الإذهاب بالكلية دون الثاني ( خطأ ) .
- ٢١- تقديم المفعول في جملة ( ومما رزقناهم ينفقون ) للاهتمام والمحافظة على رؤوس الآي ( صح ) .
- ٢٢- من معاني يؤمنون يخشعون ( صح ) .
- ٢٣- في مسند أحمد وغيره بإسناد حسن أن أبا عبيدة ابن الجراح سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله هل أحد خير منا أسلمنا معك وجاهدنا معك قال : « نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني » . ( صح ) .
- ٢٤- تخصيص ذكر الإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من سائر الأعمال للدلالة على أهمية هذه الأسماء وأنها كالعنوان لما سواها مما يدخل تحت حقيقة اسم التقوى ( صح ) .

٢٥. اختلفت الأقوال في المراد بالإيمان بالغيب ، وهو من اختلاف التضاد الذي لا يمكن الجمع فيه بين الأقوال ولا بد من الترجيح بينها ( خطأ ) .
٢٦. المقصود بالرزق الذي ينفقونه الزكاة المفروضة عليهم خاصة ( خطأ ) .
٢٧. كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والإنفاق من الأموال لأن الصلاة حق الله والإنفاق حق العبد ( صح ) .
٢٨. الإيمان هو التصديق كما قال تعالى : { يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين } وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : { وما أنت بمؤمن لنا } أي : مصدق ، وعليه فإن الأعمال لا تدخل في الإيمان ( خطأ ) .
٢٩. مذهب أهل السنة أن الإيمان هو قول واعتقاد وعمل ويزيد وينقص ( صح ) .
٣٠. إضافة الرزق إلى الله تعالى في قوله ( رزقناهم ) دليل على أن الحرام لا يدخل تحت مسمى الرزق ( خطأ ) .

## المحاضرة العاشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فموعدنا اليوم مع تفسير الآية رقم ٤-٥ من سورة البقرة قال تعالى :

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من

ربهم وأولئك هم المفلحون﴾

هاتان الآيتان ببقية ما جاء في وصف المؤمنين كما جاء في رواية مجاهد وغيره وما روي في

فضلها هو ما روي في فضل الآيات الأربع حسب ما سبق الحديث عنه

القراءات وتوجيهها :

قرأ النخعي وأبو حيوة ويزيد بن قطيب بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك على لفظ ما سمي

فاعله

وقرأ أبو حية النمري يؤقنون بالهمز فجعل الضمة المجاورة للواو كأنها فيه فقلبها همزة كما

قلبو واو وجوه ووقتت ونحوها فقالوا : أجوه و أقتت .

وكلها شاذة .

مناسبتها

أما مناسبة هذه الآية فهي واضحة لأننا ما زلنا في موضوع واحد وهو بيان أوصاف المؤمنين.

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

قوله بما أنزل إليك : الإنزال : الإيصال والإبلاغ ولا يشترط أن يكون من أعلى خلافا لمن

ادعاه وإن كان العلو هنا صحيحا نحو فإذا نزل بساحتهم أي وصل وحل وذكر أن معنى

إنزال القرآن أن جبريل سمع كلام الله تعالى كيف شاء الله تعالى فنزل به أو أظهره في اللوح

كتابة فحفظه الملك وذهب بعض السلف إلى أنه من المتشابه الذي نجزم به من غير بحث عن كيفيته .

وقد ذكرنا في مادة علوم القرآن طرفا من ذلك في معنى الإنزال ومنه إنزال القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا كاملا ثم تنزيله منجما بعد ذلك .

وعدم ذكر من أنزل إليه من الأنبياء عليهم السلام لقصد الإيجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به في قوله تعالى قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل الآية

وبناء الفعلين للمفعول لتعين الفاعل والجري على شأن الكبرياء .

الآخرة : تأنيث الآخر اسم فاعل من آخر الثلاثي بمعنى تأخر وإن لم يستعمل كما أن الآخر بفتح الحاء اسم تفضيل منه وهي صفة في الأصل كما في الدار الآخرة وينشئ النشأة الآخرة كما أن الدنيا تأنيث الأدنى غلبتا على الدارين فجزتا مجرى الأسماء والوصف الغالب قد يوصف به دون الاسم الغالب وقد تضاف الدار لها كقوله تعالى ولدار الآخرة أي دار الحياة الآخرة وقد يقابل بالأولى كقوله سبحانه وتعالى له الحمد في الأولى والآخرة والمعنى هنا الدار الآخرة أو النشأة الآخرة .

يوقنون : الإيقان إتقان العلم بالشيء بنفي الشك والشبهة عنه وهو العلم الحادث سواء أكان ضروريا أو استداليا ولذلك لا يسمى علمه تعالى يقينا ولا يوصف سبحانه بالموقن وسمي تحقق الشيء إيقانا لسكونه ووضوحه يقال يقن الماء إذا سكن وظهر ما تحته .

قال الجوهري اليقين العلم وزوال الشك يقال منه يقنت بالكسر يقينا وأيقنت واستيقنت كلها بمعنى وذهب الواحدي وجماعة إلى أنه ما يكون عن نظر واستدلال فلا يوصف به البديهي ولا علم الله تعالى وذهب الإمام النسفي وبعض الأئمة إلى أنه العلم الذي لا يحتمل النقيض وعدم وصف الحق سبحانه وتعالى به لعدم التوقيف وذهب آخرون إلى أنه العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه سواء كان ضروريا أو استداليا وذكر الراغب أن اليقين من صفة

العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين وهو سكون النفس مع ثبات الحكم .

وفي الإحياء أن اليقين مشترك بين معنيين الأول عدم الشك فيطلق على كل ما لا شك فيه سواء حصل بنظر أو حس أو غريزة عقل أو بتواتر أو دليل وهذا لا يتفاوت .  
الثاني وهو ما صرح به الفقهاء وكثير من العلماء وهو ما لا ينظر فيه إلى التجويز والشك بل إلى غلبته على القلب حتى يقال فلان ضعيف اليقين بالموت وقوي اليقين بإثبات الرزق فكل ما غلب على القلب واستولى عليه فهو يقين وتفاوت هذا ظاهر .

المفلحون : والمفلح الفائز بالبيعة كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه والمفلح بالجيم مثله ومنه قولهم للمطلقة استفلحي بأمرك بالحاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح وكذلك أخواته في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلى

وقال الزمخشري : في تكرير أولئك تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح فجعلت كل واحدة من الأثرين في تمييزهم بالمتابة التي لو انفردت كفت مميزة على حياها

فإن قلت لم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ؟

قلت : قد اختلف الخبران ها هنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل .

و هم : فصل ، وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره

أو هو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك

ومعنى التعريف في المفلحون الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة كما إذا بلغك أن إنسانا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل زيد التائب أي هو الذي أخبرت بتوبته

فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى وهي ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا ويشبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته

وقوله تعالى أولئك : فيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجاتهم وبعد منزلتهم في الفضل وقوله عز وجل على هدى : فيه من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه كأنه قيل على أي هدى هدى لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره كما تقول لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا

وإيراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى بحال من يعتلي الشيء ويستولى عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيدان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه وقد صرحوا بذلك في قولهم جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى

وقوله تعالى من ربه : ذكر الرب مع أن الهدى لا يكون إلا منه سبحانه تأكيدا لذلك بإسناده إليه جل شأنه وفيه مناسبة واضحة إذ حيث كان ربه ناسب أن يهيب لهم أسباب السعادتين ويمن عليهم بمصلحة الدارين

ومن لا ابتداء الغاية أو للتبويض على حذف مضاف أي من هدى ربه ومعنى كون ذلك منه سبحانه أنه هو الموفق لهم والمفيض عليهم من بحار لطفه وكرمه وإن توسطت هناك أسباب عادية .

أولئك على هدى الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ وإلا فلا محل لها ونظم الكلام على الوجهين أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهبت به مذهب الاستئناف وذلك انه لما قيل هدى للمتقين واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول ما بال المتقين مخصوصين بذلك ؟

فوقع قوله الذين يؤمنون بالغيب كأنه جواب لهذا السؤال المقدر وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلفظ بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم أي الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح وإن جعلته تابعا للمتقين وقع الاستئناف على أولئك كأنه قيل ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا

فإن قلت : هل يجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره ؟

قلت : نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضا بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم طائون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله .

الأحاديث والآثار :

عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل له يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نياس أو كما قال قال أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار قالوا بلى يا رسول الله قال ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين إلى قوله تعالى المفلحون هؤلاء أهل الجنة قالوا إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال إن الذين كفروا سواء عليهم إلى قوله عظيم هؤلاء أهل النار قالوا لسنا هم يا رسول الله قال أجل أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره وإسناده جيد إن كان عثمان بن صالح سمع من ابن لهيعة قبل احتراق كتبه ، والأقرب أن روايته عنه منضبطه فهو الذي روى قصة احتراق بعض كتبه فلا شك أنه مميز فيما سمع منه وقد صرح ابن لهيعة بالتحديث فأما تدليسه .

عن ابن عباس قال : والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك أي يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا أي : لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاءك من ربك

وعن ابن عباس أيضا : أولئك على هدى من ربهم أي على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به وأولئك هم المفلحون أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا وعن السدي بأسانيده : أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون

وعن قتادة والذين يؤمنون بما أنزل إليك قال هو الفرقان الذي فرق الله به بين الحق والباطل وما أنزل من قبلك أي الكتب التي خلت قبله أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون قال استحقوا الهدى والفلاح بحق فأحقه الله عليهم ، وهذا نعت أهل الإيمان ثم نعت المشركين فقال إن الذين كفروا سواء عليهم الآيتين

أقوال المفسرين في معناها

وقد اختلف المفسرون في الموصوفين هنا هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ويطيرون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ومن هم على ثلاثة أقوال أحدها أن الموصوفين أولا هم الموصوفون ثانيا وهم كل مؤمن مؤمنة العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والثاني هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب .

وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى سبح اسم ربك الأعلى  
الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى وكما قال  
الشاعر

إلى الملكِ القرمِ وابنِ الهمامِ      وليثِ الكتيبةِ في المزدحمِ

والقرم : بفتح القاف هو السيد المعظم وأصله الفحل المكرم الذي لا يحمل عليه والهمام :  
عظيم الهمة ، وأراد بالكتيبة : الجيش ، والمزدحم : مكان المعركة .  
فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد .

والثالث أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب والموصوفون ثانياً بقوله والذين يؤمنون بما أنزل إليك  
وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون المؤمني أهل الكتاب

نقله السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره بن جرير  
رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم  
وما أنزل إليهم خاشعين لله الآية وبقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به  
يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون  
أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وبما ثبت في  
الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي ورجل مملوك  
أدى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فأحسن تأديتها ثم أعتقها وتزوجها وأما بن  
جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة وهي أن الله وصف في أول هذه السورة  
المؤمنين والكافرين فكما انه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم  
إلى صنفين عربي وكتابي

قال ابن كثير : والظاهر قول مجاهد أنه قال أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين  
وآيتان في نعت الكافرين وثلاثة عشر في المنافقين فهذه الآيات الأربع عامات في كل مؤمن  
اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي من إنسي وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات  
بدون الأخرى بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام  
الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من قبله

من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والإيقان بالآخرة كما أن هذا لا يصح إلا بذلك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل الآية وقال تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهمكم واحد الآية وقال تعالى يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم وقال تعالى قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقال تعالى والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه ولكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلا فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملا كما جاء في الصحيح إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيشة فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلوا لهم والله أعلم

يقول الله تعالى أولئك أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذي رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات على هدى أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى وأولئك هم المفلحون أي في الدنيا والآخرة

وقال ابن جرير : وأما معنى قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم فإن معنى ذلك فإنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى وأولئك هم المفلحون أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسوله من الفوز بالثواب والخلود في الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب

وقد حكى ابن جرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة في قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون إلى مؤمني أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل إليك الآية على ما تقدم من الخلاف وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل إليك منقطعاً مما قبله وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره أولئك هم المفلحون واختار أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤمني العرب وأهل الكتاب لما رواه

وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة والإشارة عائدة عليهم والله أعلم قال الزمخشري : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا فاشتمل إيمانهم على كل وحي أنزل من عند الله وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وإن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات واجتماعهم على الإقرار بالنشأة الأخرى وإعادة الأرواح في الأجساد ثم افتراقهم فرقتين منهم من قال تجري حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا ودفعه آخرون فرعموا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام وملكان التوالد والتناسل وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقية والسماع اللذيذ والفرح والسرور واختلافهم في الدوام والانقطاع فيكون المعطوف غير المعطوف عليه

ويحتمل أن يراد وصف الأولين ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه

فإن قلت فإن أريد بهؤلاء غير أولئك فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا قلت إن عطفتهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزميرين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم وإن عطفتهم على المتقين لم يدخلوا وكأنه قيل هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك

وفي تقديم وبالآخرة وبناء يوقنون على هم ، تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وإن قولهم ليس بصادر عن إيقان وإن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .

وقال الآلوسي : وحيث أن المتبادر من العطف أن الإيمان بكل من المنزلين على طريق الاستقلال أختص ذلك بهم لأن إيمان غيرهم بما أنزل من قبل إنما هو على طريق الإجمال والتبع للإيمان بالقرآن لا سيما في مقام المدح وقد دلت الآيات والأحاديث على أن لأهل الكتاب أجرين بواسطة ذلك وبهذا غايروا من قبلهم وقيل التغير باعتبار أن الإيمان الأول بالعقل وهذا بالنقل أو بأن ذاك بالغيب وهذا بما عرفوه كما يعرفون أبناءهم فأولئك على هدى حينئذ إشارة إلى الطائفة الأولى لأن إيمانهم بمحض الهداية الربانية وأولئك هم المفلحون إشارة إلى الثانية لفوزهم بما كانوا ينتظرونه أو بأن أولئك من حيث المجموع كان فيهم شرك وهؤلاء لم يشركوا ولم ينكروا وقيل التغير بالعموم والخصوص مثله في قوله تعالى تنزل الملائكة والروح والتخصيص هنا بعد التعميم للإشارة إلى الأفضلية من حيثية أنهم يعطون أجرهم مرتين وقد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل وفي ذلك ترغيب أهل الكتاب في الدخول في الإسلام وقال بعضهم إن هؤلاء الأولون بأعيانهم وتوسيط العطف جار في الأسماء والصفات باعتبار تغير المفهومات .

إلى أن قال : والتغير بين المتعاطفين باعتبار أن المراد بالمعطوف عليه من آمن من العرب الذين ليسوا بأهل كتاب وبالمعطوف من آمن به صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وقد رجح بعض المحققين احتمال أن يكون هؤلاء هم الأولون وتوسط الواو بين الصفات بأن الإيمان بالمنزلين مشترك بين المؤمنين قاطبة فلا وجه لتخصيصه بمؤمني أهل الكتاب والأفراد بالذكر لا يدل على أن الإيمان بكل بطريق الاستقلال فقد أفرد الكتب المنزلة من قبل في قوله تعالى قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ولم يقتض الإيمان بها على الانفراد وبأن أهل الكتاب لم يكونوا مؤمنين بجميع ما أنزل من قبل لأن اليهود لم يؤمنوا بالإنجيل ودينهم منسوخ به وبأن الصفات السابقة ثابتة لمن آمن من أهل الكتاب فالتخصيص بمن عداهم تحكم وجعل الكلام من قبيل عطف الخاص على العام لا يلائم المقام .

ثم أجاب عن ذلك بأجوبة لا تنتهض والقول الذي رجحه ابن كثير هو الصواب ولا يثبت عن الصحابة خلافه بل هو ظاهر ما صح عن ابن عباس وتلاميذه والله اعلم .

المعنى الإجمالي :

تتحدث الآيات عن بقية أوصاف المتقين الذين اهتدوا بهذا القرآن ومن ذلك أنهم يؤمنون بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل قبل النبي ﷺ مع إيمانهم بالكتاب الخاتم المنزل على رسول الله ﷺ وهو القرآن الكريم وسائر ما أوحى لرسول الله ﷺ من السنة المطهرة كما أنهم يؤمنون بالدار الآخرة وما فيها من معاد وبعث وجزاء على ما جاءهم عن ربهم يقينا لا يخالطه شك ولا ريب وهؤلاء هم أصحاب المنزلة العالية عند الله الذين قد خالط الهدى قلوبهم واستحقوا الفلاح والنجاح وتحقيق مآربهم بالفوز في الدارين .

الأحكام المستنبطة أو مسائل :

الأولى : إن قلت قوله :

بما أنزل إليك إن عني به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها فلم يكن ذلك منزلا وقت إيمانهم فكيف قيل أنزل بلفظ الماضي وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل واشتمال الإيمان على الجميع سألقة ومرتبة واجب

قلت المراد المنزل كله وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقبا تغليبا للموجود على ما لم يوجد كما يغلب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب فيقال أنا وأنت فعلنا وأنت وزيد تفعلان

ولأنه إذا كان بعضه نازلا وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله ويدل عليه قوله تعالى إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله منزلا ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا

ونظيره قولك كل ما خطب به فلان فهو فصيح وما تكلم بشيء إلا وهو نادر ولا تريد بهذا الماضي منه فحسب دون الآتي لكونه معقودا بعضه ببعض ومربوطا آتية بماضيه .

الثانية : قد ذكر العلماء أن الإيمان إجمالا بالكتب المنزلة مطلقا فرض عين وتفصيلا بالقرآن المتعبد بتفاصيله فرض كفاية إذ لو كان فرض عين أدى إلى الحرج والمشقة والدين يسر لا

عسر وهذا مما لا شبهة فيه حتى قيل : يجب على الكفاية تفصيل الدلائل الأصولية بحيث يتمكن معه من إزالة الشبه وإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين .  
وذكر الفقهاء أنه لا بد أن يكون في كل حد من مسافة القصر شخص متصف بهذه الصفة ويسمى المنصوب للذب ويحرم على الإمام إخلاؤها من ذلك كما يحرم إخلاؤها عن العالم بالأحكام التي يحتاج إليها العامة وقيل لا بد من شخص كذلك في كل إقليم وقيل يكفي وجوده في جميع البلاد المعمورة الإسلامية ولعل هذا التنزل لنزول الأمر وقلة علماء الدين في الدنيا في هذه العصور المتأخرة .

الثالثة : تشبث المعتزلة والخوارج بهذه الآية لخلود تارك الواجب في العذاب لأن قصر جنس الفلاح على الموصوفين يقتضي انتفاء الفلاح عن تارك الصلاة والزكاة فيكون مخلدا في العذاب وهذا أوهن من بيت العنكبوت فلا يصلح للاستدلال لأن الفلاح عدم الدخول أو لأن انتفاء كمال الفلاح كما يقتضيه السياق والسباق لا يقتضي انتفاءه مطلقا ولا حاجة إلى حمل المتقين على المجتنبين للشرك ليدخل العاصي فيهم لأن الإشارة ليست إليهم فقط فلا يجدي نفعاً ككون الصفة مادحة كما لا يخفى .

#### الأسئلة :

١. قرأ النخعي وغيره : ( بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ) على لفظ ما سمي فاعله وليس للمجهول ، وهي قراءة شاذة . ( صح ) .
٢. الإنزال هو إيصال الشيء ولا بد أن يكون من أعلى على القول الصحيح من أقوال أهل العلم ( خطأ ) .
٣. عدم ذكر فاعل الإنزال لاحتمال أن يكون المراد هو الله سبحانه أو جبريل ( خطأ ) .
٤. معنى إنزال القرآن أن جبريل سمع القرآن من رب العزة سبحانه فنزل به وأوصله إلى النبي ﷺ . ( صح ) .
٥. ذكر بعض أهل العلم أن كيفية الإنزال من المتشابه الذي يجب الإيمان به من غير بحث عن كيفية . ( صح ) .

٦. عدم ذكر من أنزل إليه من الأنبياء من باب الإيجاز ولأنه لا غرض من تعيين ذلك ( صح ) .
٧. الآخرة هي الدار الآخرة أو النشأة الآخرة ( صح ) .
٨. اليقين والإيقان : إتقان العلم بالشيء بنفي الشك والشبهة عنه ، وهو علم حادث ، ولذلك لا يوصف الله به . ( صح ) .
٩. ذهب بعض أهل العلم أن الإيقان هو العلم الذي لا يحتمل النقيض وأن عدم اتصاف الله به توقيفي لا لأنه يحتاج إلى نظر واستدلال . ( صح ) .
١٠. المفلح : الذي فاز ببغيته ومراده كأنه الذي انفتحت له أبواب الظفر ، لأن أصل المادة فيه معنى الفتح ( صح ) .
١١. تكرار أولئك لبيان أن كل خبر مستقل لهم فكما حصل لهدى حصل لهم الفلاح أيضاً . ( صح )
١٢. دخول واو العطف بين الجملتين للدلالة على أنهما خبر واحد متلازم ( خطأ )
١٣. ذكر ضمير الفصل ( هم ) لتأكيد نسبة الخبر وأنه ليس صفة وأن هذا الخبر ثابت لهم دون غيره ( صح ) .
١٤. هم مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك ( صح ) .
١٥. التعريف في قوله ( المفلحون ) للإشارة أن هذا الفلاح قد نالهم من قبل الله تعالى وبتوقيفه ( خطأ ) .
١٦. التعريف في ( المفلحون ) تنبيه على أن الفلاح أصبح صفة لهم يعرفون بها فأصبحت كالعلمية عليهم ( صح ) .
١٧. الإشارة لهم بأولئك التي للبعيد لبيان بعد منزلتهم في الفلاح وعلو درجتهم فيه ( صح )
١٨. ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك للدلالة على أن المفلحين قد نالوا شيئاً ما ناله غيرهم ، وفي ذلك تنشيط للعبد في اقتفاء أثرهم والتشبه بهم وترك الرجاء الكاذب والطمع الفارغ بدون عمل ( صح ) .
١٩. ذكر الهدى بالكرة والتنوين لكمال تفخيمه . ( صح ) .

٢٠. ذكر الهدى بلفظة الاستعلاء ( على ) للدلالة على أن الهدى متمكن منهم عال عليهم ( خطأ ) .

٢١. ذكر ( من ربه ) لبيان أن الهدى لا يكون إلا من الرب سبحانه الذي يربي عباده بما يصلحهم ( خطأ ) .

٢٢. من في قوله ( من ربه ) لا ابتداء الغاية ، أي : الهدى منه سبحانه ابتداء فهو الموفق إليه لا غيره. ( صح ) .

٢٣. ذكر الإيمان بما أنزل الله من قبلك ، فيه دلالة على أن الإيمان بما أنزل الله على الأنبياء لا ينفع إلا إذا كان معه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ لأن الكل من عند الله . ( صح ) .

٢٤. ذكر بعض المفسرين أن الذين يؤمنون بما أنزل إليك هم مؤمنو العرب والذين يؤمنون بما أنزل إليك هم مؤمنو أهل الكتاب واختاره ابن جرير ( صح )

٢٥. رجح ابن كثير ما ذهب إليه ابن جرير من كون المذكورين بقوله ( بما أنزل إليك هم مؤمنو العرب ) وبقوله ( وما أنزل من قبلك ) هم مؤمنو أهل الكتاب ( خطأ ) .

٢٦. في تقديم ( وبالآخرة ) وبناء يوقنون على هم ، تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وان قولهم ليس بصادر عن إيقان وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . ( صح ) .

٢٧. تقديم ( وبالآخرة ) على ( يوقنون ) دلالة على الحصر والاهتمام ( صح ) .

٢٨. قوله ( بما أنزل إليك ) ولم يكن قد أنزل إليه كل القرآن بعد دليل على من آمن وأيقن ببعضه يكون مؤمناً به كله ( خطأ ) .

٢٩. الواجب في الإيمان بما أنزل الله الإيمان المجمع ( صح ) .

٣٠. لا دليل في قوله ( وأولئك هم المفلحون ) على قول المعتزلة بخلود فاعل الكبائر في النار لأن انتفاء كمال الفلاح لا يقتضي انتفائه مطلقاً . ( صح ) .

## المحاضرة الحادية عشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فمحاضرة اليوم في تفسير الآية رقم ٦ ، ٧ من سورة البقرة  
التلاوة

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى  
سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾

القراءات وتوجيهها

عن الخليل أنه قرأ سوء عليهم بضم السين مع واو بعدها فهو عدول عن معنى المساواة إلى  
السب والقبح . وهي شاذة .

وقرئ أأنذرتهم بأوجه أدائية في الهمزتين لا تؤثر في المعنى وقد بينا سابقا أننا لن نلتفت لما  
كان كذلك إلا أن الزمخشري تجاوز حده فاعترض على قراءة سبعة منها وهي إبدال الهمزة  
الثانية ألفا واعتبرها لحنا خارجا عن لغة العرب فلزم التنبيه على رد كلامه لثبوت القراءة  
بالتواتر وهي أثبت عن العرب من الشواهد الشعرية والنثرية التي لا زمام لها ولا خطام .

وقرئ قوله غشاوة بأوجه عدة كلها شاذة ومن ذلك قراءتها بالنصب

قال ابن جرير : يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره وجعل على أبصارهم غشاوة ويحتمل  
أن يكون نصبها على الإتيان على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى وحوور عين أقول :  
وذلك على قراءة من قرأها بالكسر .

واحتج لذلك بقول الشاعر يصف فرسه

علفتها تبنا وماء باردا حتى شئت همالة عيناها

والمراد بقوله : شئت همالة عيناها أي انهمر الماء من عينها كالمطر

وقول الآخر

ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

وتقدير الكلام في البيت الأول : علفتها تبنا وسقيتها ماء ، وفي البيت الثاني متقلدا سيفاً ومعتقلاً رحماً ، لأن الماء لا يعلف والرمح لا يتقلد .  
وقراها بعضهم من العشا بالفتح والقصر وهو الرؤية نهاراً لا ليلاً والمعنى أنهم يبصرون إبصار غفلة لا إبصار عبرة أو أنهم لا يرون آيات الله تعالى في ظلمات كفرهم ولو زالت أبصروها .  
وقرأ ابن أبي عبلة وعلى أسماعهم بالجمع وهي شاذة أيضاً .

مناسبتها

لما قدم ذكر اوليائه وخالصة عبادته بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلفى عنده وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة قفى على أثره بذكر أصدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا يجدي عليهم اللطف وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه وإنذار الرسول وسكوته

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

كفروا : والكفر في اللغة ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح أي الستر ومنه قيل للزراع والليل كافر قال تعالى كمثل غيث أعجب الكفار نباته وعليه قول لبيد :

في ليلة كفر النجوم غمامها

ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكي الذي غطى السلاح بدنه .

والكفر في الشريعة مقابل الإيمان وهو إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم به . وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرها كفراً لدلالته على التكذيب فإن من صدق النبي صلى الله عليه وسلم لا يكاد يجترئ على أمثال ذلك إذ لا داعي إليه كالزنى وشرب الخمر والخلاف في ضوابطه كبير .

قال الآلوسي : وقد صعب على المتكلمين تعريف الكفر الشرعي واختلفوا في تعريفه على حسب اختلافهم في تعريف الإيمان وذكر أمثلة لذلك لا نطيل بها ثم قال : ولقد عد أصحابنا في باب الإكفار أشياء كثيرة لا أراها توجب إكفاراً ، وإخراج الملة أمر لا يشبهه شيء فينبغي الاتماد في هذا الباب مهما أمكن .

سواء : سواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى  
تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، في أربعة أيام سواء للسائلين ، بمعنى مستوية ،  
وهو لا يثني ولا يجمع وقد استغنوا عن تثنيته بتثنية سي إلا شذوذا

ءأندرتهم : والإنذار إعلام بالمخوف للاحتراز عنه والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه  
على المعاصي .

والاقتصار عليه لأنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلا ولأن الإنذار أوقع في القلوب وأشد تأثيرا في  
النفوس فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع فحيث لم يتأثروا به فلأن لا يرفعوا للبشارة رأسا  
أولى

ختم : الختم والكتم أخوان لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتما له وتغطيه  
لغلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه

قلوبهم : والقلوب جمع قلب وهو في الأصل مصدر سمي به الجسم الصنوبري المودع في  
التجويف الأيسر من الصدر  
وقال الشاعر :

قد سمي القلب قلبا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل  
وهو العضو الرئيس الذي هو منشأ الحرارة الغريزية الممدة للجسد كله ويكنى بصلاحه وفساده  
عن صلاح صاحبه أو فساده قال صلى الله تعالى عليه وسلم ألا وإن في الجسد مضغة إذا  
صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب .  
وكثير من الناس ذهب إلى أن تلك المضغة هي محل العلم وقيل إنه في الدماغ وقيل إنه مشترك  
بينهما ، وظاهر النصوص تدل على أن العقل في القلب ، وأما الدماغ فهو أداة تدير الجسم  
ككل .

سمعهم : السمع إدراك القوة السامعة وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا إذ هو المختوم عليه أصالة

والسمع مصدر سمع سمعا وسماعا ويطلق على قوة مودعة في العصب المفروش في الأذن تدرك بها الأصوات ويعبر به تارة عن نفس الأذن وأخرى عن الفعل نحو إنهم عن السمع لمعزولون

أبصارهم : البصر نور العين وهو ما يبصر به الرائي ويدرك المرئيات كما أن البصيرة نور القلب وهو ما به يستبصر ويتأمل وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار

والأبصار جمع بصر وهو في الأصل بمعنى إدراك العين وإحساسها ثم تجوز به عن القوة المودعة في ملتقى العصبين المجوفتين الواصلتين من الدماغ إلى الحدقتين التي من شأنها إدراك الألوان والأشكال بتفصيل معروف في محله وعن العين التي هي محله وشاع هذا حتى صار حقيقة في العرف لتبادره .

غشاوة : الغشاوة الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابه والعمامة وتنكيرها للتفخيم والتهويل وهي على رأي سيويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ما قبلها .

عذاب : العذاب مثل النكال بناء ومعنى لأنك تقول أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه كما تقول نكل عنه ومنه العذب لأنه يجمع العطش ويردعه بخلاف الملح فإنه يزيد ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخا لأنه ينقخ العطش أي يكسره وفراتا لأنه يرفته على القلب ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذابا وإن لم يكن نكالا أي عقابا يرتدع به الجاني عن المعاودة وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذاب كالتقذية والتمريض وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط

عظيم : ذكر الراغب إن أصل عظم الرجل كبر عظمه ثم استعير لكل كبير وأجرى مجراه محسوسا كان أو معقولا معنى كان أو عينا والعظيم إذا استعمل في الأعيان فأصله أن يقال في الأجزاء المتصلة والكبير يقال في المنفصلة وقد يقال فيها أيضا عظيم وهو بمعنى كبير كجيش عظيم .

والفرق بين العظيم والكبير أن العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فكأن العظيم فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير ويستعملان في الجثث والأحداث جميعا تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره .

### الآثار

تقدم حديث عبد الله بن عمرو وفيه قوله ﷺ : إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم إلى قوله عظيم هؤلاء أهل النار قلنا لسنا هم يا رسول الله قال أجل .

وعن ابن عباس في قوله إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ونحو هذا من القرآن قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول

وعن ابن عباس في قوله إن الذين كفروا أي بما أنزل إليك وإن قالوا إنا قد آمننا بما جاء من قبلك سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون أي أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق لك فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا وتخويفا وقد كفروا بما عندهم من نعتك ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة أي عن الهدى أن يصيبوه أبدا بغير ما كذبوا به من الحق الذي جاءك من ربك حتى يؤمنوا به وأن آمنوا بكل ما كان قبلك ولهم بما هو عليه من خلافك عذاب عظيم فهذا في الأحبار من يهود

وعن أبي العالية في قوله إن الذين كفروا قال نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب وهم الذين ذكرهم في هذه الآية ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا إبراهيم الآية ٢٨ قال

فهم الذين قتلوا يوم بدر ولم يدخل من القادة أحد في الإسلام إلا رجلا ن أبو سفيان والحكم بن أبي العاص

و عن السدي في قوله أنذرتم أم لم تنذرهم قال وعظمتهم أم لم تعظمهم وعن قتادة في قوله إن الذين كفروا سواء عليهم أنذرتم أم لم تنذرهم لا يؤمنون قال أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم فحتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون

وعن حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأبي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا .... أخرجه مسلم في صحيحه ضمن حديث طويل .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . أخرجه أحمد والترمذي و النسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وغيرهم وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم وسكت الذهبي . وصححه أحمد شاكر والألباني .

وعن ابن عباس في الآية قال الختم على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم وعن ابن مسعود قال ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا يعقلون ولا يسمعون وجعل على أبصارهم يقول أعينهم غشاوة فلا يبصرون

وعن السدي بأسانيد في قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم يقول فلا يعقلون ولا يسمعون يقول وجعل على أبصارهم غشاوة يقول على أعينهم فلا يبصرون

عن ابن جريج قال الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر قال الله تعالى فإن يشأ الله يختم على قلبك وقال وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل  
ختم الله على قلوبهم قال طبع الله عليها قال وهل تعرف العرب ذلك قال أما سمعت  
الأعشى وهو يقول :

وصهباء طاف يهود بها فأبرزها وعليها ختم

وعن السدي ختم الله أي طبع الله

وعن قتادة في هذه الآية استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى  
سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون  
وعن مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل  
نواحيه حتى تلتقي عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم .

وعن مجاهد : الران أيسر من الطبع والطبع أيسر من الإقفال والإقفال أشد من ذلك كله  
وقال الأعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب في مثل هذه يعني الكف فإذا  
أذنب العبد ذنبا ضم منه وقال بأصبعه الخنصر هكذا فإذا أذنب ضم وقال بإصبع أخرى فإذا  
أذنب ضم وقال بإصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها ثم قال يطبع عليه بطابع وقال  
مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرين .

وعن ابن جريج قال : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى :  
﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ [ الشورى ٢٤ ] وقال : ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل  
على بصره غشاوة ﴾

أقوال المفسرين في معناها

يقول تعالى إن الذين كفروا أي غطوا الحق وستره وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء  
عليهم إنذارك وعدمه فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به كما قال تعالى إن الذين حققت عليهم  
كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم وقال تعالى في حق  
المعاندين من أهل الكتاب ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك الآية  
أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هادي له فلا تذهب نفسك  
عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ومن تولى فلا تحزن عليهم

ولا يهمنك ذلك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب إنما أنت نذير والله على كل شيء  
وكيل

والمعنى الذي ذكرناه أولاً وهو المروي عن بن عباس في رواية علي بن أبي طلحة أظهر ويفسر  
ببقية الآيات التي في معناها والله أعلم

وقوله تعالى لا يؤمنون محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها سواء عليهم أنذرتهم  
أم لم تنذرهم أي هم كفار في كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى لا يؤمنون  
ويحتمل أن يكون لا يؤمنون خبراً لأن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى  
سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم جملة معترضة والله أعلم

ثم قال ابن جرير فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب  
أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها  
مسلك ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى ختم الله  
على قلوبهم وعلى سمعهم نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف  
التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب  
من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها واعلم  
ان الوقف التام على قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وقوله وعلى أبصارهم  
غشاوة جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع والغشاوة وهي الغطاء يكون  
على البصر

وقال بعضهم : في الآية الكريمة إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص  
بأعيانهم فهي من المعجزات الباهرة

واللام في لهم للاستحقاق كما في لهم في الدنيا خزي ولام الاستحقاق هي الواقعة بين  
معنى وذات وهنا كذلك إلا أنه قدم الخبر استحساناً لأن المبتدأ نكره موصوفة ولو أخرج جاز  
مثل قوله وأجل مسمى عنده ويجوز كما قيل أن يكون تقديمه للتخصيص فلا يعذب  
عذابهم أحد ولا يوثق وثاقهم أحد

## المعنى الإجمالي

ذكر الله تعالى الصنف الثاني من أصناف الناس وهم الكافرون المعاندون المظهرون لكفرهم فبين سبحانه أنه كما كان القرآن هدى للمتقين فهؤلاء لا تنفعهم نذارة ولا يجدي معهم هداية ومهما بلغتهم النذر لا يؤمنون حيث إن الله قد أغلق عليهم قلوبهم أن تفقه أو تعي وأسماعهم أن تفهم أو تستجيب وجعل على بصرهم غطاء لا يظهر لهم معه الآيات الباهرات والدلائل الواضحات وكل ذلك بعدله سبحانه وباستحقاق منهم لذلك وسوف يجازيهم بكفرهم آلاما شديدة لا تفارقهم ولا تنقطع عنهم في حياتهم الآخرة .

## الأحكام المستنبطة والمسائل :

### المسألة الأولى :

قال ابن جرير وقال بعضهم إنما معنى قوله تعالى ختم الله على قلوبهم إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق كما يقال إن فلانا أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا قال وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم .

قال ابن كثير : وقد أطنب الزمخشري في تقرير مارد بن جرير ها هنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا وماجرأه على ذلك إلا اعتزله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم قال القرطبي وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال بل طبع الله عليها بكفرهم وذكر حديث تقليب القلوب ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك

قال ابن جرير والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال أبو السعود : وإسناد إحداه تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالى وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقتضاه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم ونحو ذلك

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل وذكروا في ذلك عدة من الأقاويل .

قال الألوسي : وحمل الظاهريون الختم والتغشية على حقيتهما وفوضوا الكيفية إلى علم من لا كيفية له سبحانه وروى عن مجاهد ... فذكر الأثر المتقدم ثم قال : وهو عندي غير معقول والذي ذهب إليه المحققون أن الختم استعير من ضرب الخاتم على نحو الأواني لأحداث هيئة في القلب والسمع مانعة من نفوذ الحق إليهما كما يمنع نقش الخاتم تلك الظروف من نفوذ ما هو بصدد الانصباب فيها

ثم إن إسناد الختم إليه عز وجل باعتبار الخلق ، والذم والتشنيع الذي تشير إليه الآية باعتبار كون ذلك مسببا عما كسبه الكفار من المعاصي كما يدل عليه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم وإلا أشكل التشنيع والذم على ما ليس فعلهم كذا قاله مفسرو أهل السنة عن آخرهم فيما أعلم والمعتزلة لما رأوا أن الآية يلزم منها أن يكون سبحانه مانعا عن قبول الحق وسماعه بالختم وهو قبيح يمتنع صدوره عنه تعالى على قاعدتهم التزموا للآية تأويلات ذكر الزمخشري جملة منها

إلى أن قال : يظهر أن إسناد الختم إليه تعالى باعتبار الإيجاد حقيقة ويحسن الذم لهم به من حيث دلالاته على سوء الاستعداد وقبح ما انطوت عليه ذواتهم .

وأما ما ذكره المفسرون من أن إسناد الختم إليه تعالى الخلق فمسلّم لا كلام لنا فيه وأما أن الذم باعتبار كون ذلك مسببا عما كسبه الكفار إلخ فنقول ... فذكر احتمالات لمعنى ذلك وأورد عليها اعتراضات ثم قال : وإن أرادوا به تحصيل العبد بقدرته الحادثة حسب استعداده الأزلي المؤثرة لا مستقلا بل بإذن الله تعالى ما تعلق به من الأفعال الاختيارية مشيئته التابعة لمشيئة الله تعالى على ما أشرنا إليه فنعمت الإرادة وحبذا السلوك في هذه الجادة .

قال : وأما ذكره المعتزلة لا سيما علامتهم الزمخشري فليس أول عشواء خبطوها وفي مهواة من الأهواء أهبطوها ... ثم رد عليهم ما يستقبحونه من أن يخلق الله فعل العبد ويعاقبه عليه ومما قاله : ويقبح في الشاهد أيضا أن يمكن الإنسان عبده من القبائح والفواحش بمرأى ومسمع ثم يعاقبه على ذلك مع القدرة على رده من الأول عنها وأنتم تقولون إن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى على علم منه عز وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك فهو بمثابة إعطاء سيف بائر لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل ويسبي به الحريم وذلك في الشاهد قبيح جزما فإن قالوا ثم حكمة استأثر الله تعالى بعلمها فرقت بين الغائب والشاهد فحسن من الغائب ذلك التمكين ولم يحسن في الشاهد قلنا على سبيل التنزيل والموافقة لبعض الناس ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى ويعاقب العبد عليها لمصلحة وحكمة استأثر بها كما فرغتم منه الآن حذو القذة بالقذة .

أقول مسألة القدر فرغ منها فقد قال ﷺ : وإذا ذكر القدر فأمسكوا . وقال : لا تزال أمتي بخير ما لم يتكلموا في الولدان والقدر . والنصوص الشرعية في هذه المسألة كثيرة جدا تنظر في أماكنها وقد قال تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر . والقدر سر من أسرار الله عز وجل اختص نفسه به لأنه متعلق بفعله تعالى ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون والله سبحانه لا يظلم الناس شيئا وقد حرم الظلم على نفسه فلن يدخل أحد النار ولن يعاقب أحد إلا وهو مستحق لذلك والله تعالى أعلم .

#### المسألة الثانية :

احتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضي على وجه الأخبار فإنه يستدعي سابقة المخبر عنه لا محالة وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدثه لا يستدعي حدوث الكلام كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم

#### المسألة الثالثة :

الآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذي هو عدم مطابقة أخباره تعالى

للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان باقين على التكليف ولأن من جملة ما كلفوه الإيمان بعدم إيمانهم المستمر والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث أن الأحكام لا تستدعي أغراضا لا سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والإخبار بوقوع الشيء أو بعدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره وليس ما كلفوه الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إجمالا على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم .

#### المسألة الرابعة :

قال الألويسي : وقد ذهب المسلمون إلى أنه يحسن من الله تعالى تعذيب الكفار وهذه الآية وأمثالها شواهد صدق على ذلك وقال بعضهم لا يحسن وذكروا دلائل عقلية مبنية على الحسن والقبح العقليين فقالوا التعذيب ضرر خال عن المنفعة لأنه سبحانه منزه عن أن ينتفع بشيء والعبد يتضرر به ولو سلم انتفاعه فالله تعالى قادر أن يوصل إليه النفع من غير عذاب والضرر الخالي عن النفع قبيح بديهة وأيضا أن الكافر لا يظهر منه إلا العصيان فتكليفه متى حصل ترتب عليه العذاب وما كان مستعقبا للضرر من غير نفع قبيح فيما أن يقال لا تكليف أو تكليف ولا عذاب وأيضا هو الخالق لداعية المعصية فيقبح أن يعاقب عليها وقالوا أيضا هب أنا سلمنا العقاب فمن أين القول بالدوام وأقسى الناس قلبا إذا أخذ من بالغ في الإساءة إليه وعذبه وبالغ فيه وواظب عليه لأمه كل أحد وقيل له إما أن تقتله وترجحه وإما أن تعفو عنه فإذا قبح هذا من إنسان يلتذ بالانتقام فالغني عن الكل كيف يليق به هذا الدوام وأيضا من تاب من الكفر ولو بعد حين تاب الله تعالى عليه أفترى أن هذا الكرم العظيم يذهب في الآخرة أو تسلب عقول أولئك المعذبين فلا يتوبون أو يحسن أن يقول في الدنيا ادعوني أستجب لكم وفي الآخرة لا يجيب دعاءهم إلا اخسؤوا فيها ولا تكلمون

بقي التمسك بالدلائل اللفظية وهي لا تفيد اليقين فلا تعارض الأدلة العقلية المفيدة له على أنا ندعي أن أخبار الوعيد في الكفار مشروطة بعدم العفو وإن لم يكن هذا الشرط المذكورا صريحا كما قال ذلك فيها من جوز العفو عن الفساق على أنه يحتمل أن تكون تلك الجمل

دعائية أو أنها إخبارية لكن الإخبار عن استحقاق الوقوع لا عن الوقوع نفسه وهذا خلاصة ما ذكر في هذا الباب وبسط الإمام الرازي الكلام فيه ولم يتعقبه بما يشرح الفؤاد ويبرد الأكباد وتلك شنشنة أعرفها من أخزم ولعمري أنها شبه تمكنت في قلوب كثير من الناس فكانت لهم الحناس الوسواس فخلعوا ربة التكليف وانحرفوا عن الدين الحنيف وهي عند المؤمنين المتمكنين كصيرير باب أو كطينين ذباب فأقول وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب : ... فأطنب رحمه الله جدا في رد هذه الشبه فليراجعها من شاء ومن تمسك بجبال النصوص الشرعية سلم من هذه الترهات .

#### المسألة الخامسة :

وحد السمع كما وحد البطن في قوله كلوا في بعض بطنكم تعفوا يفعلون ذلك إذا أمن اللبس ولك أن تقول السمع مصدر في أصله والمصادر لا تجمع فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله وفي آذاننا وقر

ويمكن أن تقدر مضافا محذوفا أي وعلى حواس سمعهم

وقيل وحد السمع مع أنه متعدد في الواقع ومقتضى الانتظام بالسباق واللحاق أن يجري على نمطهما للاختصار والتفنن مع الإشارة إلى نكتة هي أن مدركاته نوع واحد ومدركاتها مختلفة وكثيرا ما يعتبر البلغاء مثل ذلك وقيل إن وحدة اللفظ تدل على وحدة مسماة وهو الحاسة ووحدتها تدل على قلة مدركاتها في بادئ النظر على أن الأسماع قلما قرع السمع .

ولأن السمع كالقلب يدرك ما يدركه من جميع الجهات فناسب أن يقرن معه بالختم الذي يمنع من جميعها وإن اختص وقوعه بجانب إلا أنه لا يتعين ولما كان إدراك البصر لا يكون عادة إلا بالمحاذاة والمقابلة جعل المانع ما يمنع منها وهو الغشاوة .

والغشاوة مشهورة في أمراض العين فهي أنسب بالبصر

ولعل سبب تقديم السمع على البصر مشاركته للقلب في التصرف في الجهات الست مثله دون البصر ومن هنا قيل إنه أفضل منه .

هذا والله تعالى أعلم .

## الأسئلة :

١. قرأ الخليل سوء بضم السين مع واو بعدها وهي قراءة متواترة ( خطأ ) .
٢. معنى قراءة الخليل السب والقبح بدل المساواة ( صح ) .
٣. اعترض الزمخشري على قراءة سبعية وهي إبدال الهمزة الثانية ألفاً واعتبرها لحناً ( صح ) .
٤. ثبوت أوجه اللغة العربية بالقراءات أقوى من ثبوتها بالشواهد الشعرية ( صح ) .
٥. أصل الكفر إبطان شيء وإظهار خلافه ( خطأ ) .
٦. الكفر من الستر والتغطية ومنه سمي الزراع بذلك كما في قوله تعالى : [ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ] ( صح ) .
٧. سواء بمعنى الاستواء والتسوية ، وهو لا يثنى ولا يجمع ( صح ) .
٨. الإنذار هو الإعلام بالشيء المخوف ، فهو إعلام مع تخويف ( صح ) .
٩. ذكر الإنذار هنا ولم يذكر البشارة لأن الكفار ليسوا أهلاً للبشارة ( صح ) .
١٠. الختم : هو نهاية الشيء مثل ختامه ( خطأ ) .
١١. أكثر النصوص على أن العقل في القلب والدماغ أداة تدير الجسم ( صح ) .
١٢. القلب هو موضع العلم والهدى والخير والشر في الإنسان ( صح ) .
١٣. غشاوة خير ( وعلى أبصارهم غشاوة ) في محل مبتدأ ( خطأ ) .
١٤. التنوين في ( غشاوة ) للتفخيم والتهويل ( صح ) .
١٥. الغشاوة : التغطية الكاملة الشاملة ( صح ) .
١٦. أصل كلمة ( عظيم ) من كبر عظم الرجل ( صح ) .
١٧. الفرق بين العظيم والكبير أن العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير ( صح ) .
١٨. لما كان النبي ﷺ يحرص على إيمان جميع الناس ويجزن لعدم إيمانهم ، أخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة في الذكر الأول ( صح ) .
١٩. هذه الآية في دليل على أن الختم على القلوب يكون بسبب الكفر فقط ، وأن مجرد المعاصي لا تؤدي إلى الختم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة ( خطأ ) .

٢٠. معنى الآية : أن الذين غطوا الحق وستره وهم الكفار ، وقد كتب الله عليهم ذلك فسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فلن ينفعهم ذلك ولن يؤمنوا بك لأن الله منعهم الهدى والإيمان وختم على قلوبهم وسمعهم ( صح ) .

٢١. جملة ( لا يؤمنون ) جملة مؤكدة لما قبلها ( صح ) .

٢٢. الفعل المضارع في يؤمنون يدل على تحقق الشيء ( خطأ ) .

٢٣. اللام في قوله ( ولهم عذاب أليم ) هي لام الاستحقاق ، ولام الاستحقاق هي التي تقع بين ذات ومعنى . ( صح ) .

٢٤. تقديم الجار والمجرور في ( ولهم عذاب أليم ) للاختصاص ، بمعنى : أن هذا العذاب خاص بهم لا بغيرهم ( صح ) .

٢٥. نقل ابن جرير أن معنى ( ختم الله على قلوبهم ) إلى آخرها إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلان أصم عن سماع هذا الكلام . وضح هذا القول ( خطأ ) .

٢٦. رجح الزمخشري من خمسة أوجه أن معنى ( ختم الله على قلوبهم ) إلى آخرها إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلان أصم عن سماع هذا الكلام ( صح ) .

٢٧. رد ابن كثير كلام الزمخشري في الآية وبين أن هذا بسبب اعتزله لأن الختم على القلوب قبيح عندهم أن يكون من عند الله ، وبين ابن كثير أن هذا من عدل الله سبحانه بسبب تماديهم في الباطل وإعراضهم عن الحق . ( صح ) .

٢٨. الصواب الإمساك عن الكلام في القدر واعتقاد أن الله قدر كل شيء وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته وأنه تعالى لا يظلم أحداً ولن يدخل النار إلا من يستحقها ( صح ) .

٢٩. في الآية دليل على جواز التكليف بما لا يطاق لأن الله كلفهم بالإيمان وأخبر أنهم لا يؤمنون ( خطأ ) .

٣٠. وحد ( السمع ) في الآية وجمع ( الأبصار ) للتنبية على أن مدركات السمع واحدة بخلاف مدركات البصر فهي متعددة ( صح ) .

## المحاضرة الثانية عشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد فموعدنا اليوم مع تفسير الآيات الثامنة والتاسعة والعاشر من سورة البقرة التلاوة

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون

القراءات وتوجيهها

قرأ ابن مسعود وأبو حيوه يخدعون الله والذين آمنوا وهي شاذة .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو من السبعة بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال لمناسبة اللفظ الأول والباقون بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الدال . والمفاعلة هنا إما بمعنى فعل فيتحدان وإما بإبقاء المفاعلة على بابها فهم يخادعون أنفسهم أي يمنونها بالأباطيل وأنفسهم تمنيهم بذلك أيضا .

وقرئ شاذا مرض بإسكان الراء وهي لغة .

وقرأ غير الكوفيين من السبعة يكذبون يضم الياء وبالكاف مفتوحة وتشديد الدال من التكذيب لتكذيبهم الرسل أو من كذب الذي هو مبالغة في كذب كما بولغ في صدق فقيل صدق وقلص الثوب وقلص

أو بمعنى الكثرة كقولهم بركت الإبل أو من قولهم كذب الوحشي إذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ما وراءه لأن المنافق متوقف متردد في أمره ولذلك قيل له مذبذب

وقال عليه السلام مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة .

وقرأ الكوفيون بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الدال من الكذب لإخبار الله عن كذبهم .

وقرئ شاذًا : وما يُخَدِّعون بضم الياء مبنيًا للمفعول ، وكذلك : وما يخادعون بفتح الدال مبنيًا للمفعول أيضا وأيضا وما يُخَدِّعون من خَدَّع مضاعفا مبنيًا للفاعل ، وبعضهم يَخَدِّعون بفتح الياء والخاء وتشديد الدال المكسورة .

مناسبتها

افتتح سبحانه السورة بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ووافق سرهم علمهم وفعلمهم قولهم ثم ثني بالذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا قلوبا وألسنة ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما اظهروا .

ولما كان أمرهم يشتهه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفا لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضا

وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

الناس : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه .

وأصل ناس أناس حذفته همزته تخفيفا

وحذفها مع لام التعريف كاللزام لا يكاد يقال الأناس

ويشهد لأصله إنسان وأناسي وإنس وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون كما سمي الجن لاجتنانهم ، قال تعالى : أنس من جانب الطور نارا أي أبصر .

ووزن ناس فعال لأن الزنة على الأصول

وقيل مأخوذ من الأنس ضد الوحشة لأنسه بجنسه لأنه مدني بالطبع ومن هنا قيل

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وذهب بعضهم إلى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وبعضهم إلى أنه مأخوذ من نسي نقلت لامه إلى موضع العين فصار نيسا ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ويروى عن ابن عباس أنه قال سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسى .

ولام التعريف فيه للجنس ويجوز أن تكون للعهد والإشارة إلى الذين كفروا المار ذكرهم كأنه قيل ومن هؤلاء من يقول وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق

ومن في من يقول موصوفة كأنه قيل ومن الناس ناس يقولون كذا كقوله من المؤمنين رجال إن جعلت اللام للجنس

وإن جعلتها للعهد فموصولة كقوله ومنهم الذين يؤذون النبي .

فإن قلت : كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم قلت الكفر جمع الفريقين معا وصيرهم جنسا واحدا

وكون المنافقين نوعا من نوعي هذا الجنس مغايرا للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء لا يخرجهم من أن يكونوا بعضا من الجنس فإن الأجناس إنما تنوعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض .

واليوم الآخر : يحتمل أن يراد به الوقت الدائم من الحشر بحيث لا يتناهى أو ما عينه الله تعالى منه إلى استقرار كل من المؤمنين والكافرين فيما أعد له وسمي آخر لأنه آخر الأوقات المحدودة والأشبه هو الأول لأن إطلاق اليوم شائع عليه في القرآن سواء كان حقيقة أو مجازا ولأن الإيمان به يتضمن الإيمان بالثاني لدخوله فيه من غير عكس نعم المناسب للفظ اليوم لغة هو الثاني لمحدوديته وهو على كل تقدير مغاير لما عند الناس لأن اليوم عرفا من طلوع الشمس إلى غروبها وشرعا على الصحيح من طلوع الفجر الصادق إلى الغروب واصطلاحا من نصف النهار إلى نصف النهار .

قلت : يطلق اليوم كثيرا ويراد به النهار وليلته وهو ما يستغرق الصلوات الخمس .

يخادعون : الخداع إظهار غير ما في النفس وأصله الإخفاء ومنه سمي البيت المنفرد في المنزل مخدعا لتستر أهل صاحب المنزل فيه .

والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه من قولهم ضب خادع وخدع إذا أمر الحارث يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر والأخدعان عرقان خفيان في موضع المحجمة

ويستعمل في إظهار ما يوهم السلامة وإبطال ما يقتضي الإضرار بالغير أو التخلص منه والمخادعة مفاعلة والمعروف فيها أن يفعل كل أحد بالآخر مثل ما يفعله به .

أنفسهم : جمع نفس وتطلق على الدم لأن قوامها به وعلى المودع في الهيكل القائم به الحياة وعلى الخاطر وهل النفس الروح أم هي غيره فيه خلاف وظاهر النصوص يفيد الاتحاد وفي حقيقة النفس خلاف كثير وتجمع على أنفس ونفوس .

والنفس حقيقة الشيء وعينه يقال عندي كذا نفسا ولا اختصاص لها بالأجسام لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه ثم قيل للقلب نفس لأن النفس به . ويقال للماء نفس لفرط حاجتها إليه قال الله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حي والمراد بالأنفس هاهنا ذواتهم .

يشعرون : والشعور الإدراك بالحواس الخمس الظاهرة ويكون بمعنى العلم قال الراغب شعرت كذا يستعمل بوجهين بأن يؤخذ من مس الشعر ويعبر عنه عن اللمس ومنه استعمل المشاعر للحواس فإذا قيل فلان لا يشعر فذلك أبلغ في الدم من أنه لا يسمع ولا يبصر لأن حس اللمس أعم من حس السمع والبصر وتارة يقال شعرت كذا أي أدركت شيئا دقيقا من قولهم شعرت أي أصبت شعره ومنه أخذ الشاعر لإدراك دقائق المعاني

مرض : المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ويوجب الخلل في أفاعيله ويؤدي إلى الموت استعير هاهنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي إلى الهلاك الروحاني والتنكير للدلالة

على كونه نوعا مبهما غير ما يتعارفه الناس من الأمراض والجملة مقررة لما يفيدته قوله تعالى وما هم بمؤمنين من استمرار عدم إيمانهم أو تعليل له كأنه قيل ما لهم لا يؤمنون فقيل في قلوبهم مرض يمنعه .

أليم : يقال ألم فهو أليم كوجع فهو وجيع ووصف العذاب به نحو قوله تحية بينهم ضرب وجيع وهذا على طريقة قولهم جد جده والألم في الحقيقة للمؤلم كما أن الجد للجداد

يكذبون : والكذب هو الأخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه

الآثار

أخرج أحمد بن منيع في مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة أن قائلا من السلمين قال يا رسول الله ما النجاة غدا قال لا تخدع الله قال وكيف نخدع الله قال أن تعمل بما أمرك به تريد به غيره فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله فإن المرابي ينادى به يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء يا كافر يا فاجر يا خاسر يا غادر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع وقرأ من القرآن فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا الكهف الآية ١١٠ الآية وإن المنافقين يخادعون الله النساء الآية ١٤٢ الآية

وأخرج البيهقي في الشعب عن قيس بن سعد قال لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم المكر والخديعة في النار لكنت أمكر هذه الأمة

عن ابن عباس في قوله ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم

عن ابن عباس أن سورة البقرة إلى المائة منها هي رجال سماهم بأعيانهم وأنسأهم من أحبار يهود ومن المنافقين من الأوس والخزرج

وعن ابن مسعود في قوله ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين قال المراد بهذه الآية المنافقون

و عن قتادة في قوله ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر حتى بلغ وما كانوا مهتدين قال هذه في المنافقين

و عن قتادة في قوله ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية قال هذا نعت المنافق نعت عبدا خائن السريرة كثير الإخلاف يعرف بلسانه وينكر بقلبه ويصدق بلسانه ويخالف بعمله ويصبح على حال ويمسي على غيره ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هب فيها وعن محمد بن سيرين قال لم يكن عندهم أخوف من هذه الآية ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين

و عن يحيى بن عتيق قال كان محمد يتلو هذه الآية عند ذكر الحجاج ويقول أنا لغير ذلك أخوف ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين و عن أبي يحيى قال سألت رجل حذيفة وأنا عنده فقال وما النفاق قال أن تتكلم باللسان ولا تعمل به

و عن ابن جريج في قوله يخادعون الله قال يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دمائهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك

قال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعلة وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه و عن ابن وهب قال سألت ابن زيد عن قوله يخادعون الله والذين آمنوا قال هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا أنهم يؤمنون بما أظهروه وعن قوله وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون قال ما يشعرون بأنهم ضلوا أنفسهم بما أسروا من الكفر والنفاق ثم قرأ يوم يبعثهم الله جميعا قال هم المنافقون حتى بلغ قوله ويحسبون أنهم على شيء المجادلة الآية ١٨

و عن ابن عباس في قوله مرض قال شك فزادهم الله مرضا أي قال شكاً و عن ابن مسعود مثله و عن ابن عباس في قوله في قلوبهم مرض قال النفاق ولهم عذاب أليم قال نكال موجع بما كانوا يكذبون قال يبدلون ويحرفون . وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله تعالى في قلوبهم مرض قال النفاق قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم

أما سمعت قول الشاعر أجمال أقواما حياء وقد أرى صدورهم تغلي علي مرضها قال فأخبرني  
عن قوله ولهم عذاب أليم قال الأليم الموجه قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم  
أما سمعت قول الشاعر نام من كان خليا من ألم وبقيت الليل طولا لم أنم  
وعن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة : في قلوبهم مرض :  
شك

وعن عكرمة : فزادهم الله مرضا قال : زنا .

وعن طاووس : ذلك في بعض أمور النساء .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قلوبهم مرض قال هذا مرض في الدين وليس مرضا في  
الأجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله مرضا قال زادهم  
رجسا وقرأ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم  
رجسا إلى رجسهم قال شرا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم

و عن ابن عباس قال كل شيء في القرآن أليم فهو الموجه

وعن أبي العالية قال الأليم الموجه في القرآن كله

و عن قتادة في قوله مرض قال ريبة وشك في أمر الله فزادهم الله مرضا قال ريبة  
وشكا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون قال إياكم والكذب فإنه من باب النفاق وإنما  
والله ما رأينا عملا قط أسرع في فساد قلب عبد من كبر أو كذب

وعن ابن زيد في قوله في قلوبهم مرض قال هذا مرض في الدين وليس مرضا في الأجساد  
وهم المنافقون و المرض الشك الذي دخل في الإسلام

و عن الربيع في قوله في قلوبهم مرض قال هؤلاء أهل النفاق والمرض في قلوبهم الشك في  
أمر الله عز وجل فزادهم الله مرضا قال شكنا

و عن الضحاك قال العذاب الأليم هم الموجه وكل شيء في القرآن من الأليم فهو الموجه

أقوال المفسرين في معناها

قال ابن كثير : النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر وهو أنواع اعتقادي وهو الذي يخلد  
صاحبه في النار وعملي وهو من أكبر الذنوب .

قلت : وهو المذكور في الحديث الصحيح آية المنافق ثلاث ...

قال : وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأسا في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى في نفسه من الإسلام وأهله فلما كانت وقعة بدر قال هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد هاجر لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر كما قال تعالى إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله إي إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا في نفس الأمر ولهذا يؤكدون في الشهادة بإن ولام التأكيد في خبرها أكدوا أمرهم قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الأمر كذلك كما كذبهم الله في شهادتهم وفي

خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى والله يشهد إن المنافقين لكاذبون وبقوله وما هم بمؤمنين وقوله تعالى يخادعون الله والذين آمنوا أي بإظهارهم ما أظهروه من الأيمان مع إسراهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك وإن ذلك نافعهم عنده وإنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون يقول وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم

وقال ابن كثير في الذي قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما سبق في الآثار : هو حسن وهو الجزاء من جنس العمل وهو نظير قوله تعالى أيضا والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم .

وقد نقل ابن كثير الأثرين المتقدمين عن عكرمة وطاوس بتفسير ذلك بالزنا وتصحف في المطبوعة لفظ : الزنا ب الرياء ، وهو تفسير بعيد هنا وهو أليق بقوله تعالى " فيطمع الذي في قلبه مرض " .

وقال أبو السعود تبعا للزمخشري في قوله : آمننا بالله وباليوم الآخر : تخصيصهم للإيمان بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه وأحاطوا به من طرفيه وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الأصالة والاستحكام وقد دسوا تحته ما هم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن إيمانهم بواحد منهما إيمانا في الحقيقة إذ كانوا مشركين بالله بقولهم عزيز ابن الله وجاحدين باليوم الآخر بقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم فإن ما قالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك إيمانا فكيف وهم يقولونه تمويهها على المؤمنين واستهزاء بهم .

وقيل : اقتصر من متعلق الإيمان على الله واليوم الآخر مع أنهم كانوا يؤمنون بأفواههم بجميع ما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنهما المقصود الأعظم من الإيمان إذ من آمن بالله تعالى على ما يليق بجلال ذاته آمن بكتبه ورسله وشرائعه ومن علم أنه إليه المصير استعد لذلك بالأعمال الصالحة وفي ذلك إشعار بدعوى حياة الإيمان بطرفيه المبدأ والمعاد وما طريقه العقل والسمع ويتضمن ذلك الإيمان بالنبوة أو أن تخصيص ذلك بالذكر للإيدان بأنهم يظنون الكفر فيما ليسوا فيه منافقين في الجملة لأن القوم في المشهور كانوا يهودا وهم مخلصون في أصل الإيمان بالله واليوم الآخر على ظنهم ومع ذلك كانوا ينافقون في كيفية الإيمان بهما ويرون المؤمنين أن إيمانهم بهما مثل إيمانهم فكيف فيما يقصدون به النفاق المحض وليسوا مؤمنين به أصلا كنبوة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم والقرآن أو أنهم قصدوا بتخصيص الإيمان بهما التعرض بعدم الإيمان بخاتم الرسل صلى الله تعالى عليه وسلم وما بلغه ففي ذلك بيان لمزيد خبثهم وهذا لو قصد حقيقته حينئذ لم يكن إيمانا لأنه لا بد من الإقرار بما جاء به صلى الله تعالى عليه وسلم فكيف وهو مخادعة وتلبيس .

وقيل إنه لما كان غرضهم المبالغة في خلوص إسلامهم بأنهم تركوا عقائدهم التي كانوا عليها في المبدأ والمعاد واعترفوا أنهم كانوا في ضلال خصوا إيمانهم بذلك لأنهم كانوا قائلين بسائر الأصول وأما النبوة فليس في الإيمان بها اعتراف بذلك وأيضا ترك الراسخ في القلب مما عليه الإباء بترك الإيمان به صلى الله تعالى عليه وسلم من المسلمات فكأنهم لم يتعرضوا له للإشارة إلى أنه مما لا شبهة في أنهم معتقدون له بعد اعتقادهم ما هو أشد منه عليهم

يخادعون الله والذين آمنوا بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين فقيل يخادعون الله الخ أي يخدعون ... وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة في الكيفية فإن الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعا أو في الكمية كما في الممارسة والمزاولة فإنهم كانوا مداومين على

الخدع

وما يخدعون إلا أنفسهم أي يفعلون ما يفعلون والحال أنهم ما يضررون بذلك إلا أنفسهم فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم أو ما يخدعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها في مهاوي الردى

وقوله تعالى وما يشعرون حال من ضمير ما يخدعون أي يقتصرون على خدع أنفسهم والحال إنهم ما يشعرون أي ما يحسون بذلك لتماديهم في الغواية وحذف المفعول إما لظهوره أو لعمومه أي ما يشعرون بشيء أصلا

في قلوبهم مرض : استعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازا فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول في جوفه مرض

والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك

والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين غلا وحنقا ويغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله : قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ويتحرقون عليهم حسدا : إن تمسككم حسنة تسؤهم

أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور لأن قلوبهم كانت قوية إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به أن ربح الإسلام تهب حينئذ تسكن ولواءه يخفق أياما ثم يقر فضعت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله

وإما لجرائتهم وجسارتهم في الحروب فضعت جبنا وخورا حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة

فزادهم الله مرضا بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب .

وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية لأنهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفرا .

وقيل زيادة الله تعالى مرضهم إما بتضعيف حسدهم بزيادة نعم الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين أو ظلمة قلوبهم بتجدد كفرهم بما ينزله سبحانه شيئا فشيئا من الآيات والذكر الحكيم فهم في ظلمات بعضها فوق بعض أو بتكثير خوفهم ورعبهم المترتب عليه ترك مجاهرهم بالكفر بسبب إمداد الله تعالى الإسلام .  
ونسبة الزيادة إلى الله تعالى فيما تقدم حقيقية فإنه سبحانه الفاعل الحقيقي بالأسباب وبغيرها ولا يقبح منه شيء .

وبعضهم جعل الإسناد مجازا في بعض الوجوه ولعله نزعة اعتزالية وأغرب بعضهم فقال الأسناد مجازي كيفما كان المرض وحمل على أن المراد أنه ليس هنا من يزيدهم مرضا حقيقة مثل قولهم يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا .

وإنما عدى سبحانه الزيادة إليهم لا إلى القلوب فلم يقل فزادها إما ارتكابا لحذف المضاف أي فزاد الله قلوبهم مرضا أو إشارة إلى أن مرض القلب مرض لسائر الجسد أو رمزا إلى أن القلب هو النفس الناطقة ولولاها ما كان الإنسان إنسانا .

وإعادة مرض منكرا لكونه مغايرا للأول ضرورة أن المزيد يغاير المزيد عليه ، والتنكير للتفخيم . بما كانوا يكذبون الباء للسببية أو للمقابلة وما مصدرية داخلية في الحقيقة على يكذبون وكلمة كانوا مقحمة لإفادة دوام كذبهم وتجدده أي بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذي هو قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر وهم غير مؤمنين

المعنى الإجمالي :

ذكر الله تعالى الصنف الثالث من الناس وهم المنافقون وهم وإن كانوا داخلين في الصنف الثاني وهم الكفار من حيث الجملة إلا أنهم تميزوا عنهم بأنهم يدعون الإيمان حيث ينطقون بما يدل عليه وهو أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر وهم في حقيقة الأمر ليسوا بمؤمنين حيث يكذبون في قولهم ذلك ويظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين بذلك الكذب ولا يدركون ولا يحسون أنهم إنما يخدعون أنفسهم لما يترتب على فعلهم من إمهاهم في الدنيا ثم ينالهم العذاب الأليم في الآخرة بسبب كذبهم وقد زادهم الله رجسا إلى رجسهم وكفرا إلى كفرهم بسبب هذه المخادعة .

الأحكام المستنبطة والمسائل :

المسألة الأولى : الألفاظ المذكورة في الآية المتعلقة بالخداع والمخادعة بها إشكالات :  
ما معنى مخادعة المنافقين لله والذين آمنوا والمخادعة تكون من الطرفين والعالم الذي لا تخفي  
عليه خافية لا يخدع والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم  
يجز أن يخدعوا ؟

وما معنى خداعهم لأنفسهم حقيقة ؟ وكيف يصح حصر الخداع على أنفسهم وذلك يقتضي  
نفيه عن الله تعالى والمؤمنين وقد أثبت أولا ؟

في السؤال الأول وجوه أحدها أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان  
وهم كافرون صورة صنع الخادعين

وصورة صنع الله معهم حيث أمر باجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار  
الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم  
حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم

والثاني أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأن من كان  
ادعائه الإيمان بالله نفاقا لم يكن عارفا بالله ولا بصفاته ولا أن لذاته تعلقا بكل معلوم ولا أنه  
غنى عن فعل القبائح فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعا ومصابا بالمكروه  
من وجه خفي وتجويز أن يدلس على عباده ويخدعهم

والثالث أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه خليفته في أرضه والناطق  
عنه بأوامره ونواهيه مع عباده كما يقال قال الملك كذا ورسم كذا وإنما القائل والراسم وزيره أو  
بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه مصداقه قوله

إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق أيديهم

ولا مجال لأن يكون الخدع من أحد الجانبين حقيقة ومن الآخر مجازا لاتحاد اللفظ .

وبعضهم يجعل التعبير هنا بالمخادعة للمشكلة كما في قوله : إن المنافقين يخادعون الله وهو  
خادعهم .

وقد تأتى فاعل بمعنى فعل كعافاني الله تعالى وعاقبت اللص كما قدمنا في البداية .

وفي السؤال الثاني نقول المراد أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررها عائد عليهم فالخداع هنا هو الخداع الأول والحصر باعتبار أن ضرره عائد إلى أنفسهم فتكون العبارة الدالة عليه مجازا أو كناية عن انحصار ضررها فيهم وقد يقال إنهم خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك وخدعتهم حيث حدثتهم بالأماني الخالية فالمراد بالخداع غير الأول

المسألة الثانية :

سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه أكره أن يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وإن قتله إياهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون أن محمدا يقتل أصحابه قال القرطبي وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلف مع علمه بسوء إعتقادهم .

ومنها ما قال مالك إنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام .

ومنها ما قال الشافعي إنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرها أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرا فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم

وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله الآية فهم يخالطونهم في بعض المحشر فإذا حقت المحقوقة تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم وحيل بينهم وبين ما يشتهون ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث .

ومنها ما قاله بعضهم أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله البينات فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون .

قال مالك : المنافق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليوم .

الزنديق : الذي لا يؤمن بالآخرة ووحداية الخالق وهو لفظ فارسي معرب بمعنى القائل ببقاء الدهر .

قال ابن كثير : وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه على أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام

المسألة الثالثة : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المنافقين بأعيانهم ؟

قول من قال كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلماء الليل عند عقبة هناك عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان مدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم الآية وقال تعالى لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول وقد كان من أشهرهم بالنفاق

عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات صلى الله عليه وسلم وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال إني أكره أن تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه وفي رواية في الصحيح إني خيرت فاخترت وفي رواية لو أعلم إني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت .

المسألة الخامسة : قوله بما كانوا يكذبون هل يفيد أنهم كذبوا في الماضي وأقلعوا الآن ؟  
الإتيان بالأفعال المضارعة في أخبار الأفعال الماضية الناقصة أمر مستفيض كأصبح يقول كذا وكادت تزيغ قلوب فريق منهم ومعناه أنه في الماضي كان مستمرا متجددا . وقد عد الاستمرار من معاني كان فلا إشكال في بما كانوا يكذبون حيث دلت كان على انتساب الكذب إليهم في الماضي و في الحال والاستقبال

المسألة السادسة : في حكم الكذب :

قال الألويسي : كل مقصود محمود يمكن التواصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام لعدم الحاجة إليه فإن لم يمكن إلا بالكذب فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا وواجب إن كان واجبا وصرح في الحديث بجوازه في ثلاث مواطن في الحرب وإصلاح ذات البين وكذب الرجل لامرأته ليرضيها ولا حصر ولهذا جاز تلقين الذين أقروا بالحدود الرجوع عن الإقرار فينبغي أن يقابل بين مفسدة الكذب والمفسدة المترتبة على الصدق فإن كانت المفسدة في الصدق أشد ضررا فله الكذب وإن كان عكسه أو شك حرم عليه فما قاله الإمام البيضاوي عفا الله تعالى عنه من أن الكذب حرام كله يوشك أن يكون مما سها فيه وفي الآية تحريض للمؤمنين على ما هم عليه من الصدق والتصديق فإن المؤمن إذا سمع ترتب العذاب على الكذب دون النفاق الذي هو هو تخيل في نفسه تغليظ اسم الكذب وتصور سماجته فانزجر عنه أعظم انزجار .

المسألة السابعة : ذكر أبو حيان أن أمراض القلب في القرآن سبعة وعشرون : الرين والزيغ والطبع والصرف والضيق والحرج والحتم والإقفال والإشراب والرعب والقساوة والإصرار وعدم التطهير والنفور والاشتمزاز والإنكار والشكوك والعمى والإبعاد بصيغة اللعن والتأبي والحمية والبغضاء والغفلة واللهو والارتياب والنفاق وهناك أمراض أخرى ذكرها القرآن مضافة للكفار ومنها الغل والحقد والحسد .

### الأسئلة :

١. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو من السبعة بضم الياء وفتح الحاء وألف بعدها وكسر الدال ( يخادعون ) في الموضعين ، وهي قراءة متواترة ، والمفاعلة هنا إما بمعنى فعل فيتحدان وإما بإبقاء المفاعلة على بابها فهم يخادعون أنفسهم أي يمتونها بالأباطيل وأنفسهم تمنهم بذلك أيضا . ( صح ) .
٢. قرأ ابن مسعود وأبو حيوة ( يخدعون ) في الموضعين وهي قراءة متواترة ( خطأ ) .
٣. وقرأ غير الكوفيين من السبعة يكذبون بالتشديد على معنى المبالغة في الكذب ( صح ) .
٤. وقرئ شاذاً : وما يُخَدِّعون بضم الياء مبني للمفعول ، وكذلك : وما يخادعون بفتح الدال مبني للمفعول أيضا وأيضا وما يُخَدِّعون من خَدَّع مضاعفا مبني للفاعل ، وبعضهم يَخَدِّعون بفتح الياء والحاء وتشديد الدال المكسورة ( صح ) .
٥. هذه الآيات في ذكر المنافقين ، بعد ذكر المؤمنين والكافرين ، ولما كان أمرهم خطيراً ويخفى على الكثير أطنب الله في ذكرهم بصفات كثيرة متنوعة ( صح ) .
٦. الناس اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وأصله من الظهور لأنهم يؤنسون بأبصارهم ، وقيل من الأنس ضد الوحشة ( صح ) .
٧. اللام في ( الناس ) هي لام العهد ولا يجوز أن تكون للجنس ( خطأ ) .
٨. يجوز أن يكون المنافقون بعض الذين كفروا وجزءاً منهم لأنهم اشتروا في الكفر ( صح ) .
٩. الخداع إظهار غير ما في النفس وأصله الإخفاء ومنه سمي البيت المنفرد في المنزل مخدعا لتستر أهل صاحب المنزل فيه ( صح ) .

١٠. المخادعة على وزن مفاعلة وهي تقتضي الفعل من طرف واحد ، أي : يخادعون المؤمنين وأما المؤمنون لا يخادعونهم ( خطأ ) .
١١. الشعور : الإدراك بالحواس الخمس ، وأصله من مس الشعر ، وإذا قيل : فلان لا يشعر كان أبلغ في الذم من قول : لا يبصر أو لا يسمع ( صح ) .
١٢. المرض : العلة والخروج عن الاعتدال مما يوجب الخلل والنقص ( صح ) .
١٣. تنكير ( مرض ) للدلالة على أنه مرض عظيم كبير ( خطأ ) .
١٤. جملة ( في قلوبهم مرض ) مقررة لما سبق كأنه قيل : ما لهم لا يؤمنون ؟ فقيل : لأن في قلوبهم مرض ( صح ) .
١٥. النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر وهو أنواع اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار وعملي وهو من أكبر الذنوب . ( صح ) .
١٦. حديث : آية المنافق ثلاث هو في النفاق الاعتقادي وليس العملي ( خطأ ) .
١٧. لم تنزل الآيات في المنافقين إلا في المدينة لأن مكة لم يكن فيها منافقون ( صح ) .
١٨. تخصيصهم للإيمان بما بالذكر مع تكرير الباء في قولهم ( آمنا بالله واليوم الآخر ) لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه وأحاطوا به من طرفيه ( صح )
١٩. تخصيص ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر دون غيرها من أركان الإيمان يدل على أن المنافقين كانوا يؤمنون ببعض أركان الإيمان ويكفرون ببعض ولذلك لم ينفعهم ذلك ( خطأ ) .
٢٠. حذف المفعول من ( وما يشعرون ) يدل على العموم ( صح ) .
٢١. زيادة الله تعالى مرضهم إما بتضعيف حسدهم بزيادة نعم الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين أو ظلمة قلوبهم بتجدد كفرهم بما ينزله سبحانه شيئاً فشيئاً من الآيات ( صح ) .
٢٢. عدى سبحانه الزيادة إليهم لا إلى القلوب فلم يقل إشارة إلى أن مرض القلب مرض لسائر الجسد ( صح ) .
٢٣. الباء في قوله ( بما كانوا يكذبون ) للمقابلة ولا يجوز أن تكون للسببية ( خطأ ) .

- ٢٤- لم يقتل النبي ﷺ المنافقين مع علمه بأشخاصهم ليبين لأمتة أن الحاكم لا يحكم بعلمه ( صح ) .
- ٢٥- لم يقتل النبي ﷺ المنافقين حتى لا يقع تغير لكثير من الأعراب الذين لا يعلمون الحكمة من قتلهم ( صح ) .
- ٢٦- لم يقتل النبي ﷺ المنافقين لأنه كان يخاف من شرهم ( صح ) .
- ٢٧- الصحيح أن النبي ﷺ لم يكن يعلم أعيان المنافقين ( صح ) .
- ٢٨- قوله ( بما كانوا يكذبون ) بذكر ( كان ) التي للماضي ، فيها دلالة على أنهم قد يؤمنوا في المستقبل وعندها يخرجون من صفة النفاق ( خطأ ) .
- ٢٩- الكذب حرام إلا إذا هناك مصلحة راجحة فيه فيباح ( صح ) .
- ٣٠- ذكر أبو حيان أن أمراض القلوب الواردة في القرآن هي سبعة وعشرون ( صح ) .

## المحاضرة الثالثة عشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فموعدنا اليوم مع تفسير الآيات من سورة البقرة من الحادية عشرة وحتى السادسة عشرة  
وسوف نحاول الاختصار عن منهجنا فيما سبق لمحاولة استيعاب المنهج المقرر وعلى الطالب  
أن يجتهد في استكمال جوانب الآية من المراجع وفق الله الجميع لكل خير

### التلاوة

(وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا  
يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء  
ولكن لا يعلمون وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما  
نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة  
بألهدى فما رحمت تجارتهم وما كانوا مهتدين )

### القراءات وتوجيهها

ليس فيها في المتواتر شيء وكله شاذ ينظر في محله .

### مناسبتها

ما زلنا في استكمال أوصاف صنف المنافقين قال أبو السعود : وإذا قيل لهم لا تفسدوا في  
الأرض شروع في تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق .

### لغويات ( مفردات ، بلاغة )

تفسدوا : الفساد خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعا به ونقيضه الصلاح وهو  
الحصول على الحال المستقيمة النافعة

والفساد في الأرض هيج الحروب والفتن لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة  
عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدينية

قال الله تعالى وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل  
وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يميلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء  
أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم فلما كان ذلك من  
صنيعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم لا تفسدوا كما تقول للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق  
نفسك في النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته

السفهاء : جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حلِيم والسفيه هو الجاهل  
الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء  
في قوله تعالى ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما قال عامة علماء التفسير  
هم النساء والصبيان .

وممن روي عنه ذلك من السلف ابن عباس وابن مسعود وابن عمر والحسن ومجاهد وسعيد  
بن جبير وقتادة .

لقوا : يقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريبا منه .

خلوا : خلوت بفلان واليه إذا انفردت معه ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى وخلاك ذم  
أي عداك ومضى عنك ومنه القرون الخالية .

أو من خلوت به إذا سخرت منه وهو من قولك خلا فلان بعرض فلان يعبث به ومعناه وإذا  
أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدثوهم بها كما تقول أحمد إليك فلانا وأذمه إليك .

والشياطين : جمع تكسير وإجراؤه مجرى الصحيح كما في بعض الشواذ تنزلت به الشياطين  
لغة غريبة جدا والمفرد شيطان وهو فيعال عند البصريين فنونه أصلية من شطن أي بعد لبعده  
عن امتثال الأمر وعند الكوفيين وزنه فعلان فنونه زائدة من شاط يشيط إذا هلك أو بطل أو  
احترق غضبا والأنثى شيطانة . وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الشيطان كل  
متمرد من الجن والإنس والدواب .

مستهزئون : الاستهزاء السخرية والاستخفاف وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع  
وهزأ يهزأ مات على المكان

وعن بعض العرب مشيت فلغبت فظننت لأهزأن على مكاني

وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف

يمدهم : من مد الجيش وأمده إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره وكذلك مد الداوة وأمدها  
زادها ما يصلحها

ومددت السرج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسماذ

ومده الشيطان في الغي وأمدته إذا واصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهماكا فيه  
فإن قلت لم زعمت انه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال قلت كفاك دليلا على  
أنه من المدد دون المد ما روي عن ابن كثير وابن محيصن ويمدهم وقراءة نافع وإخوانهم  
يمدوهم على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مد له مع اللام كأملى له

طغيانهم : والطغيان الغلو في الكفر ومجاوزة الحد في العتو

يعمهون : والعمه مثل العمى إلا أن العمى عام في البصر والرأي والعمه في الرأي خاصة وهو  
التحير والتردد لا يدري أين يتوجه ، وسلك أرضا عمهاء لا منار بها

وقال ابن جرير : العمه الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها إذا ضل قال

وتقول عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه عمه وذهبت إبله العمهاء إذا لم يدر  
أين ذهبت

اشترؤا : معنى اشترؤ الضلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة لأن  
الاشترؤ فيه إعطاء بدل وأخذ آخر

الضلالة : والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء يقال ضل منزله فاستعير للذهاب عن  
الصواب في الدين

ربحت : الربح الفضل على رأس المال ولذلك سمي الشف من قولك أشف بعض ولده على  
بعض إذا فضله

تجارهم : التجارة صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشترى للربح ، وناقة تاجرة كأنها من حسنها وسمنها تبيع نفسها

الآثار :

عن ابن مسعود في قوله وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية

وقال السدي في بأسانيده : وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون قال هم المنافقون أما لا تفسدوا في الأرض قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية .

وعن ابن عباس وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون يقول ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادا

وعن أبي العالية في قوله تعالى وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قال يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة .

وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة

و عن مجاهد في قوله وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون قال إذا ركبوا معصية فليل لهم لا تفعلوا كذا قالوا إنما نحن على الهدى

وعن عباد بن عبد الله الأسدي قال قرأ سلمان هذه الآية وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون قال لم يجئ أهل هذه الآية بعد

وعن ابن عباس في قوله وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قال صدقوا كما صدق أصحاب محمد أنه نبي ورسول وأن ما أنزل عليه حق قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء يعنون أصحاب محمد ألا إنهم هم السفهاء يقول الجهال ولكن لا يعلمون يقول لا يعقلون .

وعن ابن عباس في قوله آمنوا كما من الناس قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي

و عن ابن مسعود في قوله كما آمن السفهاء قال يعنون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

وعن السدي بأسانيده مثله .

وعن الربيع وابن زيد مثله

قوله تعالى وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون

أخرج الواحدي والثعلبي بسند واه عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله فقال عبد الله بن أبي انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فذهب فأخذ بيد أبي بكر فقال مرحبا بالصديق سيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار البازل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر فقال مرحبا بسيد عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله البازل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علي وقال مرحبا بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم افترقوا فقال عبد الله لأصحابه كيف رأيتموني فعلت فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت فأتوا عليه خيرا فرجع المسلمون إلى النبي وأخبروه بذلك فنزلت هذه الآية

و عن ابن عباس في قوله وإذا لقوا الذين آمنوا الآية قال كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي أو بعضهم قالوا إنا على دينكم وإذا خلوا إلى شياطينهم وهم إخوانهم قالوا إنا معكم أي على مثل ما أنتم عليه إنما نحن مستهزئون قال ساخرون بأصحاب محمد الله يستهزئ بهم قال يسخر بهم للنقمة منهم ويمدهم في طغيانهم قال في كفرهم يعمهون قال يترددون

و عن ابن عباس في قوله وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وهم منافقو أهل الكتاب فذكرهم وذكر استهزاءهم وأنهم وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمد ، يقول الله الله يستهزئ بهم في الآخرة يفتح لهم بابا في جهنم من الجنة ثم يقال لهم تعالوا فيقبلون يسبحون في النار والمؤمنون على الأرائك وهي السرر في الحجال ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم فضحك المؤمنون منهم فذلك

قول الله الله يستهزئ بهم في الآخرة ويضحك المؤمنون منهم حين غلقت دونه الأبواب  
فذلك قوله فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون .

وعن ابن عباس في قوله وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أي صاحبكم رسول الله ولكنه  
إليكم خاصة وإذا خلوا إلى شياطينهم من يهود الذين يأمرؤهم بالتكذيب قالوا إنا  
معكم أي إنا على مثل ما أنتم عليه إنما نحن مستهزئون أي إنما نحن مستهزئون بالقوم  
ونلعب بهم .

و عن ابن مسعود في قوله وإذا خلوا إلى شياطينهم قال رؤوسهم في الكفر  
و عن مجاهد في قوله وإذا خلوا إلى شياطينهم قال أصحابهم من المنافقين والمشركين  
و عن قتادة في قوله وإذا خلوا إلى شياطينهم قال إلى إخوانهم من المشركين ورؤوسهم  
وقادتهم في الشر قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون يقولون إنما نسخر من هؤلاء القوم  
ونستهزئ بهم

وعن أبي مالك خلوا يعني مضوا وشياطينهم سادتهم وكبرائؤهم ورؤساءؤهم من أحرار اليهود  
ورؤوس المشركين والمنافقين .

وعن السدي بأسانيده : وإذا خلوا إلى شياطينهم يعني هم رؤساءهم في الكفر .

وعن ابن عباس وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم .

و عن ابن عباس وإذا خلوا إلى شياطينهم من يهود الذين يأمرؤهم بالتكذيب وخلاف ما  
جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

وعن مجاهد وإذا خلوا إلى شياطينهم إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين

وعن قتادة وإذا خلوا إلى شياطينهم قال إلى رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشر

وعن بن عباس قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم  
وكذلك قال الربيع بن أنس و قتادة

وعن السدي بأسانيده : يمدهم يملي لهم .

وعن ابن عباس في طغيانهم يعمهون في كفرهم يترددون

ومثله عن السدي بأسانيده وبه يقول أبو العالية و قتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك

وعبد الرحمن بن زيد في كفرهم وضاللتهم

و عن أبي صالح في قوله الله يستهزئ بهم قال يقال لأهل النار وهم في النار اخرجوا وتفتح لهم أبواب النار فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم فذلك قوله الله يستهزئ بهم ويضحك عليهم المؤمنون حين غلقت دونهم وذلك قوله فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون .

و عن ابن مسعود في قوله ويمدهم قال يملي لهم في طغيانهم يعمهون قال في كفرهم يتمادون

و عن ابن عباس في قوله يعمهون قال يتمادون وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل يعمهون قال يلعبون ويترددون قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت قول الشاعر :

أراني قد عمهت وشاب رأسي وهذا اللعب شين بالكبير

و عن مجاهد في قوله ويمدهم قال يزيدهم في طغيانهم يعمهون قال يلعبون ويترددون في الضلالة

وعن السدي بأسانيده أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى .

وعن مجاهد آمنوا ثم كفروا

و عن ابن عباس في قوله أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال الكفر بالإيمان وعن قتادة في قوله أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال استحبووا الضلال على الهدى فما ربحت تجارتهم قال قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة

و عن وهب قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل تفقهون لغير الدين وتعلمون لغير العمل وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة

أقوال المفسرين في معناها :

قال ابن جرير فيما روي عن سلمان : يحتمل أن سلمان رضي الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لا أنه عني أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد .

قلت : إسناد ما تقدم عن سلمان لا يثبت .

وقال ابن جرير فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا فذلك إفساد المنافقين في الأرض وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها وهذا الذي قاله حسن فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير فقطع الله الموالاتة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا ثم قال إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ولهذا قال تعالى وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء .

يقول تعالى وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه وأطيعوا الله ورسوله في أمثال الأوامر وترك الزواجر

قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء يعنون لعنهم الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم .

يقولون أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال ألا إنهم هم السفهاء فأكد وحصر السفاهة فيهم ولكن لا يعلمون يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى

يقول تعالى وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاتة والمصافاة غرورا منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغرم وإذا خلوا إلى شياطينهم يعني إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم فضمن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به .

قال ابن كثير : ومنهم من قال إلى هنا بمعنى مع والأول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير . قال ابن جرير وشياطين كل شيء مردته ويكون الشيطان من الإنس والجن كما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

وفي المسند عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فقلت يا رسول الله أو للإنس شياطين قال نعم . وقد سبق كلامنا على ذلك في الاستعاذة .

وقوله تعالى جوابا لهم ومقابلة على صنيعهم الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون قال ابن جرير : أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب الآية وقوله تعالى ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما الآية قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل قال وقال آخرون بل استهزأه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ماركبوا من معاصيه والكفر به قال وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به أنا الذي خدعتك ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه قالوا وكذلك قوله تعالى ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين و الله يستهزئ بهم

على الجواب والله لا يكون منه المكر ولا الهزء والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم وقال آخرون قوله تعالى إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم وقوله يخادعون الله وهو خادعهم وقوله فيسخرون منهم سخر الله منهم و نسوا الله فَنسيهم وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الإستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وان اختلف المعنيان كما قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه فالأول ظلم والثاني عدل فهما وان اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما قال وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك قال وقال آخرون إن معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة يعني من العذاب والنكال ثم شرع بن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك

وقال تعالى أيجسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال بعضهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة وقال تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين قال ابن جرير والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم كما قال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون .

وقوله في طغيانهم يعمهون في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون خيارى ضلالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا

والذي قاله قتادة في ذلك يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى .

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أي بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر كما قال تعالى فيهم ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فإنهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أي ما ربحت صفتهم في هذه البيعة وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك

المعنى الإجمالي :

يذكر تعالى طرفا من صفات هؤلاء المنافقين سواء منهم من كان أصلا من أهل الكتاب أو من مشركي العرب فهم يفسدون في الأرض بأفعالهم الخبيثة من إبطان للكفر وموالاته للكافرين وعمل بمعصية الله فإذا نهوا عن ذلك ادعوا أنهم إنما يصلحون بهذه الأفعال تلبيسا على الناصحين لهم فرد الله عليهم بأنه لا إفساد أعظم مما يفعلونه فهم المفسدون حقا وإن كانوا لا يشعرون بذلك فقد فقدوا الإحساس بانغماسهم في هذا النفاق ، وإذا نوصحوا أن يسلكوا طريقة أهل الإيمان الحققة من صحابة رسول الله ﷺ ممن أسلم من مشركي العرب ومن أهل الكتاب استنكروا ذلك ووصفوا هؤلاء الأخيار بالسفه والطيش وخفة العقل فرد الله عليهم بأنه لا سفاهة أعظم من سفاهتهم ولكنهم لا يعلمون حقيقتهم لما أغلقت عليه قلوبهم من كفر ونفاق ، وهم هكذا مع المؤمنين فإذا انفردوا بمرذتهم وعتاة الكفر من يهود أظهروا لهم ما يظنون من كفر وأنهم ما زالوا على العهد معهم وأن ما أظهوره من إيمان بلسانهم إنما هو كيد واستهزاء وسخرية من المؤمنين الصادقين فرد الله عليهم بأن الحقيقة أن الله يعلم سرهم وأنه يملي لهم ويمهلهم ليزدادوا ضلالا وغيا حتى يوقع بهم نكاله ونقمته ويفجؤهم بما يجعلهم محل الاستهزاء والسخرية حقيقة ، فهؤلاء البعداء قد استحقوا ذلك باستبدالهم الإيمان الذي

فطرهم الله عليه وكان في متناولهم بالكفر والعناد فبئس الاختيار ويا خسارة البيع وما أعظمها ضلالة .

الأحكام المستنبطة والمسائل :

المسألة الأولى :

في الآيات نزاعات مع المعتزلة ومن ذلك قول بعضهم إن هذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم : إن التكليف لا يتوجه بدون العلم بالمكلف به وأن الحجة لا تلزم بدون المعرفة فإن الله تعالى أخبر أن ما صنعوا من النفاق إفساد منهم مع عدم العلم فلو كان حقيقة العلم شرطا للتكليف ولا علم لهم به لم يكن صنيعهم إفسادا لأن الإفساد ارتكاب المنهي عنه فدللت الآية على أن التكليف يعتمد قيام آلة العلم والتمكن من المعرفة لا حقيقة المعرفة فيكون حجة عليهم .

وذهبت المعتزلة أن الزيادة في الطغيان والتقوية فيه مما يستحيل نسبتها إليه تعالى حقيقة وحملوا الآية على محامل آخر وحججهم واهية والرد عليها متكرر وسبق بعضه .

المسألة الثانية :

استشكل هذه الآية كثير من العلماء بأنه إذا كان القائل المؤمنين كما هو الظاهر والمجيب المنافقين يلزم أن يكونوا مظهرين للكفر إذا لقوا المؤمنين فأين النفاق وهو المفهوم من السباق والسياق وأجيب بأن هذا الجواب كان فيما بينهم وحكاه الله تعالى عنهم ورده عليهم وليس الجواب ما يقال مواجهة فقط ، وقيل إذا هنا بمعنى لو تحقيقا لإبطانهم الكفر وأنهم على حال تقتضي أنهم لو قيل لهم كذا قالوا كذا كما قيل مثله في قوله وإذا ما لمته وحمدي وقيل إنه كان بحضرة المسلمين لكن مساررة بينهم وأظهره عالم السر والنجوى وقيل كان عند من لم يفش سرهم من المؤمنين لقرابة أو لمصلحة ما .

### المسألة الثالثة :

إن قلت كيف ابتدئ قوله الله يستهزئ بهم ولم يعطف على الكلام قبله قلت هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله فإن قلت فهلا قيل الله مستهزئ بهم ليكون طبقا لقوله إنما نحن مستهزئون قلت لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياها النازلة بهم فإن قلت كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى قلت جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة .

### الأسئلة :

١. الفساد خروج الشيء عن الاستقامة وعدم الانتفاع به ( صح ) .
٢. فساد المنافقين كان بسبب أن كفرهم سبب لهلاك البلاد والعباد ( خطأ ) .
٣. فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم فلما كان ذلك من صنعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم لا تفسدوا كما تقول للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك في النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته ( صح ) .
٤. السفهاء جمع سفيه ، وهو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة ، ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء ( صح ) .
٥. إذا لقوا : إذا اجتمعوا بهم وجلسوا معهم ( خطأ ) .
٦. خلوا : بمعنى انفردوا بهم ( صح ) .
٧. من معاني وإذا خلوا إلى شياطينهم إذا سخرها منهم إلى شياطينهم ( صح ) .

- ٨- الشيطان من شطن بمعنى بعد أو من شاط يشيط إذا احترق ( صح ) .
- ٩- ويمدهم بمعنى أمهلهم وأملى لهم ( خطأ ) .
- ١٠- الطغيان هو مجاوزة الحد في الكفر والمخالفة ( صح ) .
- ١١- يعمهون من العمه ، وهو مثل العمى إلا أنه لا يكون إلا بالقلب ( صح ) .
- ١٢- الضلالة : الجور عن القصد وفقد الاهتداء يقال ضل منزله فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين ( صح ) .
- ١٣- عبر بالشراء في قوله ( اشتروا الضلالة بالهدى ) إشارة إلى ما كانوا يأكلونه من المال بالباطل ( خطأ ) .
- ١٤- الربح : الفضل والزيادة على رأس المال ( صح ) .
- ١٥- المراد بشياطينهم هنا رؤوسهم وأصحابهم في الكفر ( صح ) .
- ١٦- قوله : ألا إنهم هم السفهاء فيه تأكيد وحصر للسفاهة فيهم ( صح ) .
- ١٧- قوله ولكن لا يعلمون : أي : لا يعلمون أنهم هم السفهاء وهذا بسبب ما فيهم من الجهل والعمه ( صح ) .
- ١٨- قوله ( وإذا خلوا إلى شياطينهم ) وفعل خلا لا يتعدى بحرف إلى وإنما يتعدى بحرف الباء من باب استعمال الحروف بعضها بدل بعض ( خطأ ) .
- ١٩- قال بعضهم ( إلى ) هنا بمعنى ( مع ) ورجحه ابن كثير ( خطأ ) .
- ٢٠- الشيطان يكون من الإنس ويكون من الجن ويكون من الحيوان ( صح ) .
- ٢١- استهزاء الله بهم ليس من جنس استهزائهم المذموم والله يتعالى عن ذلك وإنما هو من باب المقابلة على فعلهم فكان من باب العدل وهو ممدوح ( صح ) .
- ٢٢- قوله ( في طغيانهم ) بحرف ( في ) ليدل على انغماسهم في الطغيان وأنه محيط بهم من كل جانب ( صح ) .
- ٢٣- يعمهون ، أي : يعلبون ويترددون ( صح ) .
- ٢٤- معنى الآيات أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال سواء منهم من كان منهم مؤمناً ثم كفر أو من كان كافراً أصلاً فإنهم أنواع ( صح ) .

٢٥. ذهب المعتزلة أن الزيادة في الطغيان والتقوية فيه مما يستحيل نسبتة إليه تعالى حقيقة وحملوا الآية على محامل آخر وحججهم واهية والرد عليها معلوم ( صح ) .
٢٦. استشكل هذه الآية كثير من العلماء بأنه إذا كان القائل المؤمن كما هو الظاهر والمجيب المنافق يلزم أن يكونوا مظهرين للكفر إذا لقوا المؤمنين فأين النفاق وهو المفهوم من السباق والسياق وأجيب بأن هذا الجواب كان فيما بينهم وحكاه الله تعالى عنهم ورده عليهم وليس الجواب ما يقال مواجهة فقط ، وقيل إذا هنا بمعنى لو تحقيقا لإبطانهم الكفر وأنهم على حال تقتضي أنهم لو قيل لهم كذا قالوا كذا ( صح ) .
٢٧. قوله ( الله يستهزئ بهم ) ولم يقل ( مستهزئ بهم ) فيه إشارة إلى أن الله لا يوصف بصفة الاستهزاء ( خطأ ) .
٢٨. عن ابن مسعود في قوله ( وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ) قال : الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية ( صح ) .
٢٩. عن ابن عباس في قوله تعالى : ( قالوا إنما نحن مصلحون ) أي : إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب ( صح ) .
٣٠. عن أبي صالح في قوله ( الله يستهزئ بهم ) قال : يقال لأهل النار وهم في النار اخرجوا وتفتح لهم أبواب النار فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم فذلك قوله ( الله يستهزئ بهم ) ويضحك عليهم المؤمنون حين غلقت دونهم وذلك قوله فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ( صح ) .

## المحاضرة الرابعة عشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فاليوم نتكلم إن شاء الله تعالى عن تفسير الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠ من سورة البقرة

### التلاوة

قال تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير )

### القراءات وتوجيهها

ليس في الآيات خلاف في المتواتر مما يتعلق بالمعنى

### مناسبتها

لما جاء الله سبحانه بحقيقة صفة المنافقين عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفًا لحالهم بعد كشف وإيضاحا بعد إيضاح

وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

مثل : والمثل في أصل كلام العرب بمعنى المثل وهو النظير

يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، والجمع أمثال قال الله تعالى وتلك الأمثال  
نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون

ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل .

استوقد : ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها .

نارا : النار جوهر لطيف مضيء حار محرق ، والنور ضوءها وضوء كل نير وهو نقيض الظلمة  
واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأن فيها حركة واضطرابا والنور مشتق منها .

أضاءت : الإضاءة فرط الإنارة ومصداق ذلك قوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر  
نورا .

حوله : ظرف جعل للدوران والإطافة وقيل للعام حول لأنه يدور .

ذهب بسمعهم : الفرق بين أذهب وذهب به أن معنى أذهب أزاله وجعله ذاهبا

ويقال ذهب به إذا استصعبه ومضى به معه

وذهب السلطان بماله أخذه قال تعالى : فلما ذهبوا به وقال : إذا لذهب كل إله بما خلق .

ومنه ذهب به الخيلاء والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك فلا مرسل له من بعده فهو  
أبلغ من الإذهاب .

وتركهم : ترك بمعنى طرح وخلي إذا تعدى لمفعول واحد فإذا تعدى لمفعولين كان مضمنا معنى  
صير فيجرى مجرى أفعال القلوب .

ظلمات : الظلمة عدم النور وقيل عرض ينافي النور واشتقاقها من قولهم ما ظلمك أن تفعل  
كذا أي ما منعك وشغلك لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية

والصيب المطر الذي يصبوب أي ينزل ويقع ويقال للسحاب صيب أيضا

قال الشماخ : وأسحم دان صادق الرعد صيب

وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل

كما نكرت النار في التمثيل الأول

الرعد : الصوت الذي يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدثها  
الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد .

وقد ثبت في الحديث أنه ملك يسوق السحاب بيده مخراق وهذا الذي يسمع صوته والذي يرى أثر ضرب المخراق وكيفية ذلك غير معلومة لنا فلا تعارض مع ما يدل عليه العلم الحديث .

البرق : هو الذي يلمع من السحاب من برق الشيء بريقا إذا لمع وتقدم أنه أثر المخراق .  
الصواعق : الصاعقة قصفة رعد تنقض معها شقة من نار قالوا تنقح من السحاب إذا اصطكت أجرامه وهي نار لطيفة جديدة لا تمر بشيء إلا آتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود ويقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته فصعق أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق .

وقرأ الحسن من الصواعق وليس بقلب للصواعق لأن كلا البنائين سواء في التصرف تقول صبغته على رأسه وصقع الديك وخطيب مصقع مجهر بخطبته ونظيره جذب في جذب وبنائها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعد نفسه والتاء مبالغة كما في قولك : فلان راوية أو مصدرا كالكاذبة والعافية .

مشوا فيه : المشي جنس الحركة المخصوصة فإذا اشتد فهو سعي فإذا ازداد فهو عدو قاموا : أي وقفوا وثبتوا في مكانهم ومنه قامت السوق إذا ركدت وقام الماء جمدا

#### الآثار

أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما الصيب من ههنا وأشار بيده إلى السماء

عن ابن عباس في قوله مثلهم كمثل الذي استوقد نارا الآية قال هذا ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثوهم ويقاسموهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم في ظلمات يقول في عذاب صم بكم عمي لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه أو كصيب هو المطر ضرب مثله في القرآن فيه ظلمات يقول ابتلاء ورعد وبرق تخويف يكاد البرق يخطف أبصارهم يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين كلما أضاء لهم مشوا فيه يقول كلما أصاب

المنافقون من الإسلام اطمأنوا فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله ومن الناس من يعبد الله على حرف .

و عنه في قوله كمثل الذي استوقد قال ضربه الله مثلاً للمنافق وقوله ذهب الله بنورهم أما النور فهو إيمانهم الذي يتكلمون به وأما الظلمة فهي ضلالهم وكفرهم وفي قوله أو كصيب الآية قال الصيب المطر وهو مثل المنافق في ضوء ما تكلم بما معه من كتاب الله وعمل مراعاة للناس فإذا خلا وحده عمل بغيره فهو في ظلمة ما أقام على ذلك وأما الظلمات فالضلالة وأما البرق فالإيمان وهم أهل الكتاب وإذا أظلم عليهم فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه

و عنه أيضاً مثلهم الآية قال ضرب الله مثلاً للمنافقين يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فتركهم في ظلمات الكفر لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق صم بكم عمي عن الخير فهم لا يرجعون إلى هدى ولا إلى خير وفي قوله أو كصيب الآية يقول هم من ظلمات ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل على الذي هم عليه من الخلاف والتخويف منكم على مثل ما وصف من الذي هو في ظلمة الصيب فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين منزل ذلك بهم من النعمة يكاد البرق يخطف أبصارهم أي لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين ولو شاء الله لذهب بسمعهم أي لما سمعوا تركوا من الحق بعد معرفته .

و عنه قال أما النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك و عن مجاهد في قوله مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً قال أما إضاءة النار بإقبالهم إلى المؤمنين والهدى وذهاب نورهم إقبالهم إلى الكافرين والضلالة وإضاءة البرق على نحو المثل والله محيط بالكافرين قال جامعهم في جهنم

و عن قتادة في قوله مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين

إن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فناكح بها المسلمين ووارث بها المسلمين وغازى بها المسلمين وحقن بها دمه وماله فلما كان عند الموت لم يكن لها أصل في قلبه ولا حقيقة في عمله فسلبها المنافق عند الموت فترك في ظلمات وعمى يتسكع فيها كما كان أعمى في الدنيا عن حق الله وطاعته صم عن الحق فلا يبصرونه فهم لا يرجعون عن ضلالتهم ولا يتوبون ولا يتذكرون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت قال هذا مثل ضربه الله للمنافق لجنبه لا يسمع صوتا إلا ظن أنه قد أتى ولا يسمع صياحا إلا ظن أنه ميت أجبن قوم وأخذله للحق وقال الله في آية أخرى يحسبون كل صيحة عليهم يكاد البرق يخطف أبصارهم الآية قال البرق هو الإسلام و الظلمة هو البلاء والفتنة فإذا رأى المنافق من الإسلام طمأنينة وعافية ورخاء وسلوة من عيش قالوا إنا معكم ومنكم وإذا رأى من الإسلام شدة وبلاء فقحقح عند الشدة فلا يصبر لبلائها ولم يحتسب أجرها ولم يرج عاقبتها إنما هو صاحب دنيا لها يغضب ولها يرضى وكما هو نعتة الله

وقال عطاء الخرساني في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب

و عن عكرمة والحسن والسدي والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخرساني

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب

وقال أيضا : هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون

وعن أبي العالية مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فإنما ضوء النار ما أوقدتها فإذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا إله إلا الله أضاء له فإذا شك وقع في الظلمة

وقال الضحاك ذهب الله بنورهم أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به

وقال الحسن البصري : وتركهم في ظلمات لا يبصرون فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا الله

و عن السدي بأسانيده في قوله مثلهم كمثل الذي استوقد نارا الآية قال إن ناسا دخلوا في الإسلام مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ثم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقى فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدري ما يتقى من أذى فكذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام والخير من الشر بينا هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر فهم صم بكم فهم الخرس فهم لا يرجعون إلى الإسلام وفي قوله أو كصيب الآية قال كان رجلا من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق فجعلوا كلما أصابتهما الصواعق يجعلان أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه وإذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان فجعلوا يقولان ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمد فنضع أيدينا في يده فأصبحا فأتياه فأسلما ووضعنا أيديهما في يده وحسن إسلامهما فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل فيهم شيء أو يذكر بشيء فيقتلوا كما كان ذاك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما كلما أضاء لهم مشوا فيه فإذا كثرت أموالهم وولدهم وأصابوا غنيمة وفتحا مشوا فيه وقالوا إن دين محمد حينئذ صدق واستقاموا عليه كما كان ذاك المنافقان يمشيان إذا أضاء بهما البرق وإذا أظلم عليهم قاموا فكانوا إذا هلكت أموالهم وولدهم وأصابهم البلاء قالوا هذا من أجل دين محمد وارتدوا كفارا كما كان ذاك المنافقان حين أظلم البرق عليهما

من طرق عن ابن عباس في قوله أو كصيب من السماء قال المطر

و عن مجاهد والربيع وعطاء مثله

وعن السدي بأسانيده مثله وكذا قال أبو العالية وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخرساني والربيع بن أنس وقال الضحاك هو السحاب

و عن ابن عباس في قوله يكاد البرق قال يلتمع يخطف أبصارهم ولما يخطف وكل شيء في القرآن يكاد وأكاد وكادوا فإنه لا يكون أبدا  
وعن ابن عباس في قوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم قال لما تركوا من الحق بعد معرفته إن الله على كل شيء قدير قال بن عباس أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير

أقوال المفسرين في معناها :

تقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر فلماذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع والله أعلم

قال الرازي : والتشبيه هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

قال ابن كثير : زعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين والصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ها هنا وهي قوله تعالى ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون فلماذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهموه من كلمة الإيمان أي في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة .

قلت الذي تعقبه ابن كثير هو وجه من وجوه تفسير الآية ولا يتعارض مع الوجه الآخر وهو ظاهر ما روي عن ابن عباس وقتادة والحسن وغيرهم . وقد استدرك بعد ذلك فقال : وأما قول ابن جرير فيشبهه مارواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ... فذكره .

وقوله تعالى ذهب الله بنورهم أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان وتركهم في ظلمات وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق لا يبصرون لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك صم لا يسمعون خيرا بكم لا يتكلمون بما ينفعهم عمي في ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم كصيب والصيب المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع كما قال تعالى يحسبون كل صيحة عليهم وقال ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ولهذا قال يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط بهم ثم قال يكاد البرق يخطف أبصارهم أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان .

كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين

قال ابن كثير : وهو أصح وأظهر والله أعلم وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة وبضياء أخرى ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخالص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم

فالتمسوا نورا وقال في حق المؤمنين يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار الآية وقال تعالى يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

فعن قتادة في قوله تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات الآية ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أو بين صنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه

وعن عبد الله بن مسعود نورهم يسعى بين أيديهم قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نورا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى

وعن ابن عباس قال ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نورا يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين فهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا وعن الضحاك بن مزاحم قال : يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نورا فإذا انتهى إلى الصراط طفىء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا ربنا أتمم لنا نورنا . فإذا تقرر هذا صار الناس أقساما مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل الناري ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم مع الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاج التي كأنها كوكب دري وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق

بعض إذا أخرج يده لم يكذب يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فقسم الكفارها هنا إلى قسمين داعية ومقلد كما ذكرهما في أول سورة الحج ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد وقال ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها وفي سورة الإنسان إلى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان . استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق إما عملي لهذا الحديث أو اعتقادي كما دلت عليه الآية كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله

وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجة فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم فأبي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه .

رواه أحمد وقال ابن كثير : وهذا إسناد جيد حسن

قال ابن جرير إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ومعنى قدير قادر كما معنى عليم عالم

وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون أو في قوله تعالى أو كصيب من السماء بمعنى الواو كقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا أو تكون للتخيير أي أضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا قال القرطبي أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري أن كلا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم .

### المعنى الإجمالي

يضرب الله مثلين للمنافقين لتوضيح حالهم للمؤمنين والتحذير من صنيعهم فمثل من آمن منهم بعد أن كان في ظلمة الكفر فظهر له بصيص من نور الهداية لينتفع به وينفع من حوله فإذا به ينكص على عقبيه فكفر وأعرض فبقي في ظلمات الكفر كما أنه عندما يموت يذهب عنه هذا النور نور الهداية الذي أصبح به مسلما في الظاهر وعاش به المسلمون ولم يجد إلا ظلمة كفره والعياذ بالله كمثل رجل في ظلمة قام بإشعال نار يهتدي بها ويهدي بها من حوله فإذا بهذه النار تتمد وتنطفئ فبقي هو ومن معه في الظلمة حائرين مترددين . فهم في هذه الحال صم عن سماع الحق بكم عن التكلم به عمي عن الاهتداء إليه فهم لا يرجعون إلى الهدى .

والمثل الآخر لمن يعيش منتفعا بين المؤمنين بالإسلام لكنه في ظلمات الكفر الذي يبطنه وبين قوارع الوعيد وتباشير الوعد وما يتحقق منه في الدنيا مما يبهره وما يسمع من تهديد وتبكيك وفضح للمنافقين يخشى في كل لحظة أن يفضح ويؤخذ بجريته كلما أتى خير هرع للمشاركة فيه وإذا جاء بلاء انقلب على وجهه ؛ مثل الله هؤلاء بقوم أصابهم مطر بما يحمله من خير إلا أنه أتاهم وهم في ظلمة لا يبصرون وفيه رعد مفرع وبرق ينير لهم طريقهم وفيه من الصواعق المخيفة بأصواتها المفرعة ما يجعلهم يسدون آذانهم لئلا يسمعوا الصوت وهم مع ذلك في حذر وخوف أن تصيبهم الصاعقة فتهلكهم وهذا البرق من شدة لمعانه يكاد يحطف أبصارهم وكلما جاء ضوءه مشوا واستفادوا منه فإذا انقطع الضوء قاموا في مكانهم .

وهؤلاء الكافرين الله سبحانه محيط بهم وقادر عليهم ولو شاء لأفقدتهم السمع والبصر فهو القدير على كل شيء .

الأحكام المستنبطة والمسائل :

أولا : لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد

ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء قال الله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون .

ثانيا :

قال ابن جرير : صح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت أي كدوران الذي يغشى عليه من الموت وقال تعالى ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا وقال بعضهم تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارا وقال بعضهم المستوقد واحد لجماعة معه وقال آخرون الذي ها هنا بمعنى الذين كما قال الشاعر

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

قال ابن كثير : وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام

ثالثا :

الصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفردة لا يتكلف لواحد شيء يقدر شبهه به وهو القول الفحل والمذهب الجزل بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها

كما جاء في مواضع من القرآن وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها كقوله تعالى مثل الذين حملوا التوراة الآية ، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة وتساوي الحاليتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب وكقوله واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء الآية المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر .

فأما ان يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئا واحدا فلا فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق رابعا : في الآية نكات بلاغية كثيرة نذكر بعضها :

لماذا لم يجمع الرعد والبرق كما قيل ظلمات ؟

قلت فيه وجهان أحدهما أن يراد بهما الجنس ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل يقال رعدت السماء رعدا وبرقت برقا روعي حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع والثاني أن يراد الحدثان كأنه قيل وإرعاد وإبراق وجاءت هذه الأشياء منكرات لأن المراد أنواع منها كأنه قيل فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف .

فإن قلت رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن فهلا قيل أناملهم ؟

قلت هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها كقوله فاغسلوا وجوهكم وأيديكم

فاقطعوا أيديهما أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ

وأیضا ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل مما يعطي انطبعا بمبالغتهم في سد الآذان .

فإن قلت فالأصبع التي تسد بها الأذن أصبع خاصة فلم ذكر الاسم العام دون الخاص ؟

قلت لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بأداب القرآن ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدعاء  
فإن قلت فهلا ذكر بعض هذه الكنايات ؟  
قلت هي ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد وإنما أحدثوها بعد  
فإن قلت كيف قيل مع الإضاءة كلما ومع الإظلام إذا ؟  
قلت لأنهم حريصون على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه فكلما صادفوا  
منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتحبس .

### الأسئلة :

١. الآيات فيها ضرب أمثلة للمناقين بعد ذكر أوصافهم من باب التوضيح والتفصيل ( صح ) .
٢. أصل المثال في كلام العرب من المثل وهو الشبيه والنظير ( صح ) .
٣. الفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه استصحبه ومضى به معه وذهب به أزاله وجعله ذاهبا . ( صح ) .
٤. التنكير والتنوين في ( ناراً ) للتفخيم والتهويل والتنويع ( صح ) .
٥. ترك بمعنى طرح وخلي إذا تعدى لمفعول واحد فإذا تعدى لمفعولين كان مضمنا معنى صير فيجربى مجرى أفعال القلوب ( صح ) .
٦. الصيب : المطر الخفيف الذي ينزل شيئاً فشيئاً ( خطأ ) .
٧. الرعد : ملك يسوق السحاب بيده مخراق وهذا الذي يسمع صوته والذي يرى أثر ضرب المخراق ( صح ) .
٨. الصاعقة قصفة رعد تنقض معها شقة من نار قالوا تنقح من السحاب إذا اصطكت أجرامه وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود ( صح ) .
٩. قرأ الحسن ( من الصواعق ) وهو من باب قلب الكلمة ( خطأ ) .

١٠. هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثوهم ويقاسموهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم في ظلمات ( صح ) .

١١. التشبيه ها هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نورا ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين ( صح ) .

١٢. رجح ابن جرير أن المضروب لهم المثل ها هنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، وقد رجح هذا ابن كثير أيضاً . ( خطأ ) .

١٣. لا تعارض بين ما ذهب إليه ابن جرير من أن المنافقين لم يؤمنوا أصلاً وبين من قال إنهم آمنوا ثم كفروا ( صح ) .

١٤. قال ( ذهب الله بنورهم ) ولم يقل ( بنارهم ) للدلالة على أن الذي ذهب عنهم هو ما ينفعهم من النور والإضاءة وأبقى عليهم ما يضرهم من النار والدخان ( صح ) .

١٥. في الآيات دليل على أن المنافق في حالة خوف دائم ( صح ) .

١٦. قوله ( كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ) إشارة إلى أنهم يعلمون الحق ويتكلمون به أحياناً ثم يرتكسون إلى الكفر والحيرة ( صح ) .

١٧. هكذا المنافقون يوم القيامة يعطون نوراً على قدر ما كانوا يظهرهم من الإيمان في الدنيا فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ ذلك النور ( صح ) .

١٨. ذهب ابن عباس إلى أن المنافق لا يعطى شيئاً من النور أبداً ( صح ) .

١٩. الأرجح أن المنافقين نوعان : منافقون خالص وهم المضروب لهم المثل المائي ومنافقون مترددون وهم المضروب لهم المثل الناري ( خطأ ) .

٢٠. قسم الله الكفار في سورة النور إلى قسمين : داعية ومقلد ، وقسم المؤمنين في أول الواقعة إلى قسمين : مقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار ، فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريهات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضاً صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق ( صح ) .

٢١. قدير : فعيل بمعنى قادر على سبيل المبالغة ( صح ) .

٢٢. وصف الله نفسه في هذا الموضع بالقدرة على كل شيء للإشارة إلى الإيمان والكفر والهدى والضلال بمشيئته سبحانه لا بمشيئة غيره ( خطأ ) .
٢٣. ذهب ابن جرير وغيره إلى أن المثلين هنا لصنف واحد من المنافقين وأن ( أو ) بمعنى الواو أو للتخيير . ( صح ) .
٢٤. ضرب الأمثلة مهم جداً في تقريب المعاني حتى يكون الغيب كالمشاهد ، وقد كثرت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وأخبر سبحانه أنه لا يعقلها إلا العالمون ( صح ) .
٢٥. ذكر الله ( الرعد والبرق ) بالمفرد ولم يجمعهما لأن أصلهما مصدر فروعى الأصل ، والتنكير فيها لأنها أنواع متعددة ( صح ) .
٢٦. ذكر الأصابع مع أن الذي يجعل في الأذن أصبع واحدة من باب المبالغة في سد الآذان ( صح ) .
٢٧. الأصبع التي تسد بها الأذن هي ( السبابة خاصة ) فلم تذكر باسمها لما فيها من معنى ( السب ) وذكرت بالاسم العام ( صح ) .
٢٨. التعبير ب ( إذا ) في قوله ( وإذا أظلم عليهم قاموا ) للدلالة على أن لا يمشون في النور إلا قليلاً وأن حالهم الأكثر الوقوف والحيرة ( خطأ ) .
٢٩. التعبير بظلمات بالجمع فيه إشارة إلى تنوع ظلمات النفاق وأنها ليس ظلمة واحدة لتنوع أسبابها ( صح ) .
٣٠. الصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفردة لا يتكلف لواحد شيء يقدر شبهه به وهو القول الفحل والمذهب الجزل ( صح ) .

## المحاضرة الخامسة عشرة

\*\*\*

التلاوة

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾

القراءات وتوجيهها

ليس فيها قراءات متواترة متعلقة بالمعنى

مناسبتها

لما عدد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات الذي يحرك السامع وينبهه

لغويات ( مفردات ، بلاغة )

يا حرف وضع في أصله لنداء البعيد صوت يهتف به الرجل بمن يناديه وأما نداء القريب فله أي والهمزة ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد فإذا نودي به القريب فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا فإن قلت لمكثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره قلت لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيهِ وعظاته وزواجره ووعدته ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به

كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ

خلقكم : الخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء يقال خلق النعل إذا قدره وسواها بالمقياس  
لعلكم : ولعل للترجي أو الإشفاق تقول لعل زيدا يكرمني ولعله يهينني وقال الله تعالى لعله يتذكر أو يخشى وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن ولكن لأنه إطماع من كريم رحيم إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة لجري إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به ومن ديدن الملوك أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها أن يقولوا عسى ولعل ونحوهما من الكلمات .

أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد كقوله يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم .  
وأهل العلم يقولون : عسى من الله واجبة .

بناء : البناء مصدر سمي به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء وأبنية العرب أخبيتهم ومنه بنى على امرأته لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديدا  
أندادا : الند المثل ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ  
قال جرير

أتيما يجعلون إلي ندا وما تيم لذي حسب نديدا

وناددت الرجل خالفته ونافرته من ند ندودا إذا نفر  
بسورة : والسورة الطائفة من القرآن لتي أقلها ثلاث آيات . وواوها إن كانت أصلا فإما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة كالبلد المسور أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد كاحتواء سور المدينة على ما فيها وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ وهي أيضا في أنفسها مترتبة طوال وأوساط وقصار  
أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين  
وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلائها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه

والشهداء : جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة  
من دون الله : الدون أدنى مكان من الشيء ومنه الشيء الدون وهو الدنيء الحقير ودون  
الكتب إذا جمعها لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها يقال هذا  
دون ذلك إذا كان أحط منه قليلا  
ودونك هذا أصله خذه من دونك أي من أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت في  
الأحوال والرتب فقليل زيد دون عمرو في الشرف والعلم  
واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم  
وقال أمية

يا نفس مالك دون الله من واقى

أي إذا تجاوزت وقاية الله ولم تنالها لم يقك غيره  
والوقود : ما ترفع به النار وأما المصدر فمضموم وقد جاء فيه الفتح والوقود الحطب  
أعدت : هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم  
وفي الآيات مباحث بلاغية ذكرها الزمخشري رحمه الله فلتراجع للفائدة .

الآثار

عن ابن عباس في قوله يا أيها الناس فهي للفريقين جميعا من الكفار والمؤمنين اعبدوا  
قال وحدوا  
وعن السدي في قوله الذي خلقكم والذين من قبلكم يقول خلقكم وخلق الذين من  
قبلكم  
و عن أبي مالك قوله لعلكم يعني كي غير آية في الشعراء لعلكم تخلدون يعني كأنكم  
تخلدون

وعن عون بن عبد الله قال لعل من الله واجب  
و عن مجاهد في قوله لعلكم تتقون قال تطعيون  
و عن الضحاك في قوله لعلكم تتقون قال تتقون النار

وعن السدي بأسانيده في قوله الذي جعل لكم الأرض فراشا قال هي فراش يمشي عليها وهي المهاد والقرار والسماء بناء قال بنى السماء على الأرض كهيئة القبة وهي سقف على الأرض

و عن إياس بن معاوية قال السماء مقببة على الأرض مثل القبة وعن وهب بن منبه قال شيء من أطراف السماء محقق بالأرضين والبحار كأطراف الفسطاط

و عن القاسم بن أبي برة قال ليست السماء مربعة ولكنها مقببة يراها الناس خضراء وعن الحسن أنه سئل المطر من السماء أم من السحاب قال من السماء إنما السحاب علم ينزل عليه الماء من السماء

وعن وهب قال لا أدري المطر أنزل قطره من السماء في السحاب أم خلق في السحاب فأمطر

وعن كعب قال السحاب غربال المطر ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض والبذر ينزل من السماء وعن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبنة أو في البحر لؤلؤة

وعن ابن عباس قال إذا جاء القطر من السحاب تفتحت له الأصداف فكان لؤلؤا وعن ابن عباس قال يخلق الله اللؤلؤ في الأصداف من المطر تفتح الأصداف أفواها عند المطر فاللؤلؤة العظيمة من القطرة العظيمة واللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة .

وعن ابن عباس قال ما نزل مطر من السماء إلا ومعه البذر أما أنكم لو بسطتم نطعا لرأيتموه وهذه الآثار على ما فيها من نظر في أسانيدنا ليس فيها شيء عن النبي ﷺ وليس فيها ما يمكن أن يكون في حكم المرفوع والعلوم الحديثة أثبتت أن المطر إنما ينزل من السحاب وأما اللؤلؤ ففيه تفسيرات لأهل هذا الفن تراجع في محلها ولا علاقة له بالمطر ، والبذور إنما هي في الأرض وليست تنزل من السماء .

وعن المطلب بن حنطب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء

و عن ابن عباس قال المطر مزاجه من الجنة فإذا عظم المزاج عظمت البركة وإن قل المطر وإذا  
قل المزاج قلت البركة وإن كثر المطر

و عن الحسن قال ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وينزل مع المطر  
كذا وكذا من الملائكة ويكتبون حيث يقع ذلك المطر ومن يرزقه وما يخرج منه مع كل قطرة  
وعن ابن عباس فلا تجعلوا لله أندادا أي لا تشركوا به غيره من الأنداد التي لا تضر ولا  
تنفع وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره

وعن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ قال : الأنداد هو الشرك ،  
أخفى من ديبب النمل على صفاً سوداء في ظلمة الليل . وهو أن يقول : والله وحياتك  
يافلانة ، وحياتي ، ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص  
، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها  
فلان هذا كله به شرك .

وعن ابن عباس في قوله الأنداد قال أشباها

وعن ابن مسعود في قوله فلا تجعلوا لله أندادا قال أكفاء من الرجال تطعيونهم في معصية  
الله

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قول الله عز وجل  
أندادا قال الأشباه والأمثال قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم  
أما سمعت قول لبيد

أحمد الله فلا ند له بيده الخير ما شاء فعل

وعن قتادة في قوله فلا تجعلوا لله أندادا أي عدلاء وأنتم تعلمون قال إن الله خلقكم وخلق  
السموات والأرض

و عن مجاهد في قوله فلا تجعلوا لله أندادا أي عدلاء وأنتم تعلمون قال تعلمون أنه إله  
واحد في التوراة والانجيل لا ند له

وقال أبو العالية : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ أي : عدلاء شركاء .

وهكذا قال الربيع بن أنس ، وقتادة ، والسدي ، وأبو مالك ، وإسماعيل بن أبي خالد .

وقال مجاهد : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عوف بن عبد الله قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من المدينة فسمع مناديا ينادي للصلاة فقال الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفطرة فقال أشهد أن لا إله إلا الله فقال خلع الأنداد وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي عن حذيفة ابن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة وعن الحسن في قوله وإن كنتم في ريب الآية قال هذا قول الله لمن شك من الكفار في ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

وعن قتادة في قوله وإن كنتم في ريب قال في شك مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله قال من مثل هذا القرآن حقا وصدقا لا باطل فيه ولا كذب وعن ابن عباس في قوله فأتوا بسورة من مثله قال مثل القرآن وادعوا شهداءكم من دون الله قال ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنه مثله

و عن ابن عباس في قوله وادعوا شهداءكم قال أعوانكم على ما أنتم عليه فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فقد بين لكم الحق وعن أبي مالك : شركاءكم . وعن مجاهد : ناس يشهدون به .

و عن قتادة فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا يقول لن تقدرنا على ذلك ولن تطيقوه وعن ابن مسعود قال إن الحجارة التي ذكرها الله في القرآن في قوله وقودها الناس والحجارة حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء .

و عن ابن عباس في الآية قال هي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار .

وقال السدي بأسانيده ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ أما الحجارة : فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار .  
وقال مجاهد : حجارة من كبريت أنتن من الجيفة .  
وقال أبو جعفر محمد بن علي : حجارة من كبريت .  
وقال ابن جريج : حجارة من كبريت أسود في النار . وقال لي عمرو بن دينار : أصلب من هذه الحجارة ، وأعظم .

و عن عمرو بن ميمون قال هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا فأعدها للكافرين وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وقودها الناس والحجارة فقال أوقد عليها ألف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها وعن أبي هريرة مرفوعا نحوه .

وفي النار وحرها أجازنا الله منها أحاديث كثيرة لا نطيل بذكرها .  
وعن مجاهد قال إن ناركم هذه تعوذ من نار جهنم  
وعن ابن عباس في قوله أعدت للكافرين قال أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر

#### أقوال المفسرين في معناها

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عباده ، بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشا ، أي : مهذا كالفراش ، مقررة موطأة ، مثبتة بالرواسي الشاخحات ، ﴿ والسماء بناء ﴾ وهو السقف . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ [ الأنبياء ٣٢ ] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب هاهنا - في وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقا لهم ولأنعامهم ، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ومن أشبه آية بهذه قوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل

لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴿ ومضمونه : أنه الخالق الرازق ، مالك الدار وساكنيها ، ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم (عند الله) ؟ قال : " أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك " . الحديث .

وكذا حديث معاذ : أتدري ما حق الله على عباده ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا " الحديث . وفي الحديث الآخر : " لا يقولن أحدكم : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شاء فلان " .

وعن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها قال : رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود . فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزيز ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . قال : ثم مررت بنفر من النصارى . فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : هل أخبرت بها أحدا ؟ فقلت : نعم . فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد ، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلت كلمة كان بمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله وحده " .

هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية وأخرجه ابن ماجه وغيره

وعن ابن عباس قال : قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال : " أجعلت لله ندا ؟ قل : ما شاء الله وحده " . رواه ابن مردويه أيضا وأخرجه النسائي وابن ماجه .

قال ابن كثير : هذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم .

فقدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولا لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ثم خلق الأرض

التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطبنة على هذا القرار ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقا لبني آدم ليكون لهم ذلك معتبرا ومتسلقا إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم وأن شيئا من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها فيتقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلهما حتى لا يجعلوا المخلوقات له أندادا وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر

ثم لما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويحققها ويبطل الإشراك ويهدمه وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه وعرفهم أن من أشرك فقد كابر عقله وغضى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه .

فقال مخاطبا للكافرين : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من (مثل) ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله ، فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك .

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن ، فقال في (القصص : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ [ القصص ٤٩ ] وقال في) سورة سبحان : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [ الإسراء ٨٨ ] ، وقال في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [ هود ١٣ ] وقال في سورة يونس : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [ يونس ٣٧-٣٨ ] وكل هذه الآيات مكية .

ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة فقال في هذه الآية : ﴿ وإن كنتم في ريب ﴾ أي : شك ﴿ مما نزلنا على عبدنا ﴾ يعني : محمدا ﷺ . ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ يعني : من مثل القرآن ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره ابن جرير (الطبري ، والزمخشري ، وفخر الدين الرازي ، ونقله عن عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن البصري ، وأكثر المحققين ، ورجح ذلك بوجوه ؛ من أحسنها : أنه تحداهم كلهم ، متفرقين ومجتمعين ، سواء في ذلك أميهم وكتابتهم ، وذلك أكمل في التحدي ، وأشمل من أن يتحدى أحادهم الأميين ، ممن لا يكتب ولا يعاني شيئا من العلوم و) بدليل قوله تعالى : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ وقوله : ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ وقال بعضهم : من مثل محمد ﷺ يعني من رجل أمي مثله ، والصحيح الأول ، لأن التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم ، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ولن (لتأبيد النفي في المستقبل) ، أي : ولن تفعلوا ذلك أبدا ، وهذه أيضا معجزة أخرى وهو أنه أخبر (خبرا جازما قاطعا مُقدِّما غير خائف ولا مشفق ) أن هذا القرآن لا يعارض بمثله (أبد الأبدين ، ودهر الدهرين ) وكذلك (وقع الأمر ، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن) وأنى يتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ؟

وقوله وادعوا شهداءكم قال أبو مالك : شركاءكم . (أي : قوما آخرين يساعدونكم على ذلك أي استعينوا بأهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم) .

وقال مجاهد : ناس يشهدون به ، (يعني حكام الفصحاء) .

( ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى وقد ذكرنا طرفا من ذلك في مادة علوم القرآن .

ولهذا ثبت في الصحيحين : عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : " مامن الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما الذي كان أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " لفظ مسلم .

وقوله ﷺ : " وإنما كان الذي أوتيت (وحيا) " أي : الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة (عند كثير من العلماء) والله أعلم .

وله ﷺ من الآيات الدالة على نبوته ، وصدقه فيما جاء به ، (ما) لا يدخل تحت حصر ، والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ أما الوقود : بفتح الواو ، فهو ما يلقي في النار لإضرارها كالخطب ونحوه ، كما قال : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ [ الجن ١٥ ] وقال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [ الأنبياء ٩٨ ] .

والمراد بالحجارة هاهنا : هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حرا إذا حميت أجارنا الله منها .

(وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ الآية [ الأنبياء ٩٨ ] حكاه القرطبي وفخر الدين ورجحه على الأول . قال : لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بشك فجعلها هذه الحجارة أولى . وهذا الذي قاله ليس بقوي ، وذلك أن النار إذا أضمرت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها ، وأقوى لسعيرها ، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك ، ثم إن أخذ النار في هذه الحجارة أيضا مشاهد ، وهذا الحصب يكون أحجارا تعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك ، وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها ، وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي أوعدوا بها وشدة ضررها وقوة لهبها ، كما قال : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ [ الإسراء ٩٧ ] وهكذا رجع القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمى ، ويشتد لهبها ، قال : ليكون ذلك أشد عذابا لأهلها قال : وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : " كل مؤذ في النار " . قلت : وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف . ثم قال القرطبي : وقد فسر بمعنيين أحدهما : أن كل من يؤذي الناس عذب في النار ، والآخر : كل ما يؤذي فهو في النار يتأذى به أهلها ، من السباع والهوام وغير ذلك) .

وقوله تعالى : ﴿ أعدت للكافرين ﴾ الأظهر أن الضمير في ﴿ أعدت ﴾ عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده إلى الحجارة ، كما قال ابن مسعود ، ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان .  
و﴿ أعدت ﴾ أي : أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله .

### المعنى الإجمالي

يأمر الله تعالى الناس مؤمنهم وكافرهم بإفراده بالعبادة وتوحيده سبحانه المؤمن بالثبات على ذلك والكافر بالدخول فيه لأنه المستحق لذلك حيث رباهم بنعمه بعد أن أوجدتهم من العدم هم ومن قبلهم وجعل لهم الأرض ممهدة سهلة وجعل السماء فوقهم تظلمهم وأنزل عليهم مما فيها من سحب ماء عذبا ينبت لهم به الثمرات التي قوام حياتهم وحياة بهائمهم عليها ونهاهم عن أن يشركوا به شيئا ويدعوا من دونه أولياء وهم يعلمون تفردة بالربوبية المستلزم تفردة بالألوهية .

ثم تحدى الله تعالى كل من كان في شك من هذا القرآن المنزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ أن يجتمعوا جميعا فيأتوا بسورة واحدة تماثل ما جاء فيه في بلاغتها ومعانيها العظيمة وأن يدعوا من يعينهم أو يشهد لهم في ذلك إن كانوا صادقين في دعواهم فإن لم يستطيعوا ذلك وقد علم الله منهم أنهم لن يستطيعوه أبدا فلزم منهم التسليم وأن يسعوا ليجنبوا أنفسهم عقاب الله الأليم في نار إنما توقد وتتوهج ويزاد لهيبها كلما ألقى فيها الناس المستحقون لعذاب الله والحجارة المكونة من الكبريت الذي يزيد النار اشتعالا وتوهجا وهذه النار قد هياها الله تعالى وجهازها لمن كفر به وجحد ما أمر به من توحيده وعبادته .

### الأحكام المستنبطة والمسائل :

أولا : هذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له ، وقد استدل بها كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى ، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى فإن

من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية ، واختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع محكمة ، علم قدرة خالقها وحكمته ، وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه . كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال : يا سبحان الله ! إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنعومات . وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى ، فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ؛ ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ، فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟ فهت القوم ، ورجعوا إلى الحق ، وأسلموا على يديه .

وعن الشافعي : أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طبيعة واحدة ، تأكله الدود فتخرج منه الإبريسم ، وتأكله النحل فتخرج منه العسل ، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا ، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك ، وهو شيء واحد . وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال : هاهنا حصن حصين ، أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن وصوت مريح \_ يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة .

ثانيا : قوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ وفي يونس : ﴿ بسورة مثله ﴾ [ يونس ٣٨ ] يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة ، لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم ، كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين ، كما هو مقرر في موضعه .

فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا ما لا نزاع فيه بين الناس سلفا وخلفا ، قال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

ثالثا : القول بالصرفة والمراد به قول شاذ باطل ومعناه أن العرب كانت لديهم المقدرة على المعارضة ولكن الله سلبهم إياها وقد تطرقنا لذلك في علوم القرآن وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق تشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال : إن كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، ولا في قواهم معارضته ، فقد حصل المدعى وهو المطلوب . وإن كان في قواهم معارضته بمثله ، ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له ، كان دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك . وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا ، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق ، وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر ، وإنا أعطيناك الكوثر .

رابعا :

من الطرائف ما حصل من معارضة مسيلمة الكذاب للقرآن وقد ذكر ابن كثير قصة وردت في ذلك فقال : وقد روي عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ إلى آخرها . ففكر ساعة ثم رفع رأسه ، فقال : فلقد أنزل علي مثلها ! فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقر نقر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أي أعلم أنك تكذب .

وفي كتاب البداية والنهاية طرف من أخبار هذا الكذاب وما هرف به .

خامسا : في قوله تعالى : أعدت للكافرين دليل لأهل السنة والجماعة على أن النار مخلوقة الآن خلافا لمن أنكر ذلك من المعتزلة ومن وافقهم  
[وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية (على) أن النار موجودة الآن لقوله : ﴿ أعدت ﴾ أي : أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها :  
" تحاجت الجنة والنار " ومنها : " استأذنت النار ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضا . فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ونفس في الصيف " . وحديث ابن مسعود : سمعنا وجبة فقلنا ما هذه ؟ فقال رسول الله ﷺ : " هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة ؛ الآن وصل إلى قعرها " . وهو عند مسلم . وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة المعنى في هذا . وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد (البلوطي) قاضي الأندلس .

سادسا : من استدراكات العقلانيين على السلف الصالح ما جاء في الكشف قال الزمخشري: فإن قلت لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقودا قلت لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناما وجعلوها لله أندادا أو عبدوها من دونه قال الله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه .

ثم قال : وقيل هي حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل .

قلت : هذا التخصيص لم يقله السلف الصالح من عند أنفسهم وليس فيه عند التأمل ما يناقض ما ذكره المستدرك لأنه لا يمتنع أن تكون هذه الأصنام قد جعلها الله في الآخرة من حجارة الكبريت ليزداد اشتعالها ، أو أن حجارة الكبريت تلقى في النار مع سائر المعبودات إذ وجودها لا ينافي وجود غيرها والله أعلم .

سابعا : الشرك نوعان : شرك أصغر وشرك أكبر فأما ما كان من قول القائل : ما شاء الله وشئت ولولا الكلب في الدار ونحو ذلك فهو من الشرك الأصغر ولا يخرج من الملة .

وأما الشرك الأكبر فهو صرف العبادة لغير الله سبحانه وهو المخرج من الملة . وفي ذلك تفصيلات تنظر في كتب التوحيد وعلى المسلم الاجتهاد في اجتناب الشرك بنوعيه والله الموفق

ثامنا : إن قلت هل في الآية دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكروية ؟  
قلت : ليس فيه إلا أن الناس يفترضونها كما يفعلون بالمفارش وسواء كانت على شكل السطح أو شكل الكرة فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها . ومسألة كروية الأرض أصبحت من المسلمات الآن وهي عند النظر التي تتوافق مع نصوص القرآن لأن السطح الوحيد الذي يصح أن يطلق عليه فراشا ومهادا وبساطا دائما هو السطح الكروي ولو لم يكن كذلك لكانت له حافة بعدها هاوية مما يتنافى مع هذه الأوصاف .

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

#### الأسئلة :

١. يا : حرف نداء للبعيد بخلاف أي والهمزة فهي لنداء القريب ( صح ) .
٢. النداء بيا التي لنداء البعيد في قوله ( يا أيها الناس ) تدل على بعد المسافة بين المنادي والمنادى مما يدل على بعد ما بين السماء والأرض ( خطأ ) .
٣. النداء بيا التي لنداء البعيد في قوله ( يا أيها الناس ) مع أن الجميع قريب من الله فيها تنزيل القريب منزلة البعيد بجامع الغفلة والسهو وأن ما يأتي من الكلام معني به ومهم له جداً ( صح ) .
٤. كثرة النداء بيا التي للبعيد في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيهِ وعظاته وزواجره ووعدهِ ووعدهِ واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ ( صح ) .

٥. الخلق إيجاد الشيء من عدم على غير مثال سابق ولذلك لا يطلق إلا على الله تعالى ( خطأ ) .

٦. يقول أهل العلم : لعل من الله واجبة ، وذلك لأن أصلها أنها للترجي ، وما يطمع الله به العباد لا بد من وقوعه لأنه هو الكريم سبحانه ( صح ) .

٧. الند هو المماثل ولا يطلق إلا على المثل المخالف ( صح ) .

٨. السورة من القرآن سميت بذلك من سور المدينة لأنها قطعة محدودة كالبلد المحدود بالسور أو أنها من المرتبة والمنزلة ( صح ) .

٩. السورة من السورة وهي بقية الشيء وفضلته سميت به السورة لأنها قطعة من القرآن (صح).

١٠. من دون الله أي : من غير الله ( خطأ ) .

١١. الوقود بالفتح ما توقد به النار ( صح ) .

١٢. الخطاب بيا أيها الناس وإن كان عاماً إلا أنه هنا خاص بالكفار والمنافقين لأنهم هم المقصودون بالأمر بعبادة الله ، وهو من باب ذكر العام وإرادة الخاص ( خطأ ) .

١٣. لعلكم تتقون ، أي : لعلكم تجعلون بينكم وبين عذاب الله وقاية ( صح ) .

١٤. والسماء بناء ، أي : كبناء السقف على الأرض ، وهي كالقبة عليها ( صح )

١٥. الماء ينزل من السماء إلى السحاب ثم ينزل من السحاب إلى الأرض ( صح )

١٦. الماء الذي ينزل من السماء يكون منه النبات في البر واللؤلؤ في البحر ( صح ) .

١٧. عن ابن عباس أن المطر يمزج بماء من الجنة فإن عظم المزاج عظمت البركة وإن قل المطر وإن قل المزاج قلت البركة وإن عظم المطر ( صح ) .

١٨. فلا تجعلوا لله أندادا أي لا تشركوا به غيره من الأنداد التي لا تضر ولا تنفع وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ( صح ) .

١٩. لا تجعلوا لله أنداداً أي : شركاء عدلاء تساؤونهم بالله في اعتقادكم وعبادتكم وكلامكم (صح) .

٢٠. الريب : الكفر والإعراض ( خطأ ) .

٢١. في الآية بيان توحيد الربوبية لأنه هو الأهم المقصود من إرسال الرسل ( خطأ ) .

- ٢٢- من جعل الأنداد مع الله أن يقول الإنسان : ما شاء الله وشاء فلان ، أو لولا الله وفلان وما أشبهه مما فيه تسوية بين الله وخلقه ( صح ) .
- ٢٣- في الآية الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية وأن من أقر أن الله خالق كل شيء يلزمه أن يعبد الله ويوحده في ذلك ( صح ) .
- ٢٤- في الآيات الحجة على نبوة محمد ﷺ وذلك بتحديهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الذي جاء به وأنهم لن يستطيعوا ذلك ولو جمعوا ما جمعوا من الأعوان من الجن والإنس ( صح ) .
- ٢٥- قال ( ولن تفعلوا ) بالنفي للتأييد ، وهذا فيه معجزة واضحة تدل على أن الرسول حق والقرآن حق من عند الله ( صح ) .
- ٢٦- أعدت أي : هيئت وأرصدت .
- ٢٧- الضمير في أعدت يعود إلى النار ، ومن قال : إنه يعود إلى الحجارة فقد جانب الصواب ( خطأ ) .
- ٢٨- قوله : ( فأتوا بسورة من مثله ) وفي يونس ( بسورة مثله ) يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة ، لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم ، كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين ، كما هو مقرر في موضعه .
- فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ( صح ) .
- ٢٩- في الآيات دليل على أن النار مخلوقة الآن ( صح ) .
- ٣٠- استدل بعض الناس بهذه الآية على أن الأرض ليست كروية لأنها كالفرش للناس وكذلك لأن الله ذكرها بقوله ( وإذا الأرض سطحت ) وهذا القول هو الصحيح بخلاف قول المتأخرين من أصحاب علوم الهيئة ( خطأ ) .

## المحاضرة السادسة عشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد فهذه المحاضرة في تفسير الآية رقم ١٦ من سورة البقرة

التلاوة

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ .

القراءات

ليس فيها اختلاف في المتواتر متعلق بالمعنى .

أما مناسبة الآية

فإن الله سبحانه وتعالى من عادته في كتابه الكريم أن يذكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقرار ما يتلف فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة بالثواب الجزيل .

لغويات :

قوله : وبشر : البشارة بالكسر والضم اسم من بشر بشرا وبشورا وتفتح الباء فتكون بمعنى الجمال .

وهي الإخبار بما يظهر سرور المخبر به على بشرته ومن ثم قال العلماء إذا قال لعبيده أيكم بشرني بقدم فلان فهو حر فبشروه فرادى عتق أولهم لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين ولو قال مكان بشرني أخبرني عتقوا جميعا لأنهم جميعا أخبروه ومنه البشارة لظاهر الجلد وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه .

وأما فبشرهم بعذاب أليم . فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه كما يقول الرجل لعدوه أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك ومثله قوله فأعتبوا بالصيلم ، أي السيف

وفي الفعل لغتان التشديد وهي العليا والتخفيف وهي لغة أهل تهامة وقرئ بهما في المضارع منه في مواضع من القرآن الكريم .

الصالحات : الصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم قال الخطيئة

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

والصالحات كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة واللام للجنس

جنات : الجنة في الأصل المرة من الجنن بالفتح مصدر جنه إذا ستره ومدار التركيب على الستر ، ومنه الجن الذي يستتر به المحارب وقوله الصوم جنة وقوله الإمام جنة ونحو ذلك . سمي بها البستان الذي سترت أشجاره أرضه أو كل أرض فيها شجر ونخل فإن كان ما به كرم فاسمه فردوس ، وأطلقت الجنة أيضا على الأشجار نفسها .

ثم نقلت وصارت حقيقة شرعية في دار الثواب إذ فيها من النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما هو مغيب الآن عنا .

وجمعت جمع قلة في المشهور لقلتها عددا كقلة أنواع العبادات ولكن في كل واحدة منها مراتب شتى ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال وما نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها سبع لم يقف على ثبوته الحفاظ وتنوينها إما للتنويع أو للتعظيم

تحتها : تحت ظرف مكان لا يتصرف فيه بغير من والضمير للجنات فإن أريد الأشجار فذاك مع ما فيه قريب في الجملة وإن أريد الأرض قيل من تحت أشجارها ، أو عاد عليها باعتبار الأشجار ، وهو ما يسمى بالاستخدام في البلاغة وقيل إن تحت بمعنى جانب كداري تحت دار فلان وضعف .

وأوتوا : أي جيئوا من أتى بمعنى جاء بخلاف أتى التي بمعنى أعطى وأبهم الفاعل والمراد الخدم من الولدان .

والأنهار : جمع نهر بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح وأصله الشق ، والتركيب للسعة ولو معنوية كنهر السائل بناء على أنه الزجر البليغ فأطلق على ما دون البحر وفوق الجدول وهل هو نفس مجرى الماء أو الماء في المجرى المتسع قولان أشهرهما الأول

وإسناد الجري إلى الأنهار على الأول من الإسناد المجازي كقولهم بنو فلان يطوهم الطريق .  
أزواج : جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى وهو الأفصح فيها قال تعالى : وأصلحنا له زوجه وقال : وأزواجه أمهاتهم ، وقال : ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .  
ويصح أن يقال زوجة وزوجات .

مطهرة : المعنى وجماعة أزواج مطهرة

والتطهير كما قال الراغب يقال في الأجسام والأخلاق والأفعال جميعا فيكون عاما هنا فإن قلت هلا قيل طاهرة قلت في مطهرة فخامة لصفتهن ليست في طاهرة وهي الإشعار بأن مطهرا طهرهن وليس ذلك إلا الله عز وجل المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم .

خالدون : الخلد الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع ، ويطلق على المكث الطويل وإن انقطع .

قال الله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون  
وقال امرؤ القيس

ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالي      وهل ينعمن من كان في العصر الخالي  
وهل ينعمن إلا سعيد مخالد      قليل الهموم ما يبیت بأوجال

الآثار :

أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبخار وابن أبي حاتم وابن حبان وغيرهم عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تزهر وقصر مشيد ونهر مطرد وثمره نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة خضرة وفيرة ونعمة في محلة عالية بهية قالوا نعم يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله قال القوم إن شاء الله .

وأخرج أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه وغيرهم عن أبي هريرة قال قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من فضة وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وملاطها المسك وتراهما الزعفران من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه .

أخرج البزار والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ومجامرهم الألوه وأمشاطهم الذهب تراهما زعفران وطينها مسك .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أرض الجنة بيضاء عرصتها صخور الكافور وقد أحاط به المسك مثل كتبان الرمل فيها أنهار مطردة فيجتمع أهل الجنة أولهم وآخرهم يتعارفون فيبعث الله عليهم ريح الرحمة فتهيج عليهم المسك فيرجع الرجل إلى زوجه وقد ازداد حسنا وطيبا فتقول لقد خرجت من عندي وأنا بك معجبة وأنا بك الآن أشد إعجابا

وأخرج مسلم وغيره عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله ابن صائد عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها

وأخرج البخاري عن أنس قال أصيب حارثة يوم بدر فجاءت أمه فقالت يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة صبرت وإن يكن غير ذلك ترى ما أصنع فقال إنها ليست بجنة واحدة إنها جنان كثيرة وإنه في الفردوس الأعلى

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال والذي أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم إن أهل الجنة ليزدادون حسنا وجمالا كما يزدادون في الدنيا قباحة وهمرا

والأحاديث في فضل الجنة ووصفها ووصف أنهارها وثمارها وحورها كثيرة جدا قد ألف فيها العلماء كتباً مستقلة ومن ذلك كتاب صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني وهو مطبوع وكذا ابن أبي الدنيا وغيرهما .

ومما جاء في قوله تعالى : تجري من تحتها الأنهار :

أخرج ابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمكم تظنون أن أنهار الجنة أهدود في الأرض لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض حافته خيام اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر قلت يا رسول الله ما الأذفر قال الذي لا خلط معه

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن ابن عباس قال إن في الجنة نهرًا يقال له البيدخ عليه قباب من ياقوت تحته جوار نابتات يقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى البيدخ فيجيئون فيتصفحون تلك الجواري فإذا أعجب رجل منهم بجمارية مس معصمها فتبعته وتبنت مكانها أخرى

وأخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والنسائي وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل والضياء المقدسي في صفة الجنة وصححه عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبه الرؤيا الحسنة فجاءت امرأة فقالت يا رسول الله رأيت في المنام كأني أخرجت فأدخلت الجنة فسمعت وجبة التجت لها الجنة فإذا أنا بفلان وفلان حتى عدت اثني عشر رجلا وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قبل ذلك فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم فقيل اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ فغمسوا فيه فخرجوا وجوههم كالقمر ليلة البدر وأتوا بكراسي من ذهب فقعدها عليها وجيء بصحفة من ذهب فيها بسرة فأكلوا من بسره ما شاءوا فما يقبلونها لوجهة إلا أكلوا من فاكهة ما شاءوا فجاء البشير فقال يا رسول الله كان كذا وكذا وأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلا فقال علي بالمرأة فجاءت فقال قصي رؤياك على هذا فقال الرجل هو كما قالت أصيب فلان وفلان

وأخرج البيهقي في البعث عن أبي هريرة قال إن في الجنة نhra طول الجنة حافتاه العذارى قيام  
متقابلات يغنين بأحسن أصوات يسمعها الخلائق حتى ما يرون أن في الجنة لذة مثلها قلنا يا  
أبا هريرة وما ذاك الغناء قال إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس وثناء على الرب .

و عن المعتمر بن سليمان قال إن في الجنة نhra ينبت الجواري الأبقار  
وعن مسروق قال أنهار الجنة تجري في غير أخدود ونخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها  
وثمرها أمثال القلال كلما نرعت ثمرة عادت مكانها أخرى والعنقود اثنا عشر ذراعا  
وأخرج البزار والطبراني عن ثوبان أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينزع رجل  
من أهل الجنة من ثمره إلا أعيد في مكانها مثلاها .

وفي قوله تعالى : كلما رزقوا منه من ثمرة رزقا ... الآية .

عن السدي بأسانيد في قوله كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قال أتوا بالثمره في الجنة  
فينظروا إليها فقالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا  
وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

و عن علي بن زيد كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل يعني به ما  
رزقوا به من فاكهة الدنيا قبل الجنة

و عن قتادة في قوله هذا الذي رزقنا من قبل أي في الدنيا

و عن عكرمة في قوله هذا الذي رزقنا من قبل قال قولهم من قبل معناه مثل الذي كان  
بالأمس .

وكذا قال الربيع بن أنس .

وعن يحيى بن أبي كثير قال : يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ، ثم يؤتى  
بأخرى فيقول : هذا الذي أتينا به من قبل . فتقول الملائكة : كل ، فاللون واحد ، والطعم  
مختلف .

وفي قوله متشابها :

عن ابن عباس : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء .

وفي رواية : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

وعن السدي بأسانيد : وأتوا به متشابها اللون والمرأى وليس يشبه الطعم .

وعن قتادة : وأتوا به متشابها قال يشبه ثمار الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب  
وعن مجاهد في قوله وأتوا به متشابها قال متشابها في اللون مختلفا في الطعم مثل الخيار من  
القضاء

وعن قتادة في قوله وأتوا به متشابها قال خيارا كله لا رذل فيه  
و عن الحسن في قوله وأتوا به متشابها قال خيار كله يشبه بعضه بعضا لا رذل فيه  
ألم تر إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه  
وعن يحيى بن أبي كثير قال : عشب الجنة الزعفران ، وكتبانها المسك ، ويطوف عليهم الولدان  
بالفواكه فيأكلونها ، ثم يؤتون بمثلها ، فيقول لهم أهل الجنة : هذا الذي أتيتمونا آنفا به ،  
فتقول لهم الولدان : كلوا ، فإن اللون واحد والطعم مختلف . وهو قول الله تعالى : ﴿ وأتوا به  
متشابها ﴾ .

وعن أبي العالية : ﴿ وأتوا به متشابها ﴾ قال : يشبه بعضه بعضا ويختلف في الطعم .  
قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد ، والربيع بن أنس ، والسدي نحو ذلك .  
وقال عكرمة : ﴿ وأتوا به متشابها ﴾ قال : يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب .  
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وأتوا به متشابها ﴾ قال : يعرفون أسماءه كما  
كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان ، قالوا في الجنة : ﴿ هذا الذي رزقنا من  
قبل ﴾ في الدنيا ، ﴿ وأتوا به متشابها ﴾ يعرفونه وليس هو مثله في الطعم .

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان قال بينما أسير في  
أرض الجزيرة إذ مررت برهبان وقسيسين وأساقفة فسلمت فردوا السلام فقلت أين تريدون  
فقالوا نريد راهبا في هذا الدير نأتيه في كل عام فيخبرنا بما يكون في ذلك العام لمثله من قابل  
فقلت لآتين هذا الراهب فلأنظرن ما عنده - وكنت معنيا بالكتب - فأتيته وهو على باب  
ديره فسلمت فرد السلام ثم قال ممن أنت فقلت من المسلمين قال أمن أمة محمد فقلت نعم  
فقال من علمائهم أنت أم من جهالهم قلت ما أنا من علمائهم ولا من جهالهم قال فإنكم  
ترعمون أنكم تدخلون الجنة فتأكلون من طعامها وتشربون من شرابها ولا تبولوا ولا تتغوطون  
قلت نحن نقول ذلك وهو كذلك قال فإن له مثلا في الدنيا فأخبرني ماهو قلت مثله كمثل  
الجنين في بطن أمه إنه يأتيه رزق الله ولا يبول ولا يتغوط قال فتربد وجهه ثم قال لي أما

أخبرتني أنك لست من علمائهم قلت ما كذبتك قال فإنكم تزعمون أنكم تدخلون الجنة فتأكلون من طعامها وتشربون من شرابها ولا ينقص ذلك منها شيئاً قلت نحن نقول ذلك وهو كذلك قال فإن له مثلاً في الدنيا فأخبرني ما هو قلت مثله في الدنيا كمثل الحكمة لو تعلم منها الخلق أجمعون لم ينقص ذلك منها شيئاً فتربد وجهه ثم قال أما أخبرتني أنك لست من علمائهم قلت وما كذبتك ما أنا من علمائهم ولا من جهالمهم  
وفي قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ : في قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ قال : من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق . قال ابن كثير : هذا حديث غريب .

وقد رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين .

قال ابن كثير : وهذا الذي ادعاه فيه نظر فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعي قال فيه أبو حاتم بن حبان البستي : لا يجوز الاحتجاج به . قلت : والأظهر أن هذا من كلام قتادة ، والله أعلم .

عن ابن عباس في قوله ولهم فيها أزواج مطهرة قال من القدر والأذى

عن ابن مسعود في قوله ولهم فيها أزواج مطهرة قال لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنخمن

عن مجاهد في قوله ولهم فيها أزواج مطهرة قال من الحيض والغائط والبول والمخاط والنخامة والبزاق والمني والولد

عن عطاء في قوله ولهم فيها أزواج مطهرة قال لا يحضن ولا يمينين ولا يلدن ولا يتغوطن ولا يبلن ولا ييزقن

عن قتادة في قوله ولهم فيها أزواج مطهرة قال طهرهن الله من كل بول وغائط وقدر وماثم وفي رواية عنه : لا حيض ولا كلف .

وروي عن الحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : المطهرة التي لا تحيض . قال : وكذلك خلقت حواء عليها السلام حتى عصت فلما عصت ، قال الله تعالى : إني خلقتك مطهرة ، وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة . قال ابن كثير : وهذا غريب .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا ييصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاتهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا

وأخرج أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وياقوت وزبرجد كما بين الجابية وصنعاء

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنهم تذاكروا الرجال أكثر في الجنة أم النساء فقال ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في الجنة أحد إلا له زوجتان إنه ليرى مخ ساقهما من وراء سبعين حلة ما فيها عذب .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن أبي داود في البعث عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا

وأخرج الترمذي وصححه والبخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يزوج العبد في الجنة سبعين زوجة فليل يارسول الله يطيقها قال يعطى قوة مائة

وأخرج ابن ماجه وابن عدي في الكامل والبيهقي في البعث عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجه اثنتين وسبعين زوجة اثنتين من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل الجنة ما منهن واحدة إلا ولها قبل شهى وله ذكر لا ينثني

وأخرج البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما وملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها - يعني الخمار - خير من الدنيا وما فيها

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وهناد بن السري في الزهد والنسائي وعبد بن حميد في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم قال جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون فقال والذي نفسي بيده إن الرجل ليؤتى قوة مائة رجل منكم في الأكل والشرب والجماع والشهوة قال فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة والجنة طاهرة ليس فيها قدر ولا أذى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض مثل ريح مسك فإذا كان ذلك ضمير له بطنه وأخرج أبو يعلى والطبراني وابن عدي في الكامل والبيهقي في البعث عن أبي أمامة إن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تتناحح أهل الجنة فقال دحما دحما لا مني ولا منية.

و عن أبي الدرداء قال ليس في الجنة مني ولا منية إنما يدحموهن دحما  
و عن طاوس قال أهل الجنة ينكحون النساء ولا يلدن ليس فيها مني ولا منية  
و عن عطاء الخراساني مثله  
و عن إبراهيم النخعي قال في الجنة جماع ما شئت ولا ولد قال فيلتفت فينظر النظرة فتنشأ له الشهوة ثم ينظر النظرة فتنشأ له شهوة أخرى  
وأخرج الضياء المقدسي في صفة الجنة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل أنطأ في الجنة قال نعم والذي نفسي بيده دحما دحما فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا  
وعن عبد الله ابن عمرو قال إن المؤمن كلما أراد زوجته وجدها بكرًا  
أما قوله تعالى وهم فيها خالدون  
عن ابن عباس في قوله وهم فيها خالدون أي خالدون أبدا يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهلهم لا انقطاع له  
و عن سعيد بن جبير في قوله وهم فيها خالدون يعني لا يموتون  
وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل وهم فيها خالدون قال ما كثون لا يخرجون منها أبدا قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت قول عدي بن زيد :

فهل من خالد لما هلكنا وهل بالموت يا للناس عار

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه

وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت في هيئة كبش أملح فيوقف على الصراط فيقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين مخافة أن يخرجوا مما هم فيه فيقال تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت فيقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا مما هم فيه فيقال أتعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح على الصراط فيقال للفريقين خلود فيما تجدون لا موت فيها أبدا

أقوال المفسرين :

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله ، من العذاب والنكال ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصح أقوال العلماء وهو أن يذكر الإيمان ، ويتبعه بذكر الكفر ، أو عكسه ، أو حال (السعداء ، ثم الأشقياء) أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله . وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه ؛ فلهذا قال تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار) كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة .

فإن قلت من المأمور بقوله تعالى وبشر ؟

قلت يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يكون كل أحد كما قال عليه الصلاة والسلام بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة لم يأمر بذلك واحدا بعينه وإنما كل أحد مأمور به وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به .

ومعنى ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي : من تحت أشجارها وغرفها ، وقد جاء في الحديث : " أن أنهارها تجري في غير أخطود " ، وجاء في الكوثر : أن حافته قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما . وطينها المسك الأذفر ، وحصابؤها اللؤلؤ والجوهر . نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم .

قوله هذا الذي رزقنا من قبل : تقديره مثل الذي رزقناه من قبل أي في الدنيا والحكمة في التشابه أن النفس تميل إلى ما يستطاب وتطلب زيادته

أو في الجنة والتشابه في الصورة إما مع الاختلاف في الطعم كما روى عن الحسن إن أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف أو مع التشابه في الطعم أيضا كما يشير إليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم والذي نفس محمد بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي واصلة إلى فيه حتى يبذل الله تعالى مكانها مثلها فلعلهم إذا رأوها على الهيئة الأولى قالوا ذلك والداعي لهم لهذا القول فرط استغرابهم مما وجدوا من التفاوت العظيم والمشهور أن كون المراد بالقبلية في الدنيا أولى مما يقدم في الآخرة لأن كلما تفيد العموم ولا يتصور قولهم ذلك في أول ما قدم إليهم .

وقيل كون المراد بها في الآخرة أولى لئلا يلزم انحصار ثمار الجنة في الأنواع الموجودة في الدنيا مع أن فيها ما علمت وما لم تعلم .

ولا يعكر على دعوى تشابه ما في الدارين ما تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الأسماء لأنه لا يشترط فيه أن يكون من جميع الوجوه وهو حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم وإن لم يكن في المقدار والطعم

فإن قلت لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسا آخر قلت لأن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدم معه إلف ورأى فيه مزية ظاهرة وفضيلة بينة وتفاوتا بينه وبين ما عهد بليغا أفرط ابتهاجه واغتباطه وطال استعجابه واستغرابه وتبين كنه النعمة فيه وتحقق مقدار الغبطة به

ولو كان جنسا لم يعهده وإن كان فائقا حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك فلا يتبين موقع النعمة حق التبين فحين أبصروا النبقة من نبق الدنيا ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها كان ذلك أبين للفضل وأظهر للمزية وأجلب للسرور وأزيد في التعجب .

قلت : ويؤيد التشابه مع ثمار الدنيا ما جاء في قوله تعالى : فيهما فاكهة ونخل ورمان وغير ذلك من الآيات التي ذكرت أصنافا مما في الدنيا وكذا في الحديث قد هم النبي ﷺ أن يأخذ عنقودا من عنبها مع ما تقدم من ذكر نبقها ونحو ذلك .

والمراد بتطهير الأزواج أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة وما لا يختص بهن من الأقدار والأدناس

ويجوز لمجيئه مطلقا أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا مما يكتسبن بأنفسهن ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة ومن سائر عيوبهن ومثالبهن وخبثهن وكيدهن

وقوله تعالى : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، (آمنين) من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء ، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام ، والله تعالى المسئول أن يحشرنا في زمرتهم إنه جواد كريم بر رحيم .

المعنى الإجمالي :

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ وكل من يصح منه هذا الفعل أن يخبر المؤمنين الصادقين الذين صدق عملهم الصالح إيمانهم بما يسرهم ويفرحهم ويدخل البشر عليهم وهو أن الله تعالى أعد لهم جنات عظيمة ذات درجات عالية تجري أنهارها المختلفة طيبة المشارب من تحت أشجارها الملتفة وغرفها المنيفة وهم في هذه البساتين يأتيهم الخدم من الولدان بالثمار التي تشبه في الاسم والمظهر ثمار الدنيا وتختلف عنها في الحقيقة والمخبر فيقولون متعجبين هذا مثل الذي نعرفه من قبل لكنه يختلف عنه اختلافا عظيما وهذه الثمار كما أنها تشبه ثمار الدنيا فيما تقدم هي متشابهة فيما بينها ليس فيها رديء وجيد بل كلها في أعلى الدرجات كما أنها

وإن تشابحت فيما بينها فلكل منها طعم لذيذ مختلف وقد أعد الله جل وعلا لهم في هذه الجنة الأزواج من نساء الدنيا ومن حور الجنان اللاتي خلقهن الله لهم خصيصا قد طهرهن الله من كل أذى فلا حيض ولا براق ولا عرق ولا قدر مع حسن أخلاق وطيب معاشرة ليتمتعوا بجماعهن والتلذذ بهن بلا مني ولا حمل في غير ملالة ولا تعب لا ينقطع عنهم هذا النعيم أبد الأبدين .

ومن مسائل الآية :

المسألة الأولى :

الخلود عند المعتزلة البقاء الدائم الذي لا ينقطع وعندنا البقاء الطويل انقطع أو لم ينقطع والجهمية يزعمون أن الجنة وأهلها يفنيان وكذا النار وأصحابها والذي دعاهم إلى هذا أنه تعالى وصف نفسه بأنه الأول والآخِر والأولية تقدمه على جميع المخلوقات والآخِرية تأخره ولا يكون إلا بقاء السوي ولو بقيت الجنة وأهلها كان فيه تشبيه لمن لا شبيه له سبحانه وهو محال ولأنه إن لم يعلم أنفاس أهل الجنة كان تعالى عن ذلك وإن علم لزم الإنتهاء وهو بعد الفناء ولنا النصوص الدالة على التأييد والعقل معها لأنها دار سلام وقدس لا خوف ولا حزن والمرء لا يهناً بعيش يخاف زواله بل قيل البؤس خير من نعيم زائل والكفر جريمة خالصة فجزاؤها عقوبة خالصة لا يشوبها نقص ومعنى الأول والآخِر ليس كما في الشاهد بل بمعنى لا ابتداء ولا انتهاء له في ذاته من غير استناد لغيره فهو الواجب القدم المستحيل العدم ، والخلق ليسوا كذلك فأين الشبه والعلم لا يتناهى فيتعلق بما لا يتناهى وما أنفاس أهل الجنة إلا كمراتب الأعداد أيقال إن الله سبحانه لا يعلمها أو يقال إنها متناهية .

مسألة أخرى :

يتساءل كثيرون من النساء اللاتي لم يفقهن حقيقة خلق المرأة : الرجل له حور عين فماذا يكون للنساء في الآخرة مقابل ذلك ؟

والكلام في ذلك يطول وخلاصته أن المرأة هي في الحقيقة كما أنها خلقت أصلا للرجل في الدنيا كما دلت على ذلك الدلال المتكاثرة فهي جزء من جزائه في الآخرة ولكنها سوف

تطهر كما في هذه الآية من الحيض والنفاس وسائر قاذورات الدنيا ، وبالتالي سوف تنعم معه في الجنة وتتمتع بما فيها من خيرات ، وتقريبا لذلك مع الفارق أذكر حديث أبي بكر الصديق عن طير الجنة التي ذكر رسول الله ص أنها كأمثال البخت تأكل من شجر الجنة فقال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة فكان جواب النبي ﷺ له : أكلها أنعم منها .  
هذا والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

### الأسئلة :

١. من عادة القرآن الكريم أن يذكر الترغيب مع التهيب وأهل الجنة مقابل أهل الجحيم ليظهر التفاوت بين الحالين فيتشبط الإنسان للإيمان والعمل (صح)
٢. البشارة : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به على بشرته ( صح ) .
٣. قرأ نافع ( أزواج مطهرة ) بالتشديد ، أي : متطهرة ( خطأ ) .
٤. قال العلماء إذا قال لعبيده أيكم بشرني بقدم فلان فهو حر فبشروه فرادى عتقوا جميعا لأنهم جميعا أخبروه بما يظهر السرور في وجهه ( خطأ ) .
٥. قوله تعالى : ( فبشرهم بعذاب أليم ) إنما جاء بلفظ البشارة لأن فيها إظهار السرور على وجوه المؤمنين عندما يرون مصير الكفار ( خطأ ) .
٦. قوله تعالى : ( فبشرهم بعذاب أليم ) فهو من العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ( صح ) .
٧. الصالحات ، أي : الأعمال الصالحات ، واللام فيها للعهد ( خطأ ) .
٨. الجنة مصدر جنه إذا ستره ، ومدار التركيب على الستر ، وتطلق على البستان الذي سترت أشجاره أرضه ( صح ) .
٩. وأوتوا : أي جيئوا من أتى بمعنى جاء بخلاف أتى التي بمعنى أعطى وأبهم الفاعل والمراد الخدم من الولدان ( صح ) .
١٠. الأنهار جمع نهر ، وأصله هو الماء الأقل من ماء البحر ( خطأ ) .

١١. تحتها : تحت ظرف مكان لا يتصرف فيه بغير من والضمير للجنات ، فإن أريد الأشجار فذاك مع ما فيه قريب في الجملة وإن أريد الأرض قيل من تحت أشجارها ( صح )
١٢. أزواج جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ( صح ) .
١٣. قال مطهرة ولم يقل طاهرة لبيان أن الطهارة خاصة لها وصفة لا تنفك عنها ( خطأ ) .
١٤. خالدون : الخلد الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع ، ويطلق على المكث الطويل وإن انقطع ( صح ) .
١٥. قوله : ( وأتوا به متشابهاً ) أي : يشبه ما كان في الدنيا في اللون والشكل ولكن الطعم مختلف ( صح ) .
١٦. تقديم ولهم في قوله ( ولهم فيها أزواج مطهرة ) من باب الاهتمام بالمقدم وهم أهل الجنة ( صح ) .
١٧. أزواج : جمع زوج ، ولا يطلق إلا على الذكر والأنثى زوجة ( خطأ ) .
١٨. طهارة نساء الجنة طهارة عامة في الكلام والهيئة من القدر والأذى وغير ذلك ( صح ) .
١٩. عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخضون ولا يتغوطون أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا ( صح ) .
٢٠. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين قاتلك الله وإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا ( صح ) .
٢١. معنى تسمية القرآن مثاني في أصح أقوال العلماء لأنه يذكر فيه الشيء وما يشبهه ( خطأ ) .
٢٢. المأمور بقوله ( وبشر ) كل أحد فليس هي خاصة في واحد دون واحد ( صح ) .
٢٣. ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة » ( صح ) .

٢٤. ثبت أن أنهار الجنة تجري من غير أخاديد من تحت غرفها وأشجارها وطينها المسك الأذفر ، وحبصاؤها اللؤلؤ والجوهر ( صح ) .

٢٥. الحكمة في تشابه أطعمة الجنة مع ما في الدنيا أن النفس تميل إلى ما يستطاب وتطلب الزيادة منه ( صح ) .

٢٦. (وهم فيها خالدون ) هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، (آمنين) من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء ، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام ( صح ) .

٢٧. الخلود عند المعتزلة البقاء الطويل انقطع أو لم ينقطع وعندنا الدائم الذي لا ينقطع ( خطأ ) .

٢٨. الجهمية يزعمون أن الجنة وأهلها يفنيان وكذا النار وأصحابها والذي دعاهم إلى هذا أنه تعالى وصف نفسه بأنه الأول والآخ والأولية تقدمه على جميع المخلوقات والآخرة تأخره ولا يكون إلا بفناء غيره ( صح ) .

٢٩. معنى الأول والآخ أنه لا ابتداء ولا انتهاء له في ذاته من غير استناد لغيره فهو الواجب القدم المستحيل العدم ( صح ) .

٣٠. في الرد على من يسأل ماذا تأخذ المرأة مقابل أن الرجل له الحور العين في الجنة يقال : المرأة هي في الحقيقة كما أنها خلقت أصلا للرجل في الدنيا كما دلت على ذلك الدلال المتكاثرة فهي جزء من جزائه في الآخرة ولكنها سوف تطهر ، وبالتالي سوف تنعم معه في الجنة وتتمتع بما فيها من خيرات ( صح ) .

## المحاضرة السابعة عشرة

\*\*\*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فمحاضرة اليوم في تفسير الآيتين رقم ٢٦ ورقم ٢٧ من سورة البقرة

التلاوة

﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

المناسبة

مما قيل في مناسبة الآية لما قبلها أنها جواب عن شبهة تورد على القول بأن القرآن معجز فهي من الريب الذي نفي عن الكتاب في بداية السورة .

وقيل إنها متصلة بقوله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا أي لا يستحيي أن يضرب مثلا لهذه الأنداد .

وفي أسباب النزول ما يدل على ارتباطها بما قبلها من الأمثال التي ضربها الله تعالى للمنافقين

القراءات :

ليس فيها شيء في المتواتر يتعلق بالمعنى .

لغويات :

لا يستحيي : الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم وهو مشتق من الحياة لأنه يؤثر في القوة المختصة بالحيوان وهي قوة الحس والحركة .

وجعل الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير منتكس القوة منتقص الحياة كما قالوا هلك فلان  
حياء من كذا ومات حياء ورأيت الهلاك في وجهه من شدة الحياء وذاب حياء وحمد في  
مكانه خجلا

والحياء كما قال الراغب انقباض النفس عن القبائح وهو مركب من جبن وعفة وليس هو  
الخجل بل ذاك حيرة النفس لفرط الحياء فهما متغايران وإن تلازما وقال بعضهم الخجل لا  
يكون إلا بعد صدور أمر زائد لا يريد القائم به بخلاف الحياء فإنه قد يكون مما لم يقع فيترك  
لأجله .

وفي يستحيي لغتان بيباءين وهي المشهورة وبياء واحدة وقرئ بها في الشاذ .  
يضرب مثلا : ضرب المثل اعتماده وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم  
وما : هذه إبهامية وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمتها إبهاما وزادته شياعا وعموما كقولك  
أعطني كتابا ما تريد أي كتاب كان  
أو صلة للتأكيد كالتى في قوله فبما نقضهم ميثاقهم النساء  
كأنه قيل لا يستحيي أن يضرب مثلا حقا أو البتة  
بعوضة :

والبعوضة واحد البعوض وهو طائر معروف وفيه من دقيق الصنع وعجيب الإبداع ما يعجز  
الإنسان أن يحيط بوصفه واشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب يقال  
بعضه البعوض وأنشد

لنعم البيت بيت أبي دثار إذا ما خاف بعض القوم بعضا  
ومنه بعض الشيء لأنه قطعه منه والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطع فغلبت  
وفي البعوض قال الشاعر :

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل  
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

وأما : حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل تأكيد تقول زيد ذاهب فإذا قصدت تأكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت أما زيد فذاهب ولذلك قال سيبويه في تفسيره : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب وهذا التفسير مدل لفائدتين بيان كونه توكيدا وأنه في معنى الشرط ففي إيراد الجملتين مصدرتين به إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء

الحق : الثابت الذي لا يسوغ إنكاره يقال حق الأمر إذا ثبت ووجب وحقت كلمة ربك وثوب محقق محكم النسج

والحق خلاف الباطل وهو في الأصل مصدر حق يحق من باي ضرب وقتل إذا وجب أو ثبت وقال الراغب أصله المطابقة والموافقة ويكون بمعنى الموجد بحسب الحكمة والموجد على وفقها والاعتقاد المطابق للواقع وقيل إنه الحكم المطابق ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتماله على ذلك ولم يفرق في المشهور بينه وبين الصدق إلا أنه شاع في العقد المطابق والصدق في القول كذلك وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع وفي الصدق من جانب الحكم .

أراد : الإرادة نقيض الكراهة وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك وقيل : الإرادة معنى يوجب للحي حالا لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه .

مثلا : نصب على التمييز كقولك لمن أجاب بجواب غث ماذا أردت بهذا جوابا ولمن حمل سلاحا رديا كيف تنتفع بهذا سلاحا أو على الحال كقوله هذه ناقة الله لكم آية والفسق : الخروج عن القصد قال رؤبة

فواسقا عن قصدها جوائرا

والفاسق في اللغة : هو الخارج عن الطاعة أيضا . وتقول (العرب) : فسقت الرطبة ؛ إذا خرجت من قشرتها . ولهذا يقال للفأرة : فويسقة ، لخروجها عن جحرها للفساد . وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم ؛ الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور " .

وهو شرعا خروج العقلاء عن الطاعة فيشمل الكفر ودونه من الكبيرة والصغيرة واختص في العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة فلا يطلق على ارتكاب الآخرين إلا نادرا بقريظة وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان يريد اللمز والتنازع إن المنافقين هم الفاسقون

النقض : الفسخ وفك التركيب فإن قلت من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى إن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرزمة على مكانه

ونحوه قولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس وإذا تزوجت امرأة فاستوثقها لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأتهما أسد وبجر وعلى المرأة بأنها فراش والعهد : الموثق ، وعهد إليه في كذا إذا وصاه به ووثقه عليه واستعهد منه إذا اشترط عليه واستوثق منه

الأمر : طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به فقليل له أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به كما قيل له شأن والشأن الطلب والقصد .

الآثار :

قال السدي في تفسيره بأسانيده : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعني قوله : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ﴾ وقوله : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ [البقرة ١٩] الآيات الثلاث ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾

وعن ابن عباس قال إن الله ذكر آلهة المشركين فقال وإن يسلبهم الذباب شيئا وذكر كيد الآلهة كبيت العنكبوت فقالوا رأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا فأنزل الله إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا الآية وعن قتادة : لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ، فأنزل الله : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾ .

وعن قتادة : أي إن الله لا يستحيي من الحق ، أن يذكر شيئا ما ، قل أو أكثر . وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت ، قال أهل الضلالة : ما أراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾ .

قال ابن كثير : العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية ، وليس كذلك ،

وعبارة رواية سعيد أقرب والله أعلم .

وعن مجاهد نحو هذا الثاني عن قتادة .

وعن الحسن قال لما أنزلت يا أيها الناس ضرب مثل قال المشركون ما هذا من الأمثال فيضرب أو ما يشبه هذا الأمثال فأنزل الله إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها لم يرد البعوضة إنما أراد المثل وروي عن إسماعيل بن أبي خالد نحوه

وعن الربيع بن أنس في هذه الآية قال : هذا مثل ضربه الله للذباب إذ البعوضة تحيا ما جاءت ، فإذا سميت ماتت . وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضُرب لهم هذا المثل في القرآن ؛ إذا امتلأوا من الدنيا رياء ، أخذهم الله تعالى عند ذلك . ثم تلا : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ [ الأنعام ٤٤ ] .

وعن أبي العالية نحوه .

وعن قتادة قال البعوضة أضعف ما خلق الله

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والديلمي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس لا تغتروا بالله فإن الله لو كان مغفلا شيئا لأغفل البعوضة والذرة والخرذلة

وقال بعض السلف : إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله (تعالى يقول) : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ﴾ .

وعن مجاهد في قوله : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾ : الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنه الحق من ربهم ، ويهديهم الله بها .  
وعن قتادة : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أي : يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه من عند الله .

وروي عن مجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس نحو ذلك .

وعن أبي العالية في قوله فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق قال يؤمن به المؤمنون ويعلمون أنه الحق من ربهم ويهديهم الله به ويعرفه الفاسقون فيكفرون به

وقال السدي في تفسيره بأسانيده : ﴿ يضل به كثيرا ﴾ يعني : المنافقين . ﴿ ويهدي به كثيرا ﴾ يعني : المؤمنين ، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم ، لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا ، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه له ، (وإنه لما ضربه له موافق) فذلك إضلال الله إياهم به ﴿ ويهدي به ﴾ يعني بالمثل ﴿ كثيرا ﴾ من أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيمانا إلى إيمانهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا أنه موافق ما ضربه الله له مثلا وإقرارهم به ، وذلك هداية من الله لهم به . ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ قال : هم المنافقون .

وعن ابن عباس في قوله وما يضل به إلا الفاسقين يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به

وقال أبو العالية : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ قال : هم أهل النفاق .

وكذا قال الربيع بن أنس .

وقال قتادة : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فسقوا فأضلهم الله على فسقهم .

وعن سعد بن أبي وقاص : ﴿ يضل به كثيرا ﴾ يعني : الخوارج .

وعن مصعب بن سعد قال : سألت أبي . فقلت : قوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ إلى آخر الآية فقال : هم الحرورية .

وعنه أيضا قال : الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه قال إياكم ونقض

هذا الميثاق وكان يسميهم الفاسقين

قال ابن كثير : وهذا الإسناد إن صح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى ، لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علي بالنهروان ، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية ، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل ، لأنهم سموا : خوارج ، لخروجهم عن طاعة الإمام ، والقيام بشرائع الإسلام .

قلت الحرورية نسبة إلى حروراء موضع بالعراق نسب إليه طائفة من الخوارج لمقامهم فيه . وعن قتادة في قوله الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه قال إياكم ونقض هذا الميثاق فإن الله قد كره نقضه وأوعد فيه وقدم فيه في أي من القرآن تقدمه ونصيحة وموعظة وحجة ما نعلم الله أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به

وأخرج أحمد والبخاري وابن حبان والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له

وأخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصححه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن العهد من الإيمان .

والأحاديث في حفظ العهد كثيرة ومن أشهرها الحديث في الصحيحين وعن أبي العالية في قوله : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ قال : هي ست خصال من المنافقين ، إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض . وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال (الثلاث) : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أؤتمنوا خانوا .

وكذا قال الربيع بن أنس أيضا .

وقال السدي في تفسيره بإسناده قوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ قال : هو ما عهد إليهم في القرآن ، فأقروا به ، ثم كفروا فنقضوه .

وعن قتادة في قوله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل قال الرحم والقرابة

و عن السدي في قوله ويفسدون في الأرض قال يعملون فيها بالمعصية  
وعن مقاتل في قوله تعالى أولئك هم الخاسرون يقول هم أهل النار  
وعن ابن عباس قال كل شيء نسبة الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر ومسرف  
وظالم وفاسق فإنما يعني به الكفر وما نسبة إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب

أقوال المفسرين :

اختار ابن جرير من أسباب النزول ما حكاه السدي لأنه أمس بالسورة ، قال ابن كثير : وهو  
مناسب .

وسيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمرء من الكفار  
واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبا بها المثل ليس بموضع للاستنكار  
والاستغراب من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن  
الغرض المطلوب وإدناء المتهم من المشاهد

فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك  
فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذا إلا أمرا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى  
نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية

ألا ترى إلى الحق لما كان واضحا جليا أبلج كيف تمثل له بالضياء والنور وإلى الباطل لما كان  
بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أندادا لله تعالى لا  
حال أحقر منها وأقل ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن وجعلت أقل  
من الذباب وأخس قدرا وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع ولم يقم  
للمتمثل استحي من تمثيلها بالبعوضة لأنه مصيب في تمثيله محق في قوله سائق للمثل على  
قضية مضربه وليبان أن المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر  
في الأمور بناظر العقل إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا انه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته  
والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله

وأن الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم وغضبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون  
أذهانهم ، أو عرفوا أنه الحق إلا أن حب الرياسة وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا

فإذا سمعوه عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار وان ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وإنهمك الفاسقين في غيهم وضلالهم .

والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهايم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديههم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد وأصرد من جرادة وأضعف من فراشة وأكل من السوس وقالوا في البعوضة أضعف من بعوضة وأعز من مخ البعوض وكلفتني مخ البعوض

ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه ﴿ لا يستحيي ﴾ أي : لا يستنكف \_ وقيل : لا يخشى \_ ﴿ أن يضرب مثلاً ما ﴾ أيّ مثل كان ، بأي شيء كان ، صغيراً أو كبيراً .

و﴿ ما ﴾ ههنا للتقليل ، وتكون ﴿ بعوضة ﴾ منصوبة على البدل ، كما تقول : لأضربن ضرباً ما . فيصدق بأدنى شيء ، (أو تكون ﴿ ما ﴾ نكرة موصوفة ببعوضة) .

واختار ابن جرير أن ﴿ ما ﴾ موصولة ، و﴿ بعوضة ﴾ معربة بإعرابها . قال : وذلك سائغ في كلام العرب ، أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما ، لأنهما يكونان معرفة تارة ، ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

وكفى بنا فضلاً على من غيرنا      حب النبي محمد إيانا

قال : ويجوز أن تكون ﴿ بعوضة ﴾ منصوبة بحذف الجار ، وتقدير الكلام : إن الله لا يستحي أن يضرب (مثلاً) ما بين بعوضة إلى ما فوقها .

[وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء .

وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤية ﴿ بعوضة ﴾ بالرفع ، قال ابن جني : وتكون صلة ما ، وحذف العائد كما في قوله : ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ [ الأنعام ١٥٤ ] أي : على الذي هو أحسن ، وحكى سيبويه : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً ، أي : بالذي هو قائل لك شيئاً] .

وقوله : ﴿ فما فوقها ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فما دونها في الصغر والحقارة ، أي : فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة نحو قولك لمن يقول فلان أسفل الناس وأندهم : هو فوق ذاك ؛ تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والندالة

(وهذا قول الكسائي ، وأبي عبيدة ، قال الرازي : وأكثر المحققين . وفي الحديث : " لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء " ) .

والثاني : ﴿فما فوقها﴾ : فما هو أكبر منها ، لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة . وهذا (قول قتادة بن دعامة و) اختيار ابن جرير . [ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت (عنه) بها خطيئة " ] .

كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة كما تقول لصاحبك وقد ذم من عرفته يشح بأدنى شيء فقال فلان بخل بالدرهم والدرهمين هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت فضلا عن الدرهم والدرهمين

فإن قلت كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر قلت ليس كذلك فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات وقد ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للدنيا وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها

فأخبر تعالى أنه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا ، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ، (كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها ) ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، في قوله : ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ [ الحج ٧٣ ] وقال : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ [ العنكبوت ٤١ ] ، وقال تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت

الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴿ إبراهيم ٢٤-٢٧ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ﴾ الآية [ النحل ٧٥ ] ، ثم قال : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ الآية [ النحل ٧٦ ] كما قال : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ الآية [ الروم ٢٨ ] ، وقال : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ الآية [ الزمر ٢٩ ] ، وقد قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [ العنكبوت ٤٣ ] وفي القرآن أمثال كثيرة .

قوله : ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ كما قال في سورة المدثر : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضلل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [ المدثر ٣١ ] ، وكذلك قال هاهنا : ﴿ يضلل به كثيرا (ويهدي به كثيرا) وما يضلل به إلا الفاسقين ﴾ .

والفاسق يشمل الكافر والعاصي ، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش . والمراد من الآية الفاسق الكافر والله أعلم ، بدليل أنه وصفهم بقوله : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ . وهذه الصفات صفات الكفار المبائنة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ الآيات إلى أن قال : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ [ الرعد ١٩ - ٢٥ ] .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وَصَفَ هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه ، وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك : (هو) تركهم العمل به .

وقال آخرون : بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذَه (الله) عليهم في التوراة ، من العمل بما فيها وأتباع محمد ﷺ إذا بعث ، والتصديق به ، وبما جاء به من عند ربهم . ونقضهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك ، وكتماهم علم ذلك (من) الناس ، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه ، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا .

وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ، و(هو) قول مقاتل بن حيان .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهده إلى جميعهم في توحيده : ما وضع إليهم من الأدلة الدالة على ربوبيته . وعهده إليهم في أمره ونهيه : ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم . قالوا : ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما (قد تبينت) لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق .

وروي عن مقاتل بن حيان أيضا نحو هذا ، وهو حسن ، (وإليه مال الزمخشري فإنه قال) : (فإن قلت : فما المراد بعهد الله ؟ قلت : ماركز في عقولهم من الحججة على التوحيد ، كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا بلى ﴾ [ الأعراف ١٧٢ ] أو أخذ الميثاق عليهم في الكتب المنزلة عليهم كقوله : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ [ البقرة ٤٠ ] .

وقال آخرون : العهد الذي ذكره الله تعالى ، هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ، الذي وصف في قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا بلى ﴾ [ الأعراف ١٧٢ ] الآيتين ، ونقضهم ذلك : تركهم الوفاء به .

وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضا . حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره .

وقيل عهد الله الى خلقه ثلاثة عهود العهد الأول الذي أخذه على جميع ذرية آدم الإقرار بربوبيته وهو قوله تعالى وإذا أخذ ربك الأعراف ١٧٢ وعهد خص به النبيين ان يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وهو قوله تعالى وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم الأحزاب وعهد خص به العلماء وهو قوله وإذا اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه آل عمران

والضمير في ميثاقه للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه كما أن الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والولادة ويجوز أن يرجع الضمير الى الله تعالى أي من بعد توثيقه عليهم أو من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه وإنذار رسله

وقوله : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قيل : المراد به صلة الأرحام والقربان كما فسره قتادة ، كقوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ [ محمد ٢٢ ] ورجحه ابن جرير .

وقيل : معنى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل قطعهم الأرحام وموالاته المؤمنين وقيل قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد والاجتماع على الحق في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض . وقيل : أعم من ذلك ؛ فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه .

وقال مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ قال : في الآخرة . وهذا كما قال تعالى : ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [ الرعد ٢٥ ] .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ الخاسرون : جمع خاسر ، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه ، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته .

المعنى الإجمالي :

يذكر الله جل وعلا أنه لا يستنكف من ذكر المخلوقات الحقيرة في ضربه الأمثال للناس كالبعوضة وما هو أحقر منها والمؤمنون يعلمون يقينا أن ما جاءهم من ربهم هو الحق الذي

لا مرية فيه وأما الكافرون فهم الذين لا يفقهون عن الله فيتهكمون ويستخفون بهذه الأمثال قائلين : مافائدتها ؟ وما المراد منها ؟ وهم لا يعقلون ما يترتب على ذلك من ضلال أقوام كثيرين وهداية آخرين مثلهم والذين قدر الله عليهم الضلال بذلك إنما هم الذين خرجوا عن دين الله ونقضوا عهد الله سواء منهم من ناقض فطرته التي فطره الله عليها فنقض عهد الله المأخوذ عليه في صلب أبيه آدم ومن نقض عهد الله المأخوذ عليه من أهل الكتاب والعلماء بعدم كتمان ما أنزل الله ويعرضون عن كل ما أمرهم الله بوصله وفعله فيقطعونه ولا يفعلونه ومن أعظم ذلك الرحم فما جزاء أمثال هؤلاء إلا الخسارة والندامة يوم القيامة .

ومن مسائل الآيتين :

ما حار فيه المعتزلة وغيرهم من مؤولي الصفات ونفاتها حيث جاء فيهما نسبة الحياء إلى الله ونسبة الإرادة إليه ونسبة الإضلال والهداية إليه .

وأهل السنة يؤمنون بذلك كله على ما ذكر سبحانه كما يليق بجلاله من غير تكليف أو تشبيه أو تعطيل ويؤمنون بأن شيئاً من ذلك لا يشبه شيئاً من المخلوقات .

فحياء الله تعالى صفة تستلزم فعل الجميل والحسن وتنزه الله تعالى عن فعل ما يشين ويستقبح ولا يستلزم من إثباتها إثبات ما يعتري الحيي من المخلوقين كما سبق بيانه .

وقيل : هو جار على سبيل التمثيل مثل قوله : إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً تركه تحييب العبد وانه لا يرد يديه صفراً من عطائه لكرمه بترك من يترك رد المحتاج إليه حياء منه

وكذلك معنى قوله إن الله لا يستحي أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها

وقيل : ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال .

وهذه توجيهات المعتزلة ووصف الله بالحياء ثابت في الكتاب والسنة في مواضع عدة تنسف مثل هذه التمحلات .

وإرادة الله نوعان : قدرية كونية وهي تتعلق بالخلق والإيجاد فما يكون في الكون إلا ما أَرادَه الله تعالى وخلقَه .

وشرعية دينية وهي تتعلق بالأمر والنهي وما يحبه الله ويبغضه وقد تتوافق مع الكونية كما في فعل المطيع للطاعات وقد تتعارض معها كما في فعل العصاة للمعاصي .  
وإرادة الله مرتبطة بموضوع القضاء والقدر وخلق أفعال العباد ومحل التفصيل في ذلك في كتب العقيدة .

وأما الهداية والإضلال فكذلك متعلقة بما سبق وأهل السنة والجماعة أن الذي يهدي ويضل هو الله تعالى حقيقة وما يفعل ذلك إلا عدلا منه واستحقاقا كل لما قدره الله عليه وقالت المعتزلة : إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم .

وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد فقال يا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القيود فرفع مالك رأسه فرأى سلة فقال لمن هذه السلة فقال لي فأمر بما تنزل فإذا دجاج وأخبصة فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك .  
وهذا الذي قالوه ومثلوا به لا يغير شيئا لأن الذي خلق السبب وفعل هذا العبد هو الله تعالى أيضا وهو خالق ما ترتب على السبب فلم يتغير شيئا . والتفصيل محله كتب العقيدة كما سبق والله تعالى أعلم .

ونكتفي بهذا القدر وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

#### الأسئلة :

- ١- لا يستحيي : الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم ( صح )
- ٢- الحياء كما قال الراغب انقباض النفس عن القبائح وهو مثل الخجل ( خطأ ) .
- ٣- قال بعضهم الخجل لا يكون إلا بعد صدور أمر زائد لا يريدُه القائم به بخلاف الحياء فإنه قد يكون مما لم يقع فيترك لأجله ( صح ) .
- ٤- يضرب مثلا : ضرب المثل اعتماده وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم ( صح ) .

٥. ما في قوله ( مثلاً ما بعوضة ) إبهامية وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أجهمتها إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً كقولك أعطني كتاباً ما تريد أي كتاب كان ( صح )
٦. ما في قوله ( مثلاً ما بعوضة ) هي النافية بمعنى : لا بعوضة ولا غيرها ( خطأ ) .
٧. البعوضة : واحد البعوض وهو طائر معروف وفيه من دقيق الصنع وعجيب الإبداع ما يعجز الإنسان أن يحيط بوصفه ( صح ) .
٨. وأما : حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجب بالفاء وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد ( صح ) .
٩. الحق : الثابت الذي لا يسوغ إنكاره يقال حق الأمر إذا ثبت ووجب ( صح )
١٠. مثلاً : منصوب على الحال ( خطأ ) .
١١. الفسوق : هو الفساد وإفساد ، ومنه قول العرب : فسقت الرطبة إذا فسدت ، ولهذا يقال للفأرة فويسقة لما تفعله من الفساد في الأطعمة وغيرها ( خطأ ) .
١٢. الفسق في الشرع هو فساد القلب والجوارح بالكفر والمعاصي ( خطأ ) .
١٣. النقض : الفسخ وفك التركيب و ساغ استعمال النقض في إبطال العهد حيث تسميتهم العهد بالخبيل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ( صح ) .
١٤. الأمر : طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه ( صح ) .
١٥. لما ضرب الله المثليين للمنافقين قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية ( صح ) .
١٦. لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ، فأنزل الله هذه الآية ( صح ) .
١٧. البعوضة أضعف ما خلق الله وهي تحيا ما جاعت فإذا شبعت ماتت ( صح ) .
١٨. قال بعض السلف : إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله يقول : ( وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ) ( صح )
١٩. عن سعد بن أبي وقاص أن الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه هم الخوارج ، ورجحه ابن كثير ( خطأ ) .

٢٠. قوله ( وأولئك هم الخاسرون ) بالإشارة للبعيد للدلالة على أنهم في منزلة بعيدة من الخسران ( صح ) .

٢١. دخول ضمير الفصل ( هم ) بين وأولئك والخاسرون للدلالة أن هؤلاء المذكورين هم من الخاسرين لا أن غيرهم ليس بخاسر ( خطأ ) .

٢٢. سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد واستغروه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبا بها المثل ليس بموضع للاستنكار والاستغراب من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاهد ( صح ) .

٢٣. قرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤبة ( بعوضة ) بالرفع وهي قراءة متواترة ( خطأ ) .  
٢٤. ( فما فوقها ) فيه قولان :

أحدهما : فما دونها في الصغر . والثاني : فما هو أكبر منها ، لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة . ( صح ) .

٢٥. في الآيات نسبة الحياء والهداية والإضلال إلى الله تعالى وهي صفات تؤمن بها كما يليق بجلال الله تعالى ( صح ) .

٢٦. إرادة الله نوعان : كونية وشرعية فالأولى يمكن أن تقع وأن لا تقع كإرادته سبحانه لجميع الناس أن يؤمنوا وأما الثانية فإنها لا بد أن تقع وهو إرادته سبحانه للناس أن يكون منهم المؤمن والكافر ( خطأ ) .

٢٧. العهد المقصود : هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه ، وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك : ( هو ) تركهم العمل به ( صح ) .

٢٨. المقصود بالذين ينقضون العهد كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه ( الله ) عليهم في التوراة ، من العمل بما فيها وأتباع محمد ﷺ إذا بعث ، والتصديق به ، وبما جاء به من عند ربهم . ونقضهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ( صح ) .

٢٩. العهد الذي ذكره الله تعالى ، هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ، وهو الصحيح وأما سواه فضعيف ( خطأ ) .

٣٠. قال ابن جرير وابن كثير : فإن قلت : فما المراد بعهد الله ؟ قلت : ما ركز في عقولهم من الحجّة على التوحيد ، كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم ( خطأ ) .

## المحاضرة الثامنة عشرة

\*\*\*

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. }

القراءات:

قرأ يعقوب من العشرة { :ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ، بالبناء للفاعل، أي: بفتح التاء وكسر الجيم. وقرأ الباقر بالبناء للمفعول، أي: بضم التاء وفتح الجيم، لأنَّ الله تعالى هو الفاعل الحقيقي الذي يُرْجِعُهُمْ إِلَيْهِ.

المناسبة:

الآية التفات إلى خطاب أولئك الكفار، بعد أن عدّد قبائحهم المستدعية لمزيد سُخْطِهِ تَعَالَى عَلَيْهِم.

والإنكار إذا وُجِّهَ إِلَى الْمُخَاطَبِ، كَانَ أَبْلَغَ مِنْ تَوْجِيهِهِ إِلَى الْغَائِبِ، وَأَرْدَعَ لَهُ.

### لغويّات.

{ كَيْفَ : {اسم، إمّا ظرف -وعُزِّيَ إِلَى سَبِيوَيْهِ-، فمحلّها: نَصَبٌ دَائِمًا، أَوْ غَيْرَ ظَرْفٍ -وعُزِّيَ إِلَى الْأَخْفَشِ-، فمحلّها: رَفْعٌ مَعَ الْمَبْتَدَأِ، وَنَصَبٌ مَعَ غَيْرِهِ. وَادَّعَى ابْنُ مَالِكٍ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَقُلْ بِظَرْفِيَّتِهَا، إِذْ لَيْسَتْ زَمَانًا وَلَا مَكَانًا، لَكِنْ لِكُونِهَا تَفْسِيرًا بِقَوْلِكَ: "عَلَى أَيِّ حَالٍ"، أَطْلَقَ اسْمَ الظَّرْفِ عَلَيْهَا مَجَازًا، وَاسْتَحْسَنَهُ ابْنُ هِشَامٍ .  
وهي هنا للاستخبار، منضمًا إليه الإنكار والتعجيب.

ومعناها هنا معنى: الهمزة، كقولك: أتكفرون بالله، ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو

إلى الإيمان؟

ونظيره، قولك: أتطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟  
فإن قلت: قولك: "أتطير بغير جناح؟": إنكار للطيران، لأنه مستحيل بغير جناح، وأمّا  
الكفر بغير مستحيل، مع ما ذكر من الإمامة والإحياء .  
قلت: قد أخرج في صورة المستحيل، لِمَا قوي من الصارف عن الكفر والدّاعي إلى  
الإيمان.

{ وَكُنْتُمْ } { الواو في قوله } : وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا { للحال.

فإن قلت: فكيف صحّ أن يكون حالاً وهو ماضٍ؟ ولا يقال: جئت وقام الأمير، ولكن:  
وقد قام، إلا أن يُضمّر قد.

قلت: لم تدخل الواو على { : وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا { وحده، ولكن على جملة قوله } : كُنْتُمْ أَمْوَاتًا {  
إلى { تُرْجَعُونَ }؛ كأنه قيل: كيف تكفرون بالله، وقصتكم هذه؟ وحالكم: أنكم كنتم  
أمواتاً نُطفأً في أصلاب آبائكم، فجعلكم أحياء، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم بعد  
الموت، ثم يحاسبكم .

فإن قلت: بعض القصة ماضٍ، وبعضها مستقبل. والماضي والمستقبل كلاهما لا يصحّ أن  
يقعا حالاً، حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع  
حالاً؟ قلت: هو العلم بالقصة، كأنه قيل: كيف تكفرون وأنتم علمون بهذه القصة بأولها  
وآخرها؟

{ فَأَحْيَاكُمْ } { الحياة: قوّة تتبع الاعتدال التّوعّي، ويفيض منها سائر القوى. وقيل: القوّة  
الحسّاسة، والعضو المفلوج حيّ وإلاّ لتسارع إليه الفساد، وعدم الإحساس بالفعل لا يدلّ  
على عدم القوّة، لجواز فقدان الأثر لِمَانع .

وتُطلق مجازاً على القوّة النّامية، لأنّها من طلائعها ومقدّماتها، وعلى ما يخصّ الإنسان من  
الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان، من حيث إنّها كما لها وغايتها. والموت مقابل لها في كل  
مرتبة، والكلّ في كتاب الله تعالى .

{ هُوَ } { ضمير لغير المتكلّم والمخاطب، وهو الغائب.

وفيه لغات تخفيف الواو مفتوحة، وحذفها في الشّعر وتشديدها لهمدان، وتسكينها لأسد

وقيس.

{هُوَ}: {عند أهل الخرافات والأوهام من غلاة المتصوّفة: اسم من أسمائه تعالى، يُنبئ عن كنه حقيقته المخصوصة المبرأة عن جميع جهات الكثرة. قالوا: هو اسم مركّب من حرفين: الهاء والواو، والهاء أصل، والواو زائدة، بدليل سقوطها في التثنية والجمع، فليس في الحقيقة إلا حرف واحد دال على الواحد الفرد الذي لا موجود سواه، وكلّ شيء هالك إلا وجهه. ولمزيد ما فيه من الأسرار اتّخذة الأجلّة مداراً لذكّركم، وسراجاً لسرّهم. وهو جار مع الأنفاس، ومسمّاه غائب عن الحدس والقياس.

قلت: هداهم الله إليه، وأضلّ عنه رسله وأوليائه فحرّمهم من هذا الخير، فلا نعرف دعاءً للنبي -صلى الله عليه و سلم- ولا لغيره من الأنبياء بهذا الاسم المزعوم، ولا نعرفه في دعوات الصحابة الكرام وحواري الأنبياء والرّسل، ولا في دعوات أئمة العُلم والهدى من العلماء الرّبّانيّين في هذه الأُمَّة وما قبلها، ولم نسمعه إلا من أصحاب الرّقص والسماع والوجد والإيقاع، من جهلة المنحرفين عن الجادّة، ومن الكفرة القائلين بوحدة الوجود - والله المستعان. -

{جَمِيعاً}: {نُصب على الحال من الموصول الثاني، وهي حال مؤكّدة من كلمة { ما. } {استوى}: {أي: علا وارتفع، من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تحديد . والمراد هنا: قَصْد، لِتَعَدِّيهِ ب{إلى}، أي: قصد إليها بإرادته قصداً سوياً، بلا صارف يلويه ولا عاطف يُثنيه، من قولهم: استوى إليه، كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً، من غير أن يلوي على شيء؛ قاله الفراء. وقيل استولى ومَلِك، كما في قوله:

فلما علونا واستوينا عليهمو تركناهمو صرعى لنسرٍ وكاسرٍ

وهو خلاف الظاهر، لاقتضائه كون { إلى } بمعنى: "على"، وأيضاً الاستيلاء مؤخّر عن وجود المستوى عليه، فيحتاج إلى القول بأنّ المراد: استولى على إيجاد السّماء، فلا يقتضي تقدّم الوجود؛ ولا يخفى ما فيه.

قلت: ولا يُعرف في اللغة { استوى } بمعنى: "استولى"، وهذا البيت مجهول قائله، وجُلّ ما يذكره مُحَرِّفو "الاستواء" بمعنى: "الاستيلاء" قول الشاعر:

وهو لنصراني ليس بحجة في اللغة، مع اعتراضات أخرى ليس هذا محلها.  
والمراد بـ {السَّمَاء} جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق.  
والضمير في: {فَسَوَّاهُنَّ} ضمير مُبهم، و {سَبَعَ سَمَاوَاتٍ} تفسيره. وقيل: الضمير راجع  
إلى: {السَّمَاء}، و {السَّمَاء} في معنى الجنس. ومعنى تسويتهن: تعديل خلقهن وتقديمه،  
وإخلاؤه من العوج والفطور، أو إتمام خلقهن

### الآثار.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا  
بِدُنُوبِنَا}، قال: "هي التي في (البقرة): {وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}"  
وعن ابن عباس: {كُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}: "أمواتاً في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى  
خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم. قال: وهي مثل قوله: {أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ  
وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}"

وعن ابن عباس في قوله: {رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}، قال: "كنتم تراباً قبل أن  
يخلقكم، فهذه ميتة. ثم أحياكم فخلقكم، فهذه حياة. ثم يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه  
ميتة أخرى. ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه حياة (أخرى). فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله:  
{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}"  
وعن السدي، بأسانيده: {وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، قال: "لم تكونوا شيئاً فخلقكم،  
ثم يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة".

وعن قتادة، في الآية، قال: "كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله فأخرجهم، ثم  
أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة؛ فهما حياتان وموتتان".  
وعن مجاهد، في الآية، قال: "لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم،  
وقوله {رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} مثلها".

وعن أبي العالية، في الآية، يقول: "لم يكونوا شيئاً، ثم أماتهم، ثم أحياهم، ثم يوم القيامة  
يرجعون إليه بعد الحياة".

وعن الحسن البصري، والضحاك، وعطاء الخراساني، نحو ذلك.

وعن أبي صالح: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }، قال: "يحييكم في القبر، ثم يميتكم".

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "خلقهم في ظهر آدم، فأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم. ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم. ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: { قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ }".

قال ابن كثير: "وهذا غريب، والذي قبله".

قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.

أخرج أحمد، والبخاري في "التاريخ"، ومسلم، والنسائي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في "العظمة"، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب "الأسماء والصفات"، عن أبي هريرة، قال: ((أخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بيدي، فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر)).

قال ابن كثير: وقد ذكر ابن أبي حاتم، وابن مردويه في تفسير هذه الآية، الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير، فذكره ثم قال:

"وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم. وقد تكلم عليه علي بن المديني، والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأنّ أبا هريرة إنما سمعه من كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً. وقد حرر ذلك البيهقي -رحمه الله-".

قلت: كلام الحفاظ ابن كثير فيه نظر من وجوه عدّة، ويبدو أنه -رحمه الله- تأثر بقول شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، فيما يتعلق بهذا الحديث والنظر فيه كالتالي:

أولاً: هذا الحديث ضمنه الإمام مسلم في صحيحه؛ فالأصل فيه القبول وردّ الاعتراضات.

ثانياً: أنّ دعوى تلقّي أبي هريرة له عن كعب الأحبار باطلة من عدّة وجوه:

١- لا يوجد عليها دليل.

٢- لم يرو شيء من هذا عن كعب أصلاً.

٣- ليس أبو هريرة من المشهورين بالرواية عن أهل الكتاب.

٤- لا يجوز توهيم الرواة بالظنّ، والراوي لهذا الحديث مرفوعاً: ثقة.

ثالثاً: كيف يكون هذا الحديث مروياً عن أحد من أهل الكتاب، وهو يناقض قولهم، حيث يعتقدون أنّ يوم بدء الخلق هو الأحد، وأن الله استراح يوم السبت؟

رابعاً: لا غرابة في الحديث أساساً، وما اعترض به عليه فيه، مردود. ومن ذلك:

١- أنه لم يذكر فيه خلق السماء، والجواب أنه ليس بضروريّ أن يذكر فيه كلّ شيء، وما سكت عنه يُنظر في محل آخر. وقد قال بعض أهل العلم: أشير إليها بالنور والدواب لارتباط ذلك بها.

٢- أنه جاء فيه: أنّ الخلق في سبعة أيام، والقرآن ذكر أنها ستة. والجواب: أنّ القرآن لم يذكر خلق آدم ضمنها. والحديث فيه خلق آدم في يوم الجمعة، وأمّا سوى ذلك فهو ستة أيام، فهو موافق للقرآن. كما أنّ خلق آدم ليس متصلاً بخلق السموات والأرض كما تدلّ النصوص المتكاثرة، فهو في جمعة أخرى غير الجمعة التالية لخلق السموات والأرض.

٣- أنه يوحى: أنّ خلق الأرض في ستة أيام، والقرآن يُقرّر أنها أربعة، واليومان الباقيان لخلق السماء. والجواب: أنه ليس بالضرورة أن لا يخلق الله شيئاً يتعلّق بالأرض في يوميّ خلق السماء؛ وقد تقدّم أنّ خلق النور كان في يوم خلق السماء لاستلزام ذلك لها، وكذا خلق الدوابّ.

هذا جملة ما يُردّ به على الاعتراض على هذا الحديث، باختصار شديد. وقد قرّر ما في هذا الحديث، ووافق ما فيه: جماعة من أهل العلم، كابن إسحق، وابن الجوزي، وابن الأنباري، والسهيلي. وممن ردّ على اعتراضاته: المعلّم اليماني، والشيخ الألباني، وتلميذه أبو إسحق الحويني.

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وعثمان بن سعيد الدارمي في "الرد على الجهمية"، وابن أبي الدنيا في "كتاب المطر"، وابن أبي عاصم في "السنة"، وأبو يعلى، وابن خزيمة في التوحيد، وابن أبي حاتم، وأبو أحمد، والحاكم في "الكنى"، والطبراني في "الكبير"، وأبو الشيخ في "العظمة"، والحاكم وصحّحه، واللالكائي في "السنة"، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، عن العباس بن عبد المطلب، قال: ((كنا عند النبي -صلى

الله عليه وسلم-، فقال: هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: بينهما مسيرة خمسمائة عام. ومن مسيرة سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام. وكثف كل سماء خمسمائة سنة. وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك: ثمانية أوعال بين وركهين وأظلافهن كما بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك: العرش، بين أسفله وأعلاه ما بين السماء والأرض. والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء)).

وأخرج إسحق بن راهويه في "مسنده"، والبخاري، وأبو الشيخ في "العظمة"، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، كذلك إلى السماء السابعة والأرضون مثل ذلك. وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك. ولو حفرتم لصاحبكم ثم دليتموه، لوجد الله ثمة))، يعني: علمه.

وأخرج الترمذي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: ((كنا جلوساً مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فمرت سحابة، فقال: أتدرون ما هذه؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: هذه الغياية، هذه روايا الأرض، يسوقها الله إلى بلد لا يعبدونه ولا يشكرونه. هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوق ذلك سماء. هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوق ذلك موجاً مكفوفاً، وسقفاً محفوظاً. هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوق ذلك سماء، هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوق ذلك سماء أخرى. هل تدرون كم ما بينهما؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن بينهما مسيرة خمسمائة عام. حتى عد سبع سموات، بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام. ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن بين ذلك كما بين السماءين. ثم قال هل تدرون ما هذه؟ هذه أرض. هل تدرون ما تحتها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال أرض أخرى، وبينهما مسيرة خمسمائة عام... حتى عد سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام)).

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رجل: يا رسول الله، ما هذه السماء؟ قال: ((هذه موج مكفوف عنكم)).

وقال السدي في "تفسيره"، بأسانيد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، قال: "إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء. ثم أيس الماء فجعله أرضاً واحدة. ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين، في الأحد والاثنين؛ فخلق الأرض على حوت، والحوت هو الذي ذكره الله في القرآن: {ن وَالْقَلَمِ}، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح؛ وهي الصخرة التي ذكر لقمان، ليست في السماء ولا في الأرض. فتحرك الحوت، فاضطرب، فترزلت الأرض، فأرسي عليها الجبال فقترت؛ فالجبال تفخر على الأرض. فذلك قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ}. وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها، في يومين، في: الثلاثاء والأربعاء. وذلك حين يقول: {قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا، يقول: أنبت شجرها، {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا} لأهلها في {أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}. يقول: من سأل، فهكذا الأمر. {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}، وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة. ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين، في: الخميس والجمعة، وإثماً سُمِّي: يوم الجمعة، لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض. {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}، قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد، وما لا نعلم. ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً، تحفظ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب، استوى على العرش، فذلك حين يقول: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}. ويقول: {كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا}.

وعن عبد الله بن سلام، أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين في الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات في الخميس والجمعة. وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عجل؛ فتلك الساعة التي تقوم فيها

الساعة.

و عن ابن عباس، في قوله: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ}، "يعني: خلق سبع سموات. قال: أجرى النار على الماء، فبحر البحر، فصعد في الهواء، فجعل السموات منها." وعن عبد الله بن عمرو، قال: "لما أراد الله أن يخلق الأشياء، إذ كان عرشه على الماء، وإذا لا أرض ولا سماء، خلق الريح فسَلَطَهَا على الماء حتى اضطربت أمواجه وأثار ركابه، فأخرج من الماء دخاناً وطيناً وزبدًا. فأمر الدخان فعلاً وسماً ونمًا، فخلق منه السموات. وخلق من الطين الأرضين، وخلق من الزبد الجبال."

وعن قتادة في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، قال: "سخر لكم ما في الأرض جميعاً، كرامة من الله، ونعمة لابن آدم، متاعاً وبلغة ومنفعة إلى أجل." وعن مجاهد في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، قال: "سخر لكم ما في الأرض جميعاً. {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ}، قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان؛ فذلك قوله: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، يقول: خلق سبع سموات بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض." وعن أبي العالية في قوله: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ}، قال: "ارتفع." وفي قوله: {فَسَوَّاهُنَّ}، قال: "سوى خلقهن."

وعن ابن مسعود قال: "بين السماء والأرض خمسمائة عام، وما بين كلِّ سماءين خمسمائة عام، ومسير كلِّ سماء -يعني: غلظ ذلك- مسيرة خمسمائة عام. وما بين السماء إلى الكرسيّ مسيرة خمسمائة عام. وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام. والعرش على الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه."

و عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه نظر إلى السماء، فقال: تبارك الله! ما أشدَّ بياضها! والثانية أشدَّ بياضاً منها، ثم كذلك، حتى بلغ سبع سموات. وخلق فوق السابعة الماء، وجعل فوق الماء العرش، وجعل فوق السماء الدنيا: الشمس والقمر والنجوم والرجوم.

وعن الربيع بن أنس قال: "السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية مرمرة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء، وما فوق ذلك صحارى من نور، ولا يعلم ما فوق ذلك إلا الله، وملك موكل بالحجب يقال له:

ميطاطروش".

وعن سلمان الفارسي قال: السماء الدنيا من زمردة خضراء، واسمها: "رقيعاء". والثانية من فضة بيضاء، واسمها: "أزقلون". والثالثة من ياقوتة حمراء، واسمها: "قيدوم". والرابعة من درة بيضاء، واسمها: "ماعونا". والخامسة من ذهبة حمراء، واسمها: "ريقا". والسادسة من ياقوتة صفراء، واسمها: "دقناء". والسابعة من نور، واسمها: "عريبا".

و عن علي بن أبي طالب، قال: اسم السماء الدنيا: "رقيع". واسم السابعة: "الضراح". و عن ابن عباس، قال: "سيد السموات: السماء التي فيها العرش، وسيد الأرضين: الأرض التي أنتم عليها".

و عن الشعبي قال: "كتب ابن عباس إلى أبي الجلد يسأله عن السماء، من أي شيء هي؟ فكتب إليه: إن السماء من موج مكفوف".

وعن حبة العرني، قال: "سمعت علياً ذات يوم يحلف: والذي خلق السماء من دخان وماء". وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن كعب، قال: "السماء أشدّ بياضاً من اللبن". و عن سفيان الثوري، قال: "تحت الأرضين صخرة، بلغنا أنّ تلك الصخرة منها خضرة السماء".

و عن ابن عباس قال: "تفكروا في كلّ شيء، ولا تفكروا في ذات الله؛ فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور، وهو فوق ذلك".

و عن قتادة في قوله: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، قال: "بعضهن فوق بعض، بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام".

أمّا قوله تعالى: {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

عن ابن مسعود قال: "إنّ أعدل آية في القرآن: آخرها اسم من أسماء الله تعالى". قلت: كثير من هذه الروايات في خلق السموات، من مرفوع وموقوف، أسانيدنا واهية، ومنها ما هو من خرافات أهل الكتاب. فليتنبه لذلك!

## المعنى الإجمالي.

يقول تعالى، استنكاراً وتعجبياً، من حال هؤلاء الكفار { : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ }، وأنتم تعلمون ما كنتم عليه من العدم، حيث أوجدكم الله تعالى بقدرته، ثم يميتكم ويسلبكم هذه الحياة؟! وهو قد فعل ذلك، وسوف يفعل ما بعده، وهو إحياءكم بعد هذا الموت ورجوعكم إليه ليحاسبكم.

ثم امتنَّ الله تعالى بتسخيره الأرض وما عليها للإنسان؛ فقد خلق له ما فيها جميعاً، كما خلق السماء إتماماً لهذه النعمة، فجعلها سبع سموات، فأحسن خلقها، وأحكمه لحكم عالية عنده. فهو سبحانه بكل شيء عليم، يعلم ما ينفع خلقه ويصلح شأنهم.

## من مسائل الآية.

الأولى: قوله { : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ } : { في جعل الضمير: مبتدأ، والموصول خبراً: من الدلالة على الجلالة ما لا يخفى. وتقديم الظرف على المفعول الصريح، لتعجيل المسرّة، واللام للتعليل والانتفاع، أي: خلق لأجلكم جميع ما في الأرض لتنتفعوا به في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة، وفي أمور دينكم بالاستدلال والاعتبار. واستدل كثير من أهل السُنّة وغيرهم بالآية على إباحة الأشياء النافعة قبل ورود الشرع.

الثانية: لا دليل في الآية على القول المختار في تفسيرها على نفي عذاب القبر، إذ نهاية ما فيها: عدم ذكر الإحياء في البرزخ، وعدم الذكر لا يدلّ على عدم الوجود. وأدلة عذاب القبر كثيرة متواترة في غير هذا الموضوع.

وكذا لا دليل للمُجسِّمة القائلين بأنه تعالى في مكان، في { : وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }، لأنّ المراد بالرجوع إليه: الجمع في المحشر، حيث لا يتولّى الحكم سواه، والأمر يومئذ لله. هذا، ونكتفي بهذا القدر. وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

## الأسئلة:

١. قرأ يعقوب ( ترجعون ) بفتح التاء على بالبناء للفاعل وهي قراءة متواترة ( صح ) .
٢. الالتفات بالخطاب من الغيبة إلى المخاطب أبلغ في الإنكار والردع ( صح ) .

٣. كيف : للاستخبار منضمًا إليه الإنكار والتعجيب ومعناها هنا معنى الهمزة ( صح ) .
٤. كيف : اسم إما ظرف فمحلها نصب دائماً كما ذكر ابن مالك واستحسنه ابن هشام ( خطأ ) .
٥. الواو في ( وكنتم ) عاطفة بتقدير : وقد كنتم ( خطأ ) .
٦. قال بعض العلماء بأن الواو في ( وكنتم ) حالية ، ويشكل عليه بأن دخلت على الماضي والحال لا يقع إلا على الحاضر ( صح ) .
٧. تقدير الكلام : كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها ( صح ) .
٨. هو ضمير للغائب المذكور ، وليس له معنى في ذاته ، ولا يجوز أن يجعل اسماً من أسماء الله تعالى كما يفعله أهل الخرافات بالدعاء به وهذا أمر لم يعرف عند النبي ﷺ ولا عند أحد من السلف المتقدمين ( صح ) .
٩. استوى بمعنى بلغ كماله كما في قوله تعالى في موسى عليه السلام : ( ولما بلغ أشده واستوى ) ( خطأ ) .
١٠. قال بعضهم : استوى بمعنى استولى وملك كما قال الشاعر :
- فلما علونا واستوينا عليهمو      تركناهمو صرعى لنسر وكاسر
- وهو خلاف الظاهر وغير صحيح ( صح ) .
١١. لا بد من التفريق في المعنى بين ( استوى إلى كذا ) و ( استوى على كذا ) و ( استوى ) من دون حرف ( صح ) .
١٢. السماء هنا اسم جنس يشمل السماوات السبع بدليل قوله ( فسواهن سبع سماوات ) ( خطأ ) .
١٣. معنى تسويتهن تعديل خلقهن وتقديمه وإخلاقه من العوج والفطور أو إتمام خلقهن ( صح ) .
١٤. المراد على الصحيح بقوله ( وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ) خلقهم في ظهر آدم فأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ، ثم خلقهم في الأرحام ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم يوم القيامة وذلك كقول الله تعالى : ( قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ) ( خطأ ) .

١٥. حديث ( خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر ) رواه مسلم وغيره ضعفه جماعة منهم ابن تيمية وابن كثير ( صح ) .  
١٦. الصحيح أن الحديث فيه إشكالات وقد تكلم فيه جماعة منهم ابن المديني والبخاري ( خطأ ) .

١٧. الحديث يوحى أن خلق الأرض كان في ستة أيام والقرآن يدل على أن خلق الأرض كان في يومين والأرض في أربعة ، وهذا يدل على ضعف الحديث ( خطأ ) .

١٨. الآيات فيها التعجب والاستنكار من تكذيب الكفار مع أنهم يقرون بربوبية الله الذي خلقهم من عدم وخلق السماوات والأرض وما بينهما ( صح )

١٩. جعل الضمير مبتدأ والاسم الموصول خبراً في قوله ( هو الذي جعل لكم ) دلالة على جلاله وعظمة من فعل ذلك ( صح ) .

٢٠. تقديم الظرف ( لكم ) على المفعول الصريح للتنبيه على الأهم وهو ( لكم ) مما فيه زيادة المسرة ( صح ) .

٢١. اللام في ( لكم ) هي لام التعليل ( صح ) .

٢٢. الآية فيها دلالة على أن الأصل في الأشياء المنع فلا يجوز فعل إلا ما أباحه الله تعالى ( خطأ ) .

٢٣. استدلال البعض بهذا الآية على عدم وجود عذاب القبر لأنه لم يذكر فيها إلا الإحياء مرتين ، والجواب أن عدم ذكر الشيء لا يدل على عدم وجوده وأدلة عذاب القبر كثيرة متواترة ( صح ) .

٢٤. في الآية دليل على أن موجود فوق عرشه فوق سبع سماوات ( صح ) .

٢٥. الاستواء هنا مضمن معنى القصد والإقبال ولهذا جاء فيه بحرف إلى ( صح ) .

٢٦. قوله ( وهو بكل شيء عليم ) فيها بيان عموم علمه لأن عليم نكرة في سياق الإثبات ( خطأ ) .

٢٧. في الآية دليل على أن الأرض خلقت قبل السماء وقد أكدت ذلك آيات سورة حم السجدة ( صح ) .

٢٨. قوله تعالى ( والأرض بعد ذلك دحائها ) فيه دليل على أن السماء خلقت قبل الأرض ، كما قرر ذلك أئمة التفسير ( خطأ ) .
٢٩. في الآية دليل على عذاب القبر لأن الموت الأول هو الموت المعلوم بعد الحياة الدنيا ، والحياة بعده في القبر ، ثم الموت الثاني يوم القيامة ثم البعث بعد الموت ( خطأ ) .
٣٠. دلت الأحاديث أن بين سماء من السماوات السبع مسافة خمسمائة عام وبين الأرض والسماء مثل ذلك ( صح ) .

## المحاضرة التاسعة عشرة

\*\*\*

تفسير الآيات من (٣٠) إلى (٣٣) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ \* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ \* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. }

القراءات:

ليس فيها وجوه تتعلق بالمعنى.

المناسبة:

قال الألوسي: "لما امتنَّ سبحانه على مَنْ تقدّم بما تقدّم، أتبع ذلك بنعمة عامّة، وكرامة تامّة؛ والإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع والولد سر أبيه. وقيل: بعد أن ذكر الله البشارة، أتبع ذلك بقصة آدم، دليلاً ظاهراً على أنّ النوع الآدمي هو المقصود من هذا الوجود."

## لغويّات .

{وَأِذْ : {نصب بإضمار "ادْكُرْ"، ويجوز أن ينتصب بـ"قالوا" .  
وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية - وهو أبو عبيدة - أنه زعم: أنَّ { إِذْ {ها هنا زائدة،  
وأن تقدير الكلام: وقال ربك، وردّه ابن جرير .

قال القرطبي: "وكذا ردّه جميع المفسرين، حتى قال الزجاج: هذا اجترأ من أبي عبيدة."  
والملائكة: جمع "ملاك" على الأصل، كالشمائل في جمع "شمال"، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع .  
و{جَاعِلٌ : {من: "جعل" الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر، وهما قوله { في  
الأَرْضِ حَلِيفَةً {فكانا مفعوليه، ومعناه: مُصَيَّرٌ في الأرض خليفة .  
والخليفة: من: يخلّف غيره، والمعنى: خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلّفهم فيها  
آدم وذريته .

والتسييح: تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقديسه، من: سَبَحَ في الأرض والماء .  
وقَدَّسَ في الأرض: إذا ذهب فيها وأبعد .  
و{بِحَمْدِكَ {في موضع الحال، أي: نسبِح حامدين لك، ومُلتبسين بحمدك، لأنه لولا إنعامك  
علينا بالتوفيق واللفظ لم نتمكن من عبادتك .  
{آدَمَ : {من: الأَدَمَة، ومن: أديم الأرض، نحو: اشتقاقهم يعقوب من: العقب، و إدريس  
من: الدرس، و إبليس من: الإِبلاس .

## الآثار .

عن أبي مالك قال: "ما كان في القرآن { إِذْ {فقد كان ."  
وعن الحسن، وقتادة قالوا: "قال الله للملائكة { : إِيَّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ حَلِيفَةً {، قال لهم: إني  
فاعل ."

وقال السدي: "استشار الملائكة في خلق آدم . "ورُوي عن قتادة نحوه .  
قال ابن كثير: "وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الإخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن  
وقتادة أحسن - والله أعلم . -"

وعن الضحاك قال: "كل شيء في القرآن "جعل"، فهو: خَلَقَ ."

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن ابن سابط: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (( دُحيت الأرض من مكة، وكانت الملائكة تطوف بالبيت؛ فهي أول من طاف به. وهي الأرض التي قال الله { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . } وكان النبي إذا هلك قومه نجا هو والصالحون أتاها هو ومن معه فيعبدون الله بها حتى يموتوا فيها. وإن قبر نوح وهود وشعيب وصالح بين زمزم وبين الركن والمقام. ))

قال ابن كثير: "وهذا مرسل، وفي سننه ضعف، وفيه مدرج، وهو أن المراد بالأرض: مكة - والله أعلم-؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك ."

وعن ابن عباس قال: "إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه، ثم قرأ { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . }"

وقال السدي في تفسيره بأسانيده: "إن الله قال للملائكة { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً ."

وعن ابن عباس قال: "أول من سكن الأرض: الجنّ، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه، حتى أحقهم بجزائر البحور، وأطراف الجبال. ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . }"

وعن عبد الله بن عمرو قال: "كان الجنّ بنو الجانّ في الأرض قبل أن يُخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى أحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ {؟} } قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . }"

وعن ابن سابط { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } قال: "يعنون (به): بني آدم ."

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً، وأجعل فيها خليفة- وليس لله -عز وجل- خلق إلاّ الملائكة، والأرض ليس فيها خلق- ."

قالوا { : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا . }"

وعن أبي العالية في قوله { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } { إِلَى قَوْلِهِ } :وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } ، قال " :خلق الله الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة. فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض، فتقاتلهم (ببغيتهم)، فكانت الدماء بينهم، فكان الفساد في الأرض؛ فمن ثم قالوا { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } كما أفسدت الجن، { وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } كما سفكوا."

و عن ابن زيد قال: "لما خلق الله النار دُعرت منها الملائكة دُعراً شديداً، وقالوا: ربنا لم خلقت هذه ؟! قال: لمن عصاني من خلقي، -ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة-؛ قالوا: يا رب، ويأتي دهر نعصيك فيه؟! قال: لا. إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً، وأجعل فيها خليفة يسفكون الدماء، ويفسدون في الأرض. قالوا { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } ، فاجعلنا نحن فيها { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. }"

وعن الحسن، قال: "قال الله للملائكة { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } ، قال لهم: إني فاعل. فأفاضوا برأيهم. فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه؛ فقالوا بالعلم الذي علمهم : { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } ؟ } { قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. } قال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون، فقالوا بالقول الذي علمهم."

وعن قتادة في قوله { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } : { كَانَ (اللَّهُ) أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ خَلْقٌ، أَفْسَدُوا فِيهَا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَذَلِكَ حِينَ قَالُوا { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا. }"

وعن أبي جعفر محمد بن علي، يقول: "السَّجَلُ مَلَكٌ، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب؛ فنظر نظرة لم تكن له، فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت - وكانا من أعوانه -. فلما قال تعالى { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } ، قالوا ذلك استطالة على الملائكة ."

قال ابن كثير: "وهذا أثر غريب. وبتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده -والله أعلم-. ومقتضاه: أن الذين

قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط؛ وهو خلاف السياق ."

وعن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: "سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم ."

قال ابن كثير: "وهذا أيضاً إسرائيلي منكر كالذي قبله - والله أعلم . -"

وقال ابن جريج: "إنما تكلموا بما أعلمهم أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} ."

وعن ابن عباس قال: "إياكم والرأي! فإن الله تعالى ردّ الرأي على الملائكة، وذلك أن الله قال {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، قالت الملائكة: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟} قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. }

قوله { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }، أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب "التوبة"، عن أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((: -إنّ أول من لبيّ: الملائكة. قال الله { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } . قال: فزادوه، فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ستّ سنين يقولون: لبيك! لبيك! اعتذاراً إليك! لبيك! لبيك! نستغفرك ونتوب إليك .))

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن أبي ذر: أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ((: أحبّ الكلام إلى الله: ما اصطفاه الله لملائكته: "سبحان ربي وبحمده" -وفي لفظ- : "سبحان الله وبحمده ."))

وأخرج ابن جرير، وأبو نعيم في "الحلية"، عن سعيد بن جبير ((: أنّ عمر بن الخطاب سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن صلاة الملائكة، فلم يرّد عليه شيئاً. فأتاه جبريل فقال: إن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة، يقولون: "سبحان ذي الملك والملكوت". وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة، يقولون: "سبحان ذي العزة والجبروت". وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة، يقولون: "سبحان الحي الذي لا يموت ."))

وعن ابن عباس قال: "التقديس: التطهير ."

و عن مجاهد في قوله { وَنُقَدِّسُ لَكَ }، قال: "نعظّمك ونكبرك ."

وعن قتادة قال: "التسبيح: (التسبيح)، والتقديس: الصلاة".

(وقال) السدي بأسانيدِهِ { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }، قال: "يقولون: نصلي لك".  
و عن أبي صالح في قوله { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }، قال: "نعظمك ونمجدك".  
وقال الضحاك: "التقديس: التطهير".

{ قَالَ إِيَّيَّيْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ: }

عن قتادة: قوله { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، فاستشار الملائكة في خلق آدم فقالوا { أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ }؟ وقد علمت الملائكة أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض، { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } قَالَ إِيَّيْيْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. { قال قتادة: "فكان في علم الله أنه سيكون من تلك الخليفة أنبياء ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة".

قال: وذكر لنا عن ابن عباس: أنه كان يقول: "إن الله لما أخذ في خلق آدم، قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منّا، ولا أعلم منّا؛ فابتلوا بخلق آدم؛ وكلّ خلق مبتلى، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال { :إِثْبَاتًا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. }"  
وعن ابن عباس قال: "كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة، يُقال لهم: الجن، حُلِقوا من نار السّموم من بين الملائكة. وكان اسمه: الحارث، فكان خازناً من خزّان الجنة. وحُلقت الملائكة كلّهم من نور غير هذا الحي. وحُلقت الجنّ من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. فأول من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتلوا بعضهم بعضاً. فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم حتى أحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلما فعل إبليس ذلك اغترّ بنفسه، وقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. فاطّلع الله على ذلك من قلبه ولم يطلع عليه الملائكة، فقال الله للملائكة { إِيَّيْيْ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، فقالت الملائكة { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } كما أفسدت الجنّ. قال { :إِيَّيْيْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، يقول: إني قد اطّعت من قلب إبليس على ما لم تطلّعوا عليه من كبره واغتراره. ثم أمر بتربة آدم، فرفعت، فخلق الله آدم -عليه السلام- من طين لازب، واللازب: اللزج الطيّب، من حمّا مسنون مُنتن؛ وإنما كان حمّاً مسنوناً بعد التراب .

فخلق منه آدم بيده، فمكث أربعين ليلة جسداً ملقياً. فكان إبليس يأتيه يضربه برجله فيصلصل فيصوت، ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئاً، ولشيء ما خلقت! ولئن سلطت عليك لأهلكتك! ولئن سلطت علي لأعصيتك! فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحمًا ودمًا. فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}. فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: "الحمد لله رب العالمين، بإلهام من الله، فقال الله له: "يرحمك الله يا آدم". ثم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات: {اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} لما حدث في نفسه من الكبر، فقال: لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنًا وأقوى خلقًا. فأبلسه الله وآيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيمًا."

وقال السدي بأسانيده: "لما فرغ الله من خلق ما أحب، استوى على العرش. فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة، يقال لهم: الجن. وإنما سموا: "الجن" لأنهم خزائن الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازناً فوق في صدره كبر، وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزيد أو لمزية لي. فاطلع الله على ذلك منه فقال للملائكة: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، قالوا: ربنا، {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. "وعن ابن عباس في قوله: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}... الآية، قال: "إن الله قال للملائكة: إني خالق بشرًا، وإنهم متحاسدون فيقتل بعضهم بعضًا، ويفسدون في الأرض؛ فلذلك قالوا: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ}؟ قال: وكان إبليس أميراً على ملائكة سماء الدنيا، فاستكبر وهم بالمعصية وطغى، فعلم الله ذلك منه؛ فذلك قوله: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، وأن في نفس إبليس بغياً."

و عن قتادة: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، قال: "كان في علم الله أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسول، وقوم صالحون، وساكنو الجنة."

وعن الحسن، قال: "لما خلق الله آدم وذريته، قالت الملائكة: ربنا، إن الأرض لم تسعهم. قال: إني جاعل موتاً، قالوا: إذاً لا يهنأ لهم العيش. قال: إني جاعل أملاً."

وأخرج ابن سعد في "طبقاته"، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصحّحه،  
والحكيم الترمذي في "نوادير الأصول"، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في "العظمة"،  
والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، عن أبي موسى الأشعري،  
قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع  
الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض :جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،  
والسهل والحزن والخبيث والطيب)).

وعن ابن عباس، قال: "إنما سُمِّيَ: "آدم"، لأنه خُلِقَ من أديم الأرض: الحمرة، والبياض،  
والسواد؛ وكذلك ألوان الناس مختلفة، فيها: الأحمر، والأبيض، والأسود، والطيب، والخبيث".  
وعن سعيد بن جبير، قال: "أتدرون لم سُمِّيَ: "آدم"؟ لأنه خُلِقَ من أديم الأرض".  
وعن علي قال: "إن آدم خُلِقَ من أديم الأرض، فيه: الطيب، والصالح، والرديء؛ فكل ذلك  
أنت راءٍ في ولده".

وعن سعيد بن جبير، قال: "خلق الله آدم من أرض يقال لها: دحناء".  
وأخرج الطيالسي، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو  
الشيخ في "العظمة"، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، عن أنس: أن النبي -صلى الله عليه  
وسلم- قال: ((لما صوّر الله تعالى آدم في الجنة، تركه ما شاء أن يتركه، فجعل إبليس يطيف  
به ينظر ما هو. فلما رآه أجوف علم أنه خلق لا يتمالك. (ولفظ أبي الشيخ)). قال:  
"خلق لا يتمالك، ظفرت به. (!")

وأخرج ابن حبان، عن أنس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لما نفخ الله في آدم  
الروح، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: "الحمد لله رب العالمين". فقال له تبارك وتعالى:  
"يرحمك الله. (!")

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال:  
((خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، قال: اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة، فاسمع  
ما يحيونك؛ فإنها تحيتك وتحيّة ذريّتك. فذهب فقال: "السلام عليكم". فقالوا: "السلام  
عليك ورحمة الله"، فزادوه: "ورحمة الله". فكلّ من يدخل الجنة على صورة آدم طوله ستون  
ذراعاً، فلم تزل الخلق تنقص حتى الآن.)).

وأخرج مسلم، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((-خير يوم طلعت عليه الشمس: يوم الجمعة، فيه خلّق الله آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه مات، وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة)).

و عن ابن جريج، قال: "خلّق الله آدم في سماء الدنيا، وإنما أسجد له ملائكة سماء الدنيا، ولم يسجد له ملائكة السموات."

وفي خلق آدم أحاديث كثيرة لا يستوعبها المقام، وسوف يأتي بعضها في مواضعها من التفسير -إن شاء الله تعالى-.

قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ }... الآيات.

أخرج الديلمي عن أبي رافع، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((-مُثِّلْتُ لِي أُمَّتِي فِي الْمَاءِ وَالطَّيْنِ، وَعُلِّمْتُ الْأَسْمَاءَ كَمَا عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)).

وأخرج وكيع في "تاريخه"، وابن عساکر، والديلمي، عن عطية بن بسر، مرفوعاً، في قوله: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: ((علم الله في تلك الأسماء ألف حرفة من الحرف، وقال له: قل لولدك وذريتك يا آدم: إن لم تصبروا عن الدنيا، فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدِّين! فإنَّ الدِّين لي وحدي خالصاً. ويُل لمن طلب الدنيا بالدِّين! ويُل له.!!))

وعن ابن عباس في قوله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "ما خلق الله."

و عن ابن عباس، في قوله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "علم الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، دابة، وأرض، وبحر، وسهل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم، وغيرها {... ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ }، يعني: عرض أسماء جميع الأشياء التي علمها آدم من أصناف الخلق { فَقَالَ أَنْبِئُونِي }، يقول: أخبروني { بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }، إن كنتم تعلمون أي لم أجعل في الأرض خليفة { قَالُوا سُبْحَانَكَ }، تنزيهاً لله من أن يكون يعلم الغيب أحدٌ غيره. "ثبنا إليك، لا علم لنا"، تبرئاً منهم من علم الغيب، "إلا ما علمت كما علمت آدم."

وعن ابن عباس { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً،

والدواب فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس."

وعن ابن عباس { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها..."  
وعن ابن عباس { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "علّمه اسم الصحيفة والقدر. قال: نعم، حتى الفسوة والفسية."

وقال مجاهد { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "علّمه اسم كلّ دابة، وكلّ طير، وكلّ شيء." و عن سعيد بن جبیر في قوله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "علّمه اسم كلّ شيء، حتى البعير والبقرة والشاة."

و عن قتادة { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه، ثم قال ما لم تعلم الملائكة، فسمّى كلّ شيء باسمه، وألجأ كلّ شيء إلى جنسه."  
و عن الربيع بن أنس، في قوله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "أسماء الملائكة."  
وقال حميد الشامي: "أسماء النجوم."

و عن ابن زيد، في قوله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }، قال: "أسماء ذرّيته أجمعين { ثُمَّ عَرَضَهُمْ }، قال: أخذهم من ظهره."

وعن قتادة قال: "ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة، { فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }."

وقال السدي في تفسيره بأسانيده: "وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة."  
وعن مجاهد { ثُمَّ عَرَضَهُمْ }، عرض أصحاب الأسماء على الملائكة."  
وعن الحسن، وقتادة قالا: "علّمه اسم كلّ شيء، وجعل يُسمّي كلّ شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة."

وعن الحسن، وقتادة: في قوله { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { إني لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه؛ فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين }!"

وعن ابن عباس في قوله { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة }."

وقال السدي بأسانيده { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }، "أن بني آدم يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء."

{ قَالُوا سُبْحَانَكَ: }

وعن قتادة، والحسن قالا: "لما أخذ الله في خلق آدم، همست الملائكة فيما بينها فقالوا: "لن يخلق الله خلقاً إلا كُنَّا أعلم منه، وأكرم عليه منه". فلما خلقه أمرهم أن يسجدوا له لما قالوا؛ فضَّله عليهم، فعلموا أنهم ليسوا بخير منه، فقالوا: إن لم نكن خيراً منه فنحن أعلم منه لأننا كُنَّا قبله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } فعلم اسم كلِّ شيء، جعل يُسَمِّي كلَّ شيء باسمه، وعرضوا عليه أمة أمة، { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }، ففزعوا إلى التوبة فقالوا { :سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا { ...الآية . "

وعن ابن عباس: "سبحان الله"، قال: "تنزيه الله نفسه عن السوء". قال: "ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناه، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال ."

وسأل رجل ميمون بن مهران عن "سبحان الله"، فقال: "اسم يعظم الله به، ويُجاشى به من السوء ."

وعن ابن عباس، في قوله { :إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }، قال: "العليم الذي قد كمل في علمه، الحكيم الذي قد كمل في حكمه ."

{ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ: }

قال زيد بن أسلم: قال: "أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرئيل، حتى عدَّ الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب ."

وقال مجاهد في قول الله { :يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ }، قال: "اسم الحمامة، والغراب، واسم كلِّ شيء ."

وروي عن سعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، نحو ذلك .

{ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ: } ...

عن ابن عباس { :وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، قال يقول: "أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز ."

وقال السدي بأسانيده: قولهم { :أَبْجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } { فهذا الذي أبدوا، } وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر ."

و عن مجاهد في قوله { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، قال: "ما أسرّ إبليس من الكفر في السجود."

وكذلك قال سعيد بن جبير، والسدي، والضحاك، والثوري، واختار ذلك ابن جرير.

و عن ابن عباس في قوله { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ }، قال: "ما تُظهرون". { وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، يقول: أعلم السرّ كما أعلم العلانية."

وعن ابن عباس قال: "إن الله لما أخذ في خلق آدم، قالت الملائكة: "ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا، ولا أعلم منا"؛ فابتلوا بخلق آدم."

وعن قتادة، والحسن، في قوله { مَا تُبْدُونَ }، يعني: "قولهم": { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا }، { وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، يعني: قول بعضهم لبعض: "نحن خير منه وأعلم."

و عن مهدي بن ميمون قال: "سمعت الحسن، وسأله الحسن بن دينار، فقال: يا أبا سعيد، أرايت قول الله للملائكة { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، ما الذي كتبت الملائكة؟ قال: إن الله لما خلق آدم، رأت الملائكة خلقاً عجباً، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء. قال: ثم أقبل بعضهم على بعض فأسروا ذلك بينهم، فقال بعضهم لبعض: ما الذي يهّمكم من هذا الخلق، إن الله لا يخلق خلقاً إلاّ كنا أكرم عليه منه؛ فذلك الذي كتبت."

وقال أبو العالية: "هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلاّ كنا أعلم منه وأكرم عليه منه."

وعن الربيع بن أنس { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } : { فكان الذي أبدوا: قولهم : { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } . { وكان الذي كتموا بينهم: قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلاّ كنا نحن أعلم منه وأكرم، فعرفوا أنّ الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم ."

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قصة الملائكة وآدم: "فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء، فليس لكم علم إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته،

ولذلك أخفيت عنكم أيّ جعل فيها من يعصيني ومن يطيعني. قال: وسبق من الله :

{ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } . { قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه. قال: فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقرّوا له بالفضل.

## أقوال المفسرين.

يُخبر تعالى بامتتانه على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملا الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى :  
{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ }، أي: واذكر - يا محمد - إذ قال ربك للملائكة، واقتصر على قومك ذلك .

{ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ }، وقال { وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ }، وقال { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ }، وقال { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ }.

( وقرئ في الشاذ: "إني جاعل في الأرض خليفة"، حكاها الزمخشري وغيره. ونقلها القرطبي عن زيد بن علي .)

وليس المراد ها هنا بالخليفة: آدم -عليه السلام- فقط، (كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل؛ وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاها فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره. والظاهر أنه لم يُرد آدم عيناً)، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ }، فإنهم إنما أرادوا أنّ من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية؛ فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون، [أو فهموا من الخليفة أنه: الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم،] (قاله القرطبي)، أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سبق أقوال المفسرين في ذلك. [وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين،] وقد وصفهم الله تعالى بأنهم { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ }، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه. وها هنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً، قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا { : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ }... الآية]، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك. يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أنّ منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟! فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا

يصدر منا شيء من ذلك، وهلاً وقع الاختصار علينا؟

قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال { :إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصّديقون، والشهداء، والصالحون، والعبّاد، والزّهّاد، والأولياء، والأبرار، والمقرّبون، والعلماء العاملون، والخاصعون والمحبّون له - تبارك وتعالى - المتّبعون رسلّه - صلوات الله وسلامه عليهم . -

[وقد ثبت في الصحيح: أنّ الملائكة إذا صعّدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده، يسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا، ويجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال، كما قال عليه الصلاة والسلام)) : يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ((؛ فقولهم: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلون، من تفسير قوله لهم : { :إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } .

وقيل: معنى قوله جواباً لهم { :إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، (أي): إنّ لي حكمة مفصّلة (في) خلق هؤلاء - والحالة ما ذكرتم - لا تعلمونها .

وقيل: إنه جواب لقولهم { :وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }، فقال { :إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، أي: من وجود إبليس بينكم، وليس هو كما وصفتكم أنفسكم به .  
وقيل: بل تضمن قولهم قالوا { :أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } طلباً منهم أن يسكنوا الأرض (بدل) بني آدم، فقال الله تعالى لهم : { :إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم .  
ذكرها فخر الدين (الرازي) مع غيرها من الأجوبة - والله سبحانه أعلم . -]

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: إني جاعل في الأرض خليفة مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو: آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقّها، فمن غير خلفائه .

قال ابن جرير: " وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي: خلافة قرّن منهم قرناً . "  
قال: والخليفة "الفعيلة"، من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده،

كما قال تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } . {ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة لأنه خلف الذي كان قبله ، فقام بالأمر، فكان منه خلفاً .

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول، في قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، يقول: "ساكناً وعامراً، يسكنها ويعمرها، خلفاً ليس منكم ."

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: "إنما قالت الملائكة ما قالت { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ }، لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك، بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت (على) التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب، وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربهم { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، يعني: أن ذلك كائن منهم، وإن لم تعلموه أنتم، ومن (بعض من) ترونه لي طائعاً ."

قال: وقال بعضهم: "ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا: يا رب خيرنا .مسألة استخبار منهم، لا على وجه الإنكار." واختاره ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }، قال " لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه ."

وقال ابن جرير: "التقديس هو: التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سبوح قدوس، يعني بقولهم "سبوح": تنزيه له، وبقولهم "قدوس": طهارة وتعظيم له. وكذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك: المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } { نُزِّهَكَ وَنُبْرِكَ } مما يضيفه إليك أهل الشرك بك { وَنُقَدِّسُ لَكَ } { ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك ."

(وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سُئِلَ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:)) ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده .))

وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط)) : أن رسول -صلى الله عليه وسلم- ليلة أسري به، سمع تسبيحاً في السموات العلى: "سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى .))" قوله { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ }... الآيات.

هذا مقام ذكر الله تعالى، فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم؛ وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قُدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون. ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما أُضِلَّ به عليهم في العلم فقال تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }.

واختار ابن جرير: أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الدَّريَّة، لأنه قال { ثُمَّ عَرَضَهُمْ }، وهذا عبارة عما يعقل.

وهذا الذي رجح به ليس بلازم؛ فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل، للتغليب كما قال { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . وقد قرأ عبد الله بن مسعود: "ثم عرضهن". وقرأ أبي بن كعب: "ثم عرضها. أي: المسميات).

والصحيح: أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالها، كما قال ابن عباس: "حتى الفسوة والفُسيَّة. يعني: أسماء الذوات والأفعال؛ المكبر والمصغر".

وفي حديث الشفاعة في الصحيح)) :فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)).

فدلَّ هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ }، يعني: المسميات،

وقال ابن جرير: "وأولى الأقوال في ذلك: تأويل ابن عباس ومن قال بقوله. ومعنى ذلك: فقال: أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيتها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض من يفسد في الأرض ويسفك الدماء من غيرنا؟ أم منا؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خيلتي في الأرض من غيركم، عصاني ذريته، وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعموني، واتبعتم أمري بالتعظيم لي، والتقديس، فإن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم، وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

{ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }، هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى، أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، أو أن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم تعالى؛ ولهذا قالوا { سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }، أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك من تشاء، ومنعك من تشاء؛ لك الحكمة في ذلك، والعدل التام .

وقوله تعالى { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } .

لما ظهر فضل آدم -عليه الصلاة والسلام- على الملائكة -عليهم السلام- في سرده ما علمه الله (تعالى) من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }، أي: ألم أتقدم إليكم أي أعلم الغيب الظاهر والخفي؟ كما قال تعالى { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى }، وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان { أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } . وقال ابن جرير: "وأولى الأقوال في ذلك: قول ابن عباس، وهو: أن معنى قوله { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ } { وَأعلم -مع علمي غيب السموات والأرض- ما تُظهرون بألسنتكم، { وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } { تخفونه في أنفسكم؛ فلا يخفى عليّ شيء. سواء عندي: سرائركم وعلانياتكم. والذي أظهوره بألسنتهم: قولهم { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا }، والذي كانوا يكتُمونه: ما كان عليه منطوياً إبليس، من الخلاف على الله في أمره، والتكبر عن طاعته .

قال ابن جرير: وصح ذلك كما تقول العرب: قَتَلَ الْجَيْشُ وَهَزَمُوا، وإنما قَتَلَ الْوَاحِدُ أَوْ الْبَعْضُ، وَهَزَمَ الْوَاحِدُ أَوْ الْبَعْضُ؛ فيخرج الخبر عن المهزوم منه أو المقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ }، دُكِرَ أَنْ الَّذِي نَادَى إِذَا كَانَ وَاحِدًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ. قال: وكذلك قوله { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } .

## المعنى الإجمالي.

يتمتع الله تعالى على عباده، بتكريمه لأبيهم آدم، حيث جعله خليفة لِمَن سبقه في الأرض من الجن، ويخلفه ذريته فيها قرناً بعد قرن. وأخبر ملائكته بذلك، فسألوا على سبيل التعجب ممّا رأوه من فساد من سكن الأرض قبل هذا من الجنّ، وممّا أطلعهم الله عليه من حصول القتال والفساد في الأرض من هذا الخلق فقالوا: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟} وتساءلوا: ألاّ يمكن أن يُعني عن ذلك وجودهم هم، حيث ينزهون الله تعالى ويعظمونه، ويقومون له بما يستحق؟ فأعلمهم سبحانه أنه قد علم ما لم يعلموه من حكم عظمة وأمور تترتب على خلق هذا الخلق. ثم أكرم الله آدم بالعلم فعلمه الأسماء كلها فلم يترك شيئاً من الذوات والأفعال إلاّ ألهمه اسمه مهما دق وحقر، ثم عرض هذه المسئيات على الملائكة ليُعلمهم فضل هذا المخلوق، { فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { في ظنكم أن هذا المخلوق سيكون للفساد والقتل، فردّوا العلم إليه سبحانه، وأنهم لا يعلمون إلاّ ما أعلمهم إياه؛ فهو العليم المحيط بكل شيء علماً، الحكيم الذي وسعت حكمته كل شيء. فأمر آدم بإخبارهم بما عجزوا عنه. فلمّا فعل أخبرهم الله أنه هو العالم بما في الغيب ممّا يتعلق بهذا الخلق وغيره من أمر السموات والأرض، وأنه قد علم منهم ما يظهرونه من خوف ممّا يترتب على هذا الخلق من فساد وما يكتمونونه مما يدور في أنفسهم من تعجب منه واستشكال للحكمة من وجوده، وشعور بأنهم أولى منه وأكرم على الله، وحصول الحسد ممن بينهم له وهو عدو الله إبليس.

## مسائل الآية.

### الأولى :

قال ابن كثير: وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة، ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمّة، التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام؛ وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تُنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنّة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقوله

آخرون منهم، أو باستخلاف خليفة آخر بعده، كما فعل الصديق في عمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين لذلك، كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته، أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم .

أو يقهر واحد الناس على طاعته، فتجب، لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، ونص عليه الشافعي .

وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف؛ منهم من قال: لا يشترط. وقيل: بلى ويكفي شاهدان. وقيل غير ذلك...

ويجب أن يكون ذكراً، حراً بالغاً، عاقلاً مسلماً، عدلاً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب والآراء، قرشياً على الصحيح. ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً لغلاة الروافض.

ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا؟ فيه خلاف. والصحيح: لا ينزل، لقوله -عليه والسلام :-

((إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان.))

وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف. وقد عزل الحسن بن علي نفسه، وسلم الأمر إلى معاوية، لكن كان هذا لعذر وقد مُدح على ذلك .

فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر، فلا يجوز لقوله عليه السلام ((من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم، فاقتلوه كائناً من كان.)) (وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، منهم إمام الحرمين .

وقالت الكرامية بجواز نصب اثنين فأكثر. وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق، أنه جوّز نصب إمامين فأكثر، إذا تباعدت الأقطار، واتسعت الأقاليم بينهما. وتردد إمام الحرمين في ذلك .

قال ابن كثير: قلت: وهذا يُشبهه حال خلفاء بني العباس في العراق، والفاطميين بمصر، والأمويين بالمغرب .

الثانية :

الخليفة هنا: الصحيح أنّ المراد: مَنْ يخلف غيره، وليس خليفة عن الله كما ذهب إليه بعض المفسرين، وقد حرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وملخص ذلك: أن الله هو الخليفة لكل مسلم، كما قال -صلى الله عليه وسلم- في حديث الدجال)) : إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه. وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم .((وكما في قوله)) :اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل .((والخليفة يكون بدلاً عمّن غاب؛ والله - سبحانه وتعالى - لا يعزب عنه شيء .

الثالثة :

جاء في الآثار: أن إبليس كان من الملائكة وهذا القول مرجوح .والراجح أنه من الجن كما سيأتي الحديث عنه في محلّه .

الأسئلة :

١. ذكر أبو عبيدة أن ( إذ ) في قوله تعالى ( وإذ قال ربك ) زائدة وأن تقدير الكلام ( وقال ربك ) ورجحه كثير من المفسرين منهم الطبري والقرطبي ( خطأ ) .
٢. ( إذ ) يجوز أن ينتصب بفعل ( قالوا ) أو بإضمار ( اذكر ) .
٣. الخليفة من يخلف غيره والمعنى خليفة منكم لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته ( صح ) .
٤. والتسبيح من السباحة ( صح ) .
٥. التقديس هو الإبعاد من قولهم : قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ( صح )
٦. ( وبحمدك ) في موضع الحال أي : نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللفظ لم نتمكن من عبادتك ( صح ) .
٧. ( وبحمدك ) أي : نسبحك بما حمدت به نفسك من إثبات صفات الكمال والجلال والعظمة ( صح ) .
٨. عن أبي مالك قال ما كان في القرآن إذ فقد كان ( صح ) .

٩. ( آدم ) من الأدمة ومن أديم الأرض نحو اشتقاقهم يعقوب من العقب وإدريس من الدرس وإبليس من الإبلاس ( صح ) .
١٠. جاء في الآثار أن إبليس كان من الملائكة وهذا القول هو القول الراجح وعليه جمهور الأئمة والمفسرين ( خطأ ) .
١١. الخليفة هنا ليس خليفة عن الله بل هو الذي يخلف غيره كما بين ذلك وفصله شيخ الإسلام ابن تيمية ( صح ) .
١٢. قد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ( صح ) .
١٣. الآية تشير إلى أن هناك من سكن الأرض قبل آدم وذريته وأنهم أفسدوا في الأرض ( صح ) .
١٤. تعجبت الملائكة لما أخبرها الله بأن هذا الخليفة سوف يفسد في الأرض فقالت ما قالت ( صح ) .
١٥. إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب ( صح ) .
١٦. خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاسمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فذهب فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم طوله ستون ذراعاً فلم تزل الخلق تنقص حتى الآن ( صح ) .
١٧. علم الله آدم الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان دابة وأرض وبحر وسهل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ( صح ) .
١٨. العليم الذي قد كمل في علمه الحكيم الذي قد كمل في حكمه ( صح ) .
١٩. المراد بقوله ( وما كنتم تكتمون ) أي : ما يكتمه الخلق في صدورهم من الخواطر والنيات ( خطأ ) .
٢٠. المراد بقوله ( وما كنتم تكتمون ) ما كتمته الملائكة لما خلق الله آدم من قولهم فيما بينهم : لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ( صح ) .
٢١. المراد بقوله ( وما كنتم تكتمون ) ما في قلب إبليس من الكبر والحسد ( صح ) .

٢٢. في الآيات امتنان الله على بني آدم بذكر خلق أبيهم وما كان من تكريمه له ( صح ) .
٢٣. قول الملائكة ( أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ) فيه إشارة إلى حسدهم لآدم وما علموا أن الله سيفضله به ، وليس هو بالحسد المذموم وإنما هو من جنس حسد الغبطة المحمود ( خطأ ) .
٢٤. قوله تعالى ( إني أعلم ما لا تعلمون ) أي : من الحكم العظيمة في خلق هذا الخليفة في الأرض ( صح ) .
٢٥. قوله تعالى ( إني أعلم ما لا تعلمون ) أنكم لستم جميعاً كما تقولون فإن فيكم إبليس وهو ليس كذلك ( صح ) .
٢٦. جاء في الحديث الذي صححه ابن كثير وغيره أن النبي ﷺ : دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت فهي أول من طاف به وهي الأرض التي قال الله إني جاعل في الأرض خليفة وكان النبي إذا هلك قومه نجا هو والصالحون أتاها هو ومن معه فيعبدون الله بها حتى يموتوا فيها وإن قبر نوح وهود وشعيب وصالح بين زمزم وبين الركن والمقام ( خطأ ) .
٢٧. قال ابن جرير : فكان تأويل الآية على هذا : إني جاعل في الأرض خليفة مني ، يخلفني في الحكم بين خلقي ، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه . وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها ، فمن غير خلفائه ( صح ) .
٢٨. ذكر الله تعليم آدم الأسماء كلها قبل ذكر سجود الملائكة لآدم يدل على أنه قبل السجود ورفض إبليس له ( خطأ ) .
٢٩. قد قرأ عبد الله بن مسعود : ثم عرضهن . وقرأ أبي بن كعب : ثم عرضها . أي : المسميات ، وهي قراءات ثابتة متواترة ( خطأ ) .
٣٠. ذكر قصة آدم في أول البقرة فيه دلالة على أن النوع الآدمي هو المقصود من هذا الوجود ( صح ) .

## المحاضرة العشرون

\*\*\*

تفسير الآية رقم (٣٤) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. }

القراءات:

ليس فيها أوجه تتعلق بالمعنى.

المناسبة

:

ما زلنا في قصة خلق آدم، والكلام متّصل ببعضه.

لغويّات.

{ إِلَّا إِبْلِيسَ : } استثناء متصل، لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوّف من الملائكة، مغموراً بهم، فعُلبوا عليه في قوله { فَسَجَدُوا }، ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يُجعل منقطعاً.

{ إِبْلِيسَ : } اسم أعجمي ممنوع من الصّرف للعلميّة والعُجمة، ووزنه: "فَعْلِيل"؛ قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة، وغيره: إنه عربيّ مشتقّ من: الإِبلاس، وهو: الإبعاد من الخير، أو اليأس من رحمة الله تعالى. ووزنه على هذا: "مَفْعِيل". ومنعه من الصّرف حينئذ لكونه لا نظير له في الأسماء؛ واعتُرض بأن ذلك لم يُعدّ من موانع الصّرف، مع أن له نظائر كـ"إِحْلِيل" و"إِكْلِيل"، وفيه نظر. وقيل: لأنه شبيه بالأسماء الأعجمية، إذ لم يُسمَّ به أحد من العرب؛ وليس بشيء.

## الآثار.

عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى للملائكة- الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات { :-اسْجُدُوا لِآدَمَ }، فسجدوا { كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ }، { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ - } لما كان حدّث نفسه من الكبر والاعتزاز- فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنأ، وأقوى خلقاً، خلقتني من نار، وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد، أبلسه الله -آيسه من الخير كله-، وجعله شيطاناً رجيماً، عقوبة لمعصيته. ثم { عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا. }

ذكر هذا الأثر ابن كثير مطوّلاً، وقد ذكرنا باقيه في المحاضرة السابقة. ثم قال: هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها؛ وهذا الإسناد إلى ابن عباس يُروى به تفسير مشهور .

قلت: يعني بذلك: تفسير الضحاك عن ابن عباس، وهو ضعيف منقطع. وقال السدي في تفسيره بأسانيده: لما فرغ الله من خلق ما أحب، استوى على العرش. فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجنّ، وإنما سُموا: "الجنّ"، لأنهم خزّان الجنة. وكان إبليس- مع ملكه- خازناً، فوقع في صدره وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزيتة لي على الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه، فقال الله للملائكة { :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، فقالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرّية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، يعني: من شأن إبليس. فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني، أو تشينني. فرجع، ولم يأخذ، وقال: رب! إنها عاذت بك فأعدتها. فبعث ميكائيل فعادت منه، فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل. فبعث ملك الموت، فعادت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنقذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين. فصعد به، فبلّ التراب حتى عاد طينا لازباً -واللازب هو: الذي يلتزق بعضه ببعض-. ثم قال للملائكة { :إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . { فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملت بيدي، ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشراً؟ فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة. فمرت به الملائكة، ففرعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فرعاً: إبليس؛ فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة - فذلك حين يقول { مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ - }، ويقول: لأمرٍ ما خلقت! ودخل من فيه فخرج من ذبوره. وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا! فإن ربكم صمد، وهذا أجوف. لعن سلطت عليه لأهلكته. فلما بلغ الحين الذي يريد الله - عز وجل - أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه، عطس، فقالت الملائكة: قل: "الحمد لله". فقال: الحمد لله. فقال له الله: رحمك ربك. فلما دخلت الروح في عينيه، نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل الروح في جوفه، اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجله، عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول تعالى { خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ . } { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ }، { أَبِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . } { قَالَ اللَّهُ لَهُ { : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي }، { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ }، { لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لَيْشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ اللَّهُ لَهُ { : اخْرُجْ مِنْهَا }، { فَمَا يَكُونُ لَكَ }، { يعني: ما ينبغي لك، { أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }، والصغار هو: الذل. ذكره ابن كثير أيضاً بأطول منه ثم قال: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليّات كثيرة، فلعل بعضها مُدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة - والله أعلم - . والحاكم يروي في "مستدرکه" بهذا الإسناد بعينه أشياء، ويقول: هو على شرط البخاري.

قلت: هذا الإسناد مُركَّب من عدّة أسانيد تصل إلى الخمسة، منها: الضعيف ومنها الصحيح، وقد قام السدي بخلط ما سمعه من هذه الطُّرق، فساقه مساقاً واحداً بهذا الإسناد؛ ولذا أصبح منسوباً إليه، فيقال تفسير السدي، وهذا هو السبب الذي جعل ابن أبي حاتم - والله أعلم - لا يُسند ما ذكره من هذا التفسير، فلا يجاوز به السدي. وبناءً عليه، فقد يكون جلّ هذا التفسير من الطريق الضعيفة، فلا يمكن الجزم بصحّته إلا في حالات معيّنة، ومنها: أن يُخرج أحد المصنِّفين رواية منه مميّزة مقتصرة على طريق واحد، ويكون هذا الطريق صحيحاً

كما عند الحاكم في بعض المواضع، أو أن يأتي ما يشهد لطريق منها من غير رواية السدي .  
ويُجزم بضعف هذا التفسير إذا انعدم ما تقدّم، أو ثبتت مخالفته للروايات الصحيحة، أو  
موافقته للضعيفة.

وقد تساهل البعض، أو وهم في قبول هذا الإسناد على إطلاقه، في حين رده آخرون مطلقاً،  
والصواب التفصيل.

وعن ابن عباس قال: كان إبليس -قبل أن يركب المعصية- من الملائكة، اسمه: "عزازيل".  
وكان من سكان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً؛ فذلك دعاه إلى  
الكبر. وكان من حيّ يُسمّون: "جنّاً".

وعنه، قال: كان إبليس اسمه: "عزازيل"، وكان من أشرف الملائكة، من ذوي الأجنحة  
الأربعة، ثم "أبلس" بعد .

وعنه أيضاً: كان إبليس من أشرف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان  
له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وعنه: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم: "الجنّ"، فكان إبليس منهم. وكان يسوس ما بين  
السماء والأرض؛ فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

وعن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا .

وعن الحسن قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجنّ، كما أن آدم  
أصل الإنس. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد  
بن أسلم سواء .

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجنّ الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة،  
فذهب به إلى السماء؛ رواه ابن جرير .

وعن سعد بن مسعود، قال: كانت الملائكة تُقاتل الجنّ، فسُبي إبليس، وكان صغيراً، فكان  
مع الملائكة فتعبّد معها، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس. فلذلك قال تعالى :  
{إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ .}

عن ابن عباس، في قوله { :اسْجُدُوا لِآدَمَ }، قال: كانت السجدة لآدم، والطاعة لله .

و عن ابن عباس في الآية، قال: أمرهم أن يسجدوا، فسجدوا له، كرامةً من الله أكرم بها

آدم .

وقال قتادة، في قوله تعالى { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ : { فكانت الطاعة لله،  
والسجدة (لآدم)، أكرم الله (تعالى) آدم أن أسجد له ملائكته.

وقال قتادة، في قوله تعالى { فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ : { حسد  
عدو الله إبليس آدم - عليه السلام - على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا نارِي، وهذا  
طينِي. وكان بدء الذنوب: الكِبْر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم - عليه السلام. -

وعن أبي إبراهيم المزني: أنه سئل عن سجود الملائكة لآدم، فقال: إن الله جعل آدم كالكعبة .  
وعن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي قال: كان سجود الملائكة لآدم إيماء .

وعن ضمرة قال: سمعت مَنْ يَذْكَرُ أَنَّ أَوَّلَ الْمَلَائِكَةِ خَرَّ سَاجِدًا لِلَّهِ حِينَ أُمِرَتْ الْمَلَائِكَةُ  
بِالسُّجُودِ لِآدَمَ: إِسْرَافِيلُ، فَأَثَابَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ؛ أَنْ كَتَبَ الْقُرْآنَ فِي جِبْهَتِهِ .

وعن عمر بن عبد العزيز، قال: لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، كان أوّل من سجد:  
إِسْرَافِيلُ؛ فَأَثَابَهُ اللَّهُ أَنْ كَتَبَ الْقُرْآنَ فِي جِبْهَتِهِ .

وعن ابن عباس، قال: إِنَّمَا سُمِّيَ: "إِبْلِيسَ"، لِأَنَّ اللَّهَ أَبْلَسَهُ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، فَأَيْسَهُ مِنْهُ .  
وعن السدي، قال: كان اسم إبليس: "الحارث" .

وعن محمد بن عامر المكي، قال: خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجنّ من نار، وخلق  
البهائم من ماء، وخلق آدم من طين؛ فجعل الطاعة في الملائكة، وجعل المعصية في الجنّ  
والإنس .

وأخرج محمد بن نصر، عن أنس، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: ((- إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ  
آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَقَالَ: "لَكَ الْجَنَّةُ، وَلِمَنْ سَجَدَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ". وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ فَأَبَى  
أَنْ يَسْجُدَ، فَقَالَ: "لَكَ النَّارُ، وَلِمَنْ أَبَى مِنْ وَلَدِكَ أَنْ يَسْجُدَ.))

وعن ابن عباس، قال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقًا فَقَالَ { اسْجُدُوا لِآدَمَ }، فَقَالُوا: لَا نَفْعَ لَنَا. فَبَعَثَ  
اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَارًا تُحْرِقُهُمْ. ثُمَّ خَلَقَ خَلْقًا آخَرَ، فَقَالَ { إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ }، { اسْجُدُوا  
لِآدَمَ } . { قَالَ: فَأَبَوْا، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَارًا، فَأَحْرَقْتَهُمْ. ثُمَّ خَلَقَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ { اسْجُدُوا  
لِآدَمَ }، قَالُوا: نَعَمْ. وَكَانَ إِبْلِيسَ مِنْ أَوْلَادِكَ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَسْجُدُوا لِآدَمَ .

قال ابن كثير: وهذا غريب، ولا يكاد يصحّ إسناده، فإن فيه رجلاً مبهمًا، ومثله لا يُنتج به

-والله أعلم .-

وعن عبد الله بن بريدة: قوله { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } : { من الذين أبوا، فأحرقتهم النار .  
وعن أبي العالية { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ، يعني: من العصيين .  
وقال السدي، { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } : { الذين لم يخلّهم الله (يومئذ)، يكونون بعد .  
وقال محمد بن كعب القرظي: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل  
الملائكة، فصيّره إلى ما أبدأ عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } .  
وعن ابن عباس في قوله { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ، قال: جعله الله كافراً لا يستطيع أن يؤمن .  
وعن ابن عمر قال: لقي إبليس موسى، فقال: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته،  
وكلمك تكليماً إذا تبت . وأنا أريد أن أتوب؛ فاشفع لي إلى ربي أن يتوب علي! قال موسى:  
نعم . فدعا موسى ربه، فقيل: يا موسى، فُضيت حاجتك . فلقي موسى إبليس، قال: قد  
أمرت أن تسجد لقبر آدم، ويُناب عليك . فاستكبر وغضب، وقال: لم أسجد له حياً، أسجد  
له ميتاً؟! ثم قال إبليس: يا موسى، إنّ لك علي حقاً بما شفعت لي إلى ربك، فاذكرني عند  
ثلاث لا أهلكك فيهن: اذكرني حين تغضب، فإني أجري منك مجرى الدم . واذكرني حين  
تلقى الزحف، فإني آتي ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره ولده وزوجته حتى يُولي . وإياك أن  
تجالس امرأة ليست بذات محرم! فإني رسولها إليك ورسولك إليها .  
وعن أنس قال: إن نوحاً لما ركب السفينة أتاه إبليس، فقال له نوح: من أنت؟ قال: أنا  
إبليس . قال: فما جاء بك؟ قال: جئتُ تسأل لي ربي: هل لي من توبة؟ فأوحى الله إليه: إن  
توبته أن يأتي قبر آدم فيسجد له . قال: أما أي لم أسجد له حياً، أسجد له ميتاً؟ قال:  
فاستكبر، { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } .  
وعن جنادة بن أبي أمية، قال: كان أول خطيئة كانت: الحسد؛ حسد إبليس آدم أن يسجد  
له حين أمر، فحمله الحسد على المعصية .

## أقوال المفسرين.

هذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم، امتنّ بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أيضاً أحاديث كثيرة، منها: حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى -عليه السلام-: رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة. فلما اجتمع به قال أنت آدم الذي (خلقك الله) بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. الحديث

فقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا. } وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية، ولكنه نُسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يُسجد لك. فقال: ((لا، لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظيم حقه عليها.)) (ورجحه الرازي).

وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله، وآدم قبلة فيها، كما قال { أقيم الصلاة لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ }، قال ابن كثير: "وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أنّ القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وإعظماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله -عز وجل-، لأنها امتثال لأمره تعالى. وقد قواه فخر الدين الرازي في تفسيره، وضعف ما عداه من القولين الآخرين، وهما: كونه جعل قبلة، إذ لا يظهر فيه شرف. والآخر: أنّ المراد بالسجود: الخضوع، لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض؛ وهو ضعيف كما قال."

قلت: الظاهر: أنه سجود كالسجود المعهود في الصلاة ونحوها، لتضافر الأدلة على ذلك، كما في حديث سجود القرآن الذي فيه: إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان بيكي ويقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار. قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحيح)) : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر. ((وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد، ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحظيرة القدس.

قال: والغرض: أنّ الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم، إلاّ أنه كان قد تشبّه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر .وسنسط المسألة -إن شاء الله تعالى- عند قوله تعالى { :إلّا إبليسَ كانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنَ أَمْرِ رَبِّهِ .}

(قال بعض المفسرين { :وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }، أي: وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال { :فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ }، وقال { :فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .}

وقال الشاعر :

بتيهاء قفرٍ ، والمطّي كأنها	قطا الحزن قد كانت فراخاً
	يُبوضها

أي: قد صارت .

وقال ابن فورك: تقديره: وكان في علم الله من الكافرين، ورجّحه القرطبي . قال ابن كثير: وقد حكى الرازي وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض أو عام في ملائكة السموات والأرض؟ وقد رجّح كلاً من الفريقين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم { :فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إلاّ إبليسَ }، فهذه أربعة أوجه مقوِّية للعموم -والله أعلم.-)

قلت: يعني -والله أعلم-: اللام التي لاستغراق الجنس في قوله { :الْمَلَائِكَةُ }، والتأكيد بقوله : { كُلُّهُمْ }، ثم بقوله { :أَجْمَعُونَ }، ثم الاستثناء لإبليس فقط؛ فهذه هي الأوجه الأربعة المقوِّية للعموم.

### المعنى الإجمالي.

يُذَكِّرُ اللهُ -سبحانه وتعالى- بنعمة أخرى كرم الله بها الإنسان، حيث أمر ملائكته الكرام أن يسجدوا لأصله، وهو نبيّ الله آدم -عليه السلام- سجدوا تحيةً وتكريماً؛ فبادروا إلى طاعته سبحانه، ما عدا إبليس لعنه الله الذي كان من الجن؛ وهم صنف من المخلوقات مكلف لم يجبل على الطاعة، فعاند أمر الله، واستكبر عن طاعة ربه، ورفض الانصياع لهذا الأمر،

واعترض على حُكم الخالق -جل وعلا-، فكفر بذلك كُفر الإباء والاستكبار الناقل عن الإيمان.

## مسائل الآية.

الأولى :

في تمكّن إبليس من فعل الخوارق، وما كان فيه من منزلة عالية، فلم يختم له إلا بالكفر. ذكر العلماء هنا مسألة، وهي: مَنْ أظهر الله على يديه -ممن ليس بنبي- كرامات وخوارق للعادات، فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة، لأننا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه، أنه يوافي الله بالإيمان، ولا هو يقطع لنفسه بذلك. قال ابن كثير: وقد استدلل بعضهم على أنّ الخارق قد يكون على يدي غير الولي، بل قد يكون على يدي الفاجر والكافر أيضاً، بما ثبت عن ابن صياد: أنه قال: هو الدُّخ، حين خبأ له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: -فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ {، وبما كان يصدر عنه (من) أنه كان يملأ الطريق إذا غضب، حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال، بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه، إلى غير ذلك من الأمور المهولة ...

وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصديقي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. فقال الشافعي: قصر الليث -رحمه الله- بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

ومن هنا، قال العلماء: إنّ العبرة بالإيمان الذي يوافي العبد عليه ويأتي متصفاً به في آخر حياته وأول منازل آخرته؛ ولذا يصحّ: "أنا مؤمن -إن شاء الله تعالى-"، بالشكّ، ولكن ليس في الإيمان الناجز، بل في الإيمان الحقيقيّ المعتر عند الموت وختم الأعمال.

الثانية :

اختلف أهل السُّنَّة والخوارج في مُرتكب الكبيرة؛ فأهل السُّنَّة لا يكفِّرونه، ويروونه مؤمناً ناقص الإيمان، والخوارج يكفِّرونه ويُخرجونه من الملة. وكفّر إبليس بموجب هذه الآية، ليس لترك الواجب وفعل المعصية - كما زعم الخوارج متمسكين بهذه الآية-، بل باستقبحه أمر الله تعالى بالسجود لمن يعتقد أنه خير منه وأفضل، كما يدل عليه الإباء والاستكبار؛ وفرق كبير بين المعصية مع الإذعان، وبين التَّكَبُّر على أمر الله ورفضه واعتقاد عدم صحته.

الثالثة

:  
واختلف الناس فيه: هل هو من الملائكة، أم من الجن؟ فذهب إلى الثاني جماعة مستدلِّين بقوله تعالى { :إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ }، وبأن الملائكة لا يستكبرون، وهو قد استكبر، وبأن الملائكة كما روى مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- خُلِقُوا مِنَ النُّورِ، وَخُلِقَ الْجِنُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ. وهو قد خُلِقَ مِمَّا خُلِقَ الْجِنُّ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةَ عَنْهُ : { :أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ }، وعدّ تركه السجود إباءً واستكباراً حينئذ، إما لأنه كان ناشئاً بين الملائكة مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه، وتناولوا الأمر ولم يمتثل، أو لأن الجن أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة، لكنه استغنى بذكرهم لمزيد شرفهم عن ذكر الجن، أو لأنه عليه اللعنة كان مأموراً صريحاً لا ضمناً كما يشير إليه ظاهر قوله تعالى { :إِذْ أَمَرْتُكَ }، وضمير { :فَسَجَدُوا } راجع للمأمورين بالسجود .

وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين إلى الأوّل، مستدلِّين بظاهر الاستثناء، وتصحيحه بما ذكر: تكلف، لأنه وإن كان واحداً منهم لكن كان رئيسهم ورأسهم، كما نطقت به الآثار، فلم يكن مغموراً بينهم، ولأنّ صرف الضمير إلى مُطلق المأمورين مع أنه في غاية البعد لم يثبت إذ لم يُنقل أن الجنّ سجدوا لآدم سوى إبليس، وكونه مأموراً صريحاً، الآية غير صريحة فيه، ودون إثباته حُرْطُ الْقَتَادِ. واقتضاء ما ذكر من الآية كونه من جنس الجن ممنوع، لجواز أن يراد كونه منهم فعلاً. وقوله تعالى { :فَفَسَقَ } كالبيان له. ويجوز أيضاً أن يكون { :كَانَ } بمعنى " :صار"، كما روي أنه مُسَخَّحٌ بسبب هذه المعصية، فصار جنياً كما مسخ اليهود فصاروا قردة وخنزير.

سَلَمْنَا، لكن لا منافاة بين كونه جنًا وكونه ملكاً؛ فإن الجن كما يُطلق على ما يقابل المَلِك، يقال على نوع منه على ما روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وكانوا خزنة الجنة أو صاغة حُلِيهم. وقيل: صَنَف من الملائكة لا تراهم الملائكة مثلنا، أو أنه يقال للملائكة: جنٌّ أيضاً - كما قاله ابن إسحاق - لاجتنانهم واستتارهم عن أعين الناس، وورد مثله في كلام العرب؛ فقد قال الأعشى في سليمان -عليه السلام:-

وسخّر من جنّ الملائك تسعة قياماً لديّه يعملون بلا أجرٍ

وكون الملائكة لا يستكبرون، وهو قد استكبر، لا يضرب؛ إمّا لأنّ من الملائكة من ليس بمعصوم، وإن كان الغالب فيهم العصمة على العكس منا . وإمّا لأن إبليس سلبه الله تعالى الصفات الملكية، وألبسه ثياب الصفات الشيطانية، فعصى عند ذلك، والمَلِك ما دام ملكاً لا يعصي .

وكونه مخلوقاً من نار، وهم مخلوقون من نور، غير ضارّ أيضاً ولا قادح في ملكيّته، لأن النار والنور متحدًا المادّة بالجنس، واختلافهما بالعوارض؛ على أنّ ما في حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- من خلق الملائكة من النور جار مجرى الغالب، وإلا خالفه كثير من ظواهر الآثار إذ فيها أن الله تعالى خلق ملائكة من نار، وملائكة من ثلج، وملائكة من هذا وهذه، وورد أن تحت العرش نهرًا إذا اغتسل فيه جبريل -عليه السلام- وانتفض يخلق من كل قطرة منه ملك .

هذا مجمل كلام الألوسي -رحمه الله.-

قلت: مع احترامنا للتوجيهات المذكورة نقول:

أولاً: لا بد قبل هذا التوجيه، من النظر في أسانيد الآثار التي جازمت بكونه من الملائكة، وجلّها ضعيفة لا تثبت.

ثانياً: إذا ثبت منها شيء، ينظر هل يمكن أن يكون مأخوذاً عن أهل الكتاب، أم لا؟  
ثالثاً: يُنظر هل عارضها غيرها من الآثار أم لا؟ فليس الأخذ ببعضها أولى من البعض الآخر.  
رابعاً: القول بأنه من الملائكة لا يخدمه إلا الاستثناء الذي في الآية فقط، وهذا يمكن توجيهه بما تقدم من توجيهات مقبولة غير متكلفة. وأما القول بأنه من الجن فيخدمه نصوص عديدة صريحة منها قوله { :كَانَ مِنَ الْجِنِّ }، وقوله { :خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ }، والحديث

الصريح)) : خُلقت الملائكة من النور، وخلق الجان من النار. ((وما تقرر في نصوص عدة من أن الملائكة عباد مكرمون، لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وغير ذلك... والرد على هذا وغيره واضح جداً تكلفه.

خامساً : التوجيهات المذكورة عليها ملاحظات كثيرة، ومنها:

التسليم للآثار مع ضعف جلّها وادّعاء ما يوحي بكثرة القائلين.

اللجوء للمعنى البعيد وخلاف الأصل، لتمرير القول، مع وضوح فساد ذلك أيضاً، كما في اعتبار "كان" بمعنى: "صار"؛ وهذا مردود، لأن قوله { : كَانَ مِنَ الْجِنِّ } لا يمكن أن تكون بمعنى "صار" حيث إن الآثار المحتجّ بها لا تخدم ذلك بل تردّه، ثم إن رفض إبليس للسجود كان مُعلّلاً بقوله { : خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ }، وهو لم يُمسَخ من خلقته الملائكية لخلقة الجن على هذا القول إلا بعد الاعتراض. فكيف قال ذلك قبل مسخه؟ كما أنّ المسخ إنما يكون في الصورة وليس في أصل مادّة الخلق، ويكون لغرض التحقير والإذلال؛ ولا يظهر هنا كما يظهر في مسخ اليهود قرده وخنازير.

أيضاً : نسف النصوص الشرعية باحتمالات عقلية مفترضة أو بروايات واهية، كالقول بأن الملائكة فيهم من ليس بمعصوم أو أنّ منهم من خلق من الثلج ونحو ذلك .

التدريج بالاتفاق في أصل الاشتقاق، فوصف الملائكة بالاجتنان، لاشتراكهم مع الجنّ في الاستتار عن الأعين، لا يعني أن الجنّ قبيل منهم؛ وقد سُمّيت الجنّة بذلك، لأنها تستر من داخلها بأشجارها، وسُمّيت الجنّة بذلك لأنها تحمي صاحبها من طعنات خصمه، وهكذا سائر المشتقات، ولا ارتباط بينها نسباً.

وأخيراً: النصوص الشرعية واضحة ومتضافرة على أنّ الله خلق إنساً وجنّاً وملائكة، وأنّ كلاً منها خلق من مادة سوى الآخر، وأنّ الثقلين مكلفان والملائكة بخلاف ذلك، والخروج عن هذا الأصل يستلزم نصوصاً من كتاب أو سنة صحيحة صريحة، تحرقه ولا يتوفر ذلك هنا - وباللّه التوفيق.-

#### الرابعة

:

تأمل كيف ينحرف إلى الزيغ والانحراف مَنْ لم يعصمه الله ولو كان عالماً، في هذه الكلمات القلائل التي ذكرها الألويسي عند تفسير هذه الآيات- عفا الله عنه-، حيث يقول: "وافهم كلام القوم -نفعنا الله تعالى بهم-: أن جميع المخلوقات -عُلُوِّيَّها وسُفْلِيَّها، سعيدها وشقيَّها- مخلوق من الحقيقة المحمدية -صلى الله تعالى عليه وسلم-... وفي الآثار ما يؤيد ذلك، إلا أن الملائكة العلويين خُلقوا منه -عليه الصلاة والسلام- من حيث الجمال، وإبليس من حيث الجلال... إلخ كلام يشبه كلام الميرسَمين. اللهم حوالينا ولا علينا. نكتفي بهذا القدر، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

#### الأسئلة :

١. اختلفوا في اسم ( إبليس ) هل هو أعجمي أو عربي ، ومن قال هو عربي قال أصله من الإبلّاس وهو الإبعاد من الخير واليأس ( صح ) .
٢. إبليس ممنوع من الصرف للعجمة ولأنه على وزن من أوزان المبالغة ( خطأ ) .
٣. قوله ( إلا إبليس ) استثناء متصل لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوّف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه في قوله فسجدوا ثم استثنى منهم استثناء واحد ( صح ) .
٤. قوله ( إلا إبليس ) استثناء منقطع لأن إبليس ليس من جنس الملائكة ( صح ) .
٥. الصحيح أن إبليس من جنس الملائكة لأن الأمر بالسجود كان للملائكة ولو لم يكن منهم لم يؤمر معهم ( خطأ ) .
٦. الأمر بالسجود شمل إبليس مع أنه موجه للملائكة لأنه كان معهم وبينهم فجاء الأمر لهم ولمن معهم تبعاً ( صح ) .
٧. السجود لآدم كان من باب التكريم له طاعة لله عز وجل ( صح ) .
٨. إبليس كان من الجن بدليل قوله تعالى ( إلا إبليس كان من الجن ) ( صح ) .
٩. قوله ( وكان من الكافرين ) أي : كان من الذين خلقهم الله على الكفر فلا يستطيع الإيمان ( صح ) .
١٠. قوله ( وكان من الكافرين ) أي : كان بمخالفتهم أمر الله من الكافرين ( صح ) .

- ١١- السجود لغير الله إن كان من باب التحية فهو جائز غير محرم بدليل سجود الملائكة لآدم وسجود إخوة يوسف ليوسف ( خطأ ) .
- ١٢- اختلف العلماء هل المأمورون بالسجود كانوا جميع الملائكة أو هم ملائكة الأرض فقط على قولين أرجحهما هو الثاني ( خطأ ) .
- ١٣- قوله ( فسجد الملائكة ) اللام فيها للعهد ، أي : الملائكة الذين أمروا بالسجود ( خطأ ) .
- ١٤- الآيات فيها تذكير لبني آدم بنعمة الله عليهم في تكريم أبيهم حتى أسجد لهم الملائكة ( صح ) .
- ١٥- في الآيات دليل على أن من ظهرت على يديه بعض الخوارق لا يدل ذلك على أنه من الأولياء لأنه لا يعلم هل يختم له بالكفر أو الإيمان ( صح ) .
- ١٦- قد تظهر الخوارق على يد غير المؤمن أصلاً ( صح ) .
- ١٧- في الآية دليل على أن مرتكب الكبيرة مع الإصرار عليها يكون كافراً لكون إبليس كفر بمخالفة أمر الله ( خطأ ) .
- ١٨- الخلاف وقع بين العلماء هل إبليس من جنس الملائكة أم لا ( صح ) .
- ١٩- أكثر الآثار التي جاء فيها أن إبليس من الملائكة ضعيفة لا تثبت ( صح )
- ٢٠- الآثار الثابتة بكون إبليس من الملائكة قد تكون مأخوذة عن أهل الكتاب ( صح ) .
- ٢١- الآثار بكون إبليس من الملائكة ليس لها ما يعارضها من الصحيح ( خطأ )
- ٢٢- الذين ذهبوا إلى أن إبليس كان من الملائكة تكلفوا كثيراً في رد النصوص الكثيرة في أنه ليس منهم ( صح ) .
- ٢٣- النصوص الشرعية تؤكد أن الله خلق ملائكة وجناً وإنساً وأن كل واحد من هذه الأجناس غير الثاني ( صح ) .
- ٢٤- ورد في قصة خلق آدم أنه لما دخلت الروح في عينيه ، نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل الروح في جوفه ، اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول تعالى : ( خلق الإنسان من عجل ) ( صح ) .

٢٥. غالب ما في تفسير السدي أخذه من روايات كثيرة غالبها ضعيف وخلطها ببعضها ( صح ) .

٢٦. يجزم بضعف تفسير السدي إذا لم يكن هناك ما يوافقه أو ثبتت مخالفته للروايات الصحيحة أو موافقته للضعيفة ( صح ) .

٢٧. عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة ، اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادا ، وأكثرهم علما ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حي يسمون جنا ( صح ) .

٢٨. وعن الحسن قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح عن الحسن ( صح ) .

٢٩. قوله ( كان من الكافرين ) أي : من الكافرين الذي سيكونون مستقبلاً لأنه لم يكن هناك كفر بعد ( خطأ ) .

٣٠. الآيات فيها دليل على خطورة الحسد وأن أول معصية وقعت إنما كانت بسبب الحسد ( صح ) .